رواية

عبد الجبار ناصر

أيام المستعصم الأخيرة

سلسلة روايات

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

أيام
المستعصم
الأخيرة

ناصر ، عبد الجبار
أيام المستعصم الأخيرة : رواية / عبد الجبار ناصر
. ط1. القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2011.
328 ص ؛ 21 سم
تدمك : 2 - 661 - 293 - 977 - 978
1 - القصص العربية.
أ - العنوان . 813
رقم الإيداع : 1661 / 2011

©

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@ almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : صفر 1432 هـ يناير 2011 م

رواية

عبد الجبار ناصر

أيام المستعصم الأخيرة

مكتبة الدار العربية للكتاب

إلـى .. أمـي

التي رحلت عن هذه الدنيا بعد أن أهلكها الفزع على الأحبة والديار، وأدمت قلبها مشاهد القتل والخراب على أيدي الغزاة المغول الجدد، وأحزنتها مواكب الضحايا الأبرياء .

إلى أمي التي رحلت من دون أن يتحقق حلمها بالأمان يومًا ما ، فمأساة سقوط بغداد تكررت ثانية .

1

اشتدت ريح رطبة اضطربت معها أغصان الأشجار، فارتعشت أوراقها، وتمايلت سعفات أشجار النخيل الباسقة كراقصات يتمايلن يمنة ويسرة بين صفين من الندامى، وغُصَيْنات الشُّجَيْرات المصطفة بانتظام على امتداد ممرات القصر الكبير تنحني وتتلوى. مع شدة الريح، اصطفقت أبواب الغرف والقاعات المقبَّبة المطلة على الساحة المطوَّقة بالحدائق، وانفتحت على مصراعيها النوافذ الخشبية وتطايرت الستائر الملونة كاشفةً ما في غرف الحريم في جنوب القصر من خبايا، لتضوع رائحة البخور والطيب، وارتجت نوافذ الأروقة والدهاليز. تكاثفت غيوم مدلهمة طاردها رعد مدوٍّ هز الأبواب والنوافذ، فتطايرت الغربان والبوم فأجفل الحراس المتعبون، تعالى نباح كلاب الصيد وضج المكان بصراخ الأطفال الفزعين وصيحات النساء في غرف الحريم، وعلت وقوقة الحمام في الأبراج المشيدة بأشكال جميلة وألوان باهرة، وترددت زمجرة الضباع وغيرها من الوحوش المجلوبة من غابات الهند وأدغال إفريقيا المحصورة في أقفاصها الحديدية، وصهلت الخيول في إسطبلاتها الممتدة بمحاذاة السور الشمالي لحريم دار الخلافة. لفتت الضجة انتباه الحراس البعيدين المنتصبين عند «باب البدرية» و«باب النوبي» و«باب السلطان» وكذلك الحراس المتعبون الواقفون عند «باب التمر» الشاهق

المغلق منذ أيام الخليفة الناصر لدين الله، فبقوا في أماكنهم على الرغم مما قد يصيبهم من صواعق؛ لأنهم رأوا سيد القصر واقفا عند إحدى شرفات الطابق الثاني من قصر التاج، متطلعا بين الحين والحين إلى السماء المكفهرة، أو إلى فناء القصر وحدائقه وبستانه الكبير، أو إلى بوابته القائمة على عمد من رخام.

كان ذلك الواقف في شرفة القصر، السيد الوحيد من سادة العراق الذي يحفظ المسلمون أسماء أجداده كلهم، ولو سألت أي واحد من أولئك الحراس عنه لقال إنه عبد الله الإمام المستعصم بالله أبو أحمد أمير المؤمنين ابن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور ابن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله ابن المقتفي بأمر الله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن الأمير الذخيرة أبي العباس محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بالله ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الأمير الموَفَّق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي بالله ابن المنصور أبي جعفر عبد الله ابن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

كان أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله في الخامسة والأربعين من عمره، ذا وجه حنطي اختلط فيه بياض أبيه المستنصر وسمرة أمه الحبشية هاجر، وعينين واسعتين ناعستين، زينت جبينه خصلة من شعره فاحم السواد المسدَل على كتفيه العريضتين. كان مسترسل اللحية، ربعة، ليس بالطويل.

كان أهل بغداد يصفونه بأنه ظاهر الحياء، لين الكلام، سهل الأخلاق، سليم الصدر. وتناقل الناس ما سمعوه عن المقربين منه أنه حافظ للقرآن المجيد، عاكف على تلاوته، مواظب على الصلوات في أوقاتها وصوم الاثنين

والخميس من كل شهر، وصوم شهر رجب دائما، لا يخل بذلك مدةَ خلافته وقبل خلافته. له قبل الخلافة جاريتان، أنجب من الأولى ثلاثة بنين، أكبرهم أبو العباس أحمد وأوسطهم أبو الفضل عبد الرحمن، أما الثالث فقد مات صغيرا، وبنت واحدة، وطلبت أم أحمد عاتكة أن يعتقها ويتزوجها، ففعل ذلك، فلما ماتت، قرب إليه الجارية الثانية «ليلى» التي أنجبت له أربع بنات وولدا ذكرا هو أبو المناقب مبارك الذي يصغر أخاه الأكبر أبا العباس بعشر سنين، وطلبت منه ليلى أيضا أن يعتقها ويتزوجها ففعل ذلك. ولا يُعرف عنه أنه مارس الجنس مع جارية أخرى، ولا شرب مسكرا. لكن هناك من يقول إن الخليفة مغرم بسماع الغناء، وإذا بلغه أن مغنية ذات صوت أخاذ في بلد من البلدان، يراسل سلطان ذلك البلد في طلبها. وإنه يهوى تربية الحمام وركوب الحمير المصرية، وأقاويل أخرى اختلطت فيها الحقيقة بخيال المعجبين والكارهين.

ظلت بردة الرسول ﷺ المثبتة على كتفيه تخفق مع الريح التي تسارعت شدتها، فثبت يديه على عمامته السوداء المُوَشَّاة بحافة لامعة والمرصعة بحبات اللؤلؤ والجمان، فيما توسطتها جوهرة من الماس. كلما ومض البرق، أغلق عينيه. يعجبه البرق ويخافه في آنٍ. ما زالت في ذاكرته تلك الليلة البعيدة حينما كان طفلا في الرابعة من عمره. قفز من فراشه فزعا على صوت الرعد، وحين اقترب من النافذة متمنيًا رؤية المردة الذين يضربون الغيوم بالسياط فيحدث الرعد، كما أخبره فلاح عجوز كان يعمل في بساتين دار الخلافة، فاجأ عينيه برق قوي أبعده عن النافذة خائفا. تواصل دوي الرعد، وزاد وميض البرق مخلّفا خطوطا في السماء داخل مربع النافذة المفتوحة. شعر حينذاك أن الأرض تهتز تحت قدميه وسياط المردة تلهب ظهره، فركض مذعورا وسط

الدهليز ذي الأضواء الخافتة المتثائبة. ألصق جسده بباب غرفة أبيه، ضاربا بقبضتيه الصغيرتين، صارخا بكلمات لم يتذكرها. فتح المستنصر الباب رافعا سيفه الذي التمع نصله تحت ضوء المشعل القريب. إنه يتذكر وجه أبيه وقد رسمت عليه المفاجأة تحفزا لم يره عبد الله من قبل، وشعره. احتضن عبد الله ساقيْ أبيه الذي راح ينظر إلى طرفيْ الدهليز.

تساءل عبد الله مرتجفا: «أبتِ، ألست قادرا على فعل كل شيء؟» .

تنهد المستنصر، مُسْتَرِدًّا أنفاسه بعد أن تلاشت أفكار سوداء راودته. أجاب مُرَبِّتًا على رأس ولده: «ماذا حدث يا عبد الله؟ نعم، يا ولدي، أنا الخليفة وأفعل ما أريد».

أمسك عبد الله بيده متوسلا: «أوقف البرق يا أبتِ. أوقفه حالا» .

انحنى المستنصر ضاما عبد الله إلى صدره: «الرعد والبرق مثل الحياة والموت خارج حدود سيطرة البشر».

في تلك الليلة أدرك عبد الله الفرق بين الله وأمير المؤمنين، وكلما تقدم في العمر، تقلصت أمامه القدرات الهائلة السحرية للخليفة، ثم اختفت تماما عندما تولى الخلافة.

كثيرا ما أعجبه الوقوف والجلوس في الشرفة فجرا أو بعد صلاة العصر، ولا يغادرها إلا بعد حلول الظلام، أو حين تنتابه آلام ظهره بسبب انزلاق في فقراته، أو عندما تعاوده أوجاع الشقيقة. أحيانا، كان يصغي بخشوع لصوت المؤذن من الجامع القريب، وأحيانا كان يقرأ القرآن في خلوته تلك. حين كان صبيا ختمه على يد مؤدبه أبي المظفر علي بن النيَّار، فكان لإعلان ختمه للقرآن الكريم، احتفال كبير وولائم ضخمة صرف عليها أبوه أكثر

من عشرة آلاف دينار، وأعطى ابن النيار شيئًا كثيرًا، منها ألف دينار، وخلعٌ عديدة. لكن عبد الله لم يرتح يوما لشيوخ المساجد والمدارس، فهم يضيعون وقتهم ووقت تلامذتهم والناس في أمور ثانوية متعلقة بالقرآن الكريم، مثل حساب عدد كلماته، وحروفه، وعدد مرات تكرارها، فصرفوا أذهان العامة إلى أشياء لا تغنيهم، فتحول الاهتمام من الجوهر إلى القشور. لم ير أحدا من أولئك الشيوخ، على الرغم مما يدَّعونه من فكر وعلم، يعيد النظر في تفسير الآيات القرآنية مع مستجدات الحياة. كان بوده أن يطلب منهم ذلك لكنه لا يستطيع مواجهتهم بعد أن اكتسبوا مع الزمن سلطة تكفير من يريدون. ألم يعيبوا عليه سماع الأغاني؟

في مكوثه وحيدا في الشرفة، تخيل مرات وجوه أجداده تطوف في فناء القصر، حول تلك النافورة في وسط الفناء. وجد بعض السلوى في محادثتهم، الشكوى إليهم. كان يتحمل على مضض انتقاداتهم وتوبيخهم.

قبل سنوات، وبُعيد غروب الشمس بقليل، وفي وقفة له في هذا المكان، رأى أباه في حلة الحرب، رافعا سيفه، يسير بخطوات رتيبة حول النافورة. توقف قبالته، رافعا رأسه ببطء، متطلعا نحوه بعينين ثاقبتين بعثا الخوف في نفسه. تساءل المستنصر بصوت عالٍ حاد: «ما الذي دهاك يا عبد الله؟ ما بك؟ هل أنت سعيد بما آلت إليه دولة آبائك وأجدادك من ضعف وتدهور؟».

ارتجف عبد الله مصعوقا في مكانه. قال أبوه بنبرة غاضبة موبِّخة: «يطيب لك الوقوف في الشرفة لتقنع نفسك بما تراه من بغداد بأنك ما زلت تحكم القبضة ولو على مدينة واحدة. هل فكرت بما ينتظره الناس منك؟ لا أظن ذلك؛ لأنك مولع بتربية الحمام وسماع المغنيات!».

اختفى أبوه قبل أن يسمع رده. ردد عبد الله الجواب مع نفسه بصوت مسموع: «ليس بمقدوري يا أبتِ فعل المعجزات.. إن من سوء حظي أن

ظهرت خطايا الماضي كلها في عهدي. هل نسيت يا أبي أن بعض آبائك وأجدادك فعلوا بالدولة ما لم يفعله الأعداء، وأن ما تعيشه بغداد اليوم من أزمات ما هو إلا بعض حصيلة حماقة واستهتار وخلاعة أولئك الخلفاء؟».

أجهش يومها بالبكاء. بعد ذلك بعدة ليال، فر مذعورا من شرفته مشيرا بسبابته إلى فناء القصر. تراكض الحراس يجوسون المكان، فلم يجدوا أحدا في الشرفة والفناء. في ذلك المساء، تراءى له مشهد ارتجف معه رعبا. رأى صفا من الموتى يتسلقون المواسير من فناء القصر إلى الشرفة. كان يتقدمهم جده الأمين، فمر من أمامه حاملا بين يديه رأسه الذي حزَّته سيوف قادة أخيه المأمون. تلاه جده المتوكل بشاربيه المعكوفين، تماما كما هي صورته على النقود المسكوكة في زمانه، يمشي مترنحا وقد تهدلت كوفيته على جبينه. توقف المتوكل أمامه قائلا بفم مرتخ: «لا تثق بأحد يا ولدي. إياك أن تظنني أمشي مترنحا بسبب شراب معتق مما اعتدت عليه، لكني هذه المرة أترنح من سم قتلني به ولدي. الطمع من أجل العرش، لكن هل تستحق ملذات فانية لا تدوم طويلا أن يغدر الابن بأبيه؟ إذا شككت بالآخرين فحينها سأكون عرضة لشكوكهم، وهذا ما فعلته. أنصحك بأن لا تثق إلا بنفسك لأنك أعرف بدواخلك».

صمم المستعصم على الهروب من الشرفة للخلاص من ذلك الكابوس، لكنه شعر أن قدميه مشلولتان، فبقي في مكانه لاهثا، فاغر الفاه، متصلب الأطراف. مرّ أمامه الخليفة المستعين، تغطي وجهه المتورم كدمات زرق وبقع دم متيبسة، وتلاه المهتدي راسفا في القيد. كاد أن يسقط مغشيا عليه، حين جاء رأى قالبا من الرصاص يحمل ملامح جده المعتمد. كان قالب الرصاص يحرك ساقيه بآلية رتيبة. أغمض المستعصم عينيه ثم فتحهما ليرى

أمامه اثنين من أجداده، يتأبط أحدهما ذراع الآخر، يتلمسان طريقهما بحركة يديهما ورجليهما. قال أكبرهما: «أنا المتقي وهذا جدك المستكفي. من العار أن تكون مسلوب الإرادة إلى حد ترى معه أصابع خدامك تمتد نحو عينيك لتسملهما ولا تستطيع أن تفعل شيئا!».

جاء آخرهم، كان جد جده المستنجد بالله، عاريا واضعا يديه على عورته، فقد قُتل مخنوقا في الحمام. لم يجنِ أجداده على أنفسهم وحسب، بل على من تلاهم من الخلفاء وعلى الرعية المساكين، ومع ذلك تريد منه روح أبيه أن يرفع قامات بني العباس.

لم ينس تلك الرؤية، ردد المستعصم مع نفسه: «المرء يصنع قَدَرَه. لن أدع الأقدار تقرر مصيري». تآلف مع الماضي وسِيَر الأجداد منذ الطفولة. وبقدر ما كانت تلك السير عبرة، كانت أيضا قيودا أنَّ من ثقلها، فالناس والكتّاب يقارنون كل حركة منه، كل كلمة، بما فعله وقاله الأجداد، فالماضي بات مقياسا للحكم عليه. ورث عبقرية وحكمة وعدالة واستهتار ومجون ورعونة ست وثلاثين خليفة عباسيًّا.

هذا المكان، قصر التاج، قطعة من الماضي، يروي الكثير من الأحداث والآمال والنكبات. بُني القصر على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبل زمن بعيد، بعيد جدا، وجدد بناءه المكتفي بالله ابن المعتضد بالله مستفيدا من مواد أمر بنقلها من خرائب القصر الأبيض الكسروي في المدائن، غير أن القصر تعرض لما تعرضت له بغداد من حصار وتمرد وضرب بالمنجنيق، وفيضانات وصواعق وحرائق، المرة تلو المرة، وفي كل مرة ينهض «التاج» من جديد. آخر نكبة حلت بالقصر كانت قبل مائة سنة تقريبا، في زمن جده المقتفي، حين وقعت صاعقة فتأججت النيران في القصر وقبته، وظلت النيران

تأكله تسعة أيام، خلفته بعدها رمادا، وقطعا متساقطة متفحمة. بقي المكان خرائب مهملة مدة عشرين عاما حتى جاء جده الخليفة المستضيء فأقامه من جديد. ومثل كل قصور الخلفاء، كان «التاج» رائعة من روائع الفن في العمارة والزخرفة، يتكون من مجموعة من الغرف ذات طابقين، تطل على ساحة مكشوفة، في جانب منها بين الغرف، إيوان كبير يقابله مسجد، ويقع خلف الغرف رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة، ويقع مدخل هذا البناء في الضلع الجنوبي الغربي حيث يؤدي إلى ممر أفقي، طرف منه يؤدي إلى القاعات الكبيرة، والطرف الآخر إلى الساحة الوسطية، ويتقدم الغرف الصغيرة المطلة على الصحن، رواق مزخرف بمقرنصات بديعة التكوين والنقوش، كما زُيِّنت بواطن الديوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية.

في هذه الرحاب، أمضى كل سنوات عمره مدللا، معززا، لم يعرف الحيرة والقلق إلا بعد اعتلائه كرسي الحكم. أصبحت هواجسه، وقلقه، وحيرته كلها على بقائه على هذا الكرسي. هنا كان يركض طفلا تلاحقه الخادمات باكيات متوسلات به أن لا يسرع مخافة السقوط فتقع على رؤوسهن طامة كبرى. هناك، وراء تلك الأغصان المتشابكة، سمع الكثير من حكايات العشاق التي كانت ترويها له جارية جميلة، عذبة الحديث، حافظة لأشعار العرب وحكايات المحبين. أوه، كيف نسي اسمها؟ يتذكر جيدا الليلة الأولى. كان في الحادية عشرة من عمره حين استيقظ تلك الليلة فزعا من حلم مخيف، رأى فيه العفاريت، حكت له إحدى المربيات العجائز، قصتها مع غلام بطل، فأطلق صرخة عالية، ولم تغمض عيناه إلا بعد أن أمرت أمه تلك الجارية الجميلة أن تبات في غرفته، فجاءت بحصير مصنوع من بردي وأسل ووضعته على الأرض قريبا من سريره، فحكت الجارية حكاية مسلية سرعان

ما غرق معها في نوم عميق . في الصباح، سألته أمه إن كان نومه مريحا أم لا، فأجابها بأنه كان مريحا للغاية، فأمرت الجارية أن تبات كل ليلة في غرفة ولدها الصغير. وعندما أصبح مراهقا، ظل يجد متعته في سماع حكايات الجارية التي تعدت حكايات الماضي إلى تفاصيل غرامها بأحد خبّازي القصر. توسلت به ذات يوم أن يساعدها وحبيبها الخبّاز على الهروب من القصر، أعطاها صرة من الدراهم وساعدها على اجتياز بوابة دار الخلافة، لكنها وقبل أن تجتاز بوابة السور الخارجي، وقعت هي والخبّاز بيد جنود أبيه الخليفة عندما اكتشفوا الدراهم معها، ولم تفصح عن مصدرها، فاتهمت مع عشيقها بسرقة أموال من قصر الخليفة. جبن عن الدفاع عنها بينما كان في وسعه أن يدافع عنها وينقذها، لكنه خشي ما ظنه فضيحة، فاكتشف بعد حين أن كل شيء مباح لأولاد الخليفة وحتى أولاد أقارب الخليفة ومن يليهم وصولا إلى خدم الخليفة والأمراء، فقُطع رأسها ورأس الخباز أمام مئات الجواري والخدم كي يكونا عبرة، بينما بقي هو منزويا خلف أحد الأعمدة يبكيهما بحرقة ويصرخ بصوت مكتوم أن يتركوهما.

خلف تلك الأغصان المتشابكة، كان، وهو في السابعة عشرة من عمره، يلتقي الجارية الحسناء «رمانة»، يتعانقان ويتبادلان القبل والآهات. طلب أن تكون غرفتها بجانب غرفته لتكون في خدمته وقريبة منه متى ما شاء طلبها. جاءته ذات ليلة وأخبرته أنها حامل. أذهله الأمر فراح يصب لعناته عليها، بينما كانت «رمانة» تنظر إليه بدهشة وذعر، فلا شيء كان يمنعه من التصريح بفعلته لأنها جاريته. وعندما هدأت سورة غضبه، وعدها خيرا. ظل يغدق عليها يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع بوعد مفاتحة أبيه. كان حقا يرغب بالزواج منها، لكنه كان يخشى غضبة أبيه، فبقي مترددا في الأمر. لم يبق أمرها

سرا، فقد اكتشفت المسؤولة عن جواري القصر، أم معبد، أن «رمانة» حامل في الشهر الثالث، فأبلغت المستنصر بالله أن الجارية تزعم أن نجله الأكبر، عبد الله، دعاها إلى فراشه. تلقاه بعينين حمراوين: «لم أصدق ما ادعته هذه الجارية الفاجرة، أليس كذلك؟».

كان مضطربا، فهز رأسه تصديقا لأبيه. كادت المسكينة أن تقتل لولا حملها، فاكتفى الخليفة بطردها من القصر، صارخا في وجهها: «اذهبي إلى من شاركك الإثم» . من ذلك اليوم اختفى خبر «رمانة»، لكنه ظل يتعذب لموقفه ذاك وتخاذله.

كان القصر محاطا بحدائق غنّاء وغابات من نخيل وأشجار معمِّرة. هناك، عند تلك الزاوية القريبة من السور، كانت تعلو القبة التي بناها المكتفي على أساطين من الرخام. ودّ عبد الله المستعصم أن يضحك عاليا حين اجتر ما سمعه عن تلك القبة التي أطلق عليها «قبة الحمار»؛ لأن المكتفي كان يصعد إليها، في مدرج حولها، كمنارة جامع سُرَّ مَنْ رأى، على حمار صغير. في وسط فناء القصر حوض مسبح كبير، تتقافز فيه وتترامى على جوانبه في أيام الصيف عشرات الجواري الكواعب العاريات، من الروميات والصقليات والقبرصيات والأرمينيات والإثيوبيات. ما إن يلمحن الخليفة حتى يبدأن باستعراض جمال أجسامهن وكل واحدة منهن تحلم أن تكون يوما أمًّا لأحد أولاد الخليفة. أما إذا أراد أن يسبح في الحوض الكبير، فلا يسمح لأحد بالبقاء قرب الحوض، ثم يطلب آمر الحرس من أحد الجنود النزول عاريا إلى الحوض يسبح فيه ويكرع منه، وبعدها ينسحب الحراس فيأتي هو ليقفز ويسبح. قيل له كانت تطوف في الحوض أيام أجداده أربعة قوارب، في كل قارب أربعة مقاعد من الذهب. تساءل المستعصم بحرقة: «هل يُكتب للتاج

أن يبقى قائما مع كل ما تحمله الأيام المقبلة من مفاجآت بدأت طلائعها مع توالي الأخبار بتقدم العدو في بلاد المسلمين؟» .

كان الخليفة يرى من شرفته بوضوح، دور الرعية في حريم دار الخلافة التي يفصلها عن قصر الخليفة سور لا يدخله العامة، ومنائر الجوامع، وتلك القبة الكبيرة التي تعلو مسجدا ضم قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتلك القبة مخروطية الشكل القائمة على ضريح الشيخ عمر السهروردي، ودروب الرصافة التي تراكض فيها الناس، يقودون أطفالهم إلى البيوت، أو يسوقون دوابهم إلى الحظائر قبل أن يسقط المطر، فتتحول تلك الدروب إلى بحيرات صغيرة أو فخاخ من الطين. تطلع إلى الأسواق الكبيرة والجوامع الرائعة وقصور الخلافة، إلى الدور والدكاكين الممتدة حتى السور، وإلى ما وراء السور من مزارع وبساتين والتي بدت خطا داكنا ممتدا مع الأفق.

«بغداد» هتف المستعصم بِوَلَهٍ، كمتصوف في محراب عبادة. إنها وديعة الأجداد بين يديه، تاريخ حياته. يحب كل شبر منها، دورها، منازلها، دروبها، شعابها، محالها، أسواقها، سككها، أزقتها، مساجدها، حماماتها، طرزها، خاناتها، طيب هوائها، عذوبة مائها، برد ظلالها، أفياءها، اعتدال صيفها وشتائها، صحة ربيعها وخريفها، طيبة سكانها. ما أعظم سحرها! وما أشد فتنتها! أليست مفارقة أن جده المنصور حين أسسها ، سماها «مدينة السلام»، لكنها لم تعرف يوما طعم السلام؟! كلف بناؤها أموالًا طائلة، إذ إن المنصور عمل على تحصينها تحصينًا منيعًا وبنى فيها القصور الفخمة، حتى تحاكي حواضر العالم الكبرى جمالًا وقوة، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم، فبلغت نفقات المدينة وما إليها من أسوار وأبواب، والقصر، والمسجد الجامع، والأسواق، والقباب، والخنادق وغيرها ، واحدا وثمانين ألف ألف دينار من الذهب.

لم يغب عن ذاكرته ذلك الحادث الذي أثار دهشة الحاضرين واستغرابهم، حين أمر فجأة بجلد أحد الشيوخ الذي روى في مجلس الخليفة ما ذكره الطبري في تاريخه عن تأسيس بغداد. قال الشيخ: «ذكر الطبري أن المنصور لما عزم على بناء بغداد، أحب أن ينظر إليها عيانا، فأمر أن تُخَطّ بالرماد، ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر في أقسامها وطاقاتها ورحابها وما خُطَّ من خنادقها. بعد ذلك أمر أن يُجعل على تلك الخطوط حَبّ القطن ويصب عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها، وعرف رسمها، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم».

تطلع إليه الحاضرون ينتظرون منه كلمة كي يدركوا خطأ الشيخ فيجتنبوه. خاطبهم المستعصم منفعلا مبررا قراره بالعقوبة القاسية بحق الشيخ الراوية: «لا أحب هذه الحكاية. إن خط بغداد بالرماد وإشعال رسومها يبعث في نفسي التشاؤم والكدر».

أدرك فيما بعد أنه أخطأ في تلك العقوبة، لكنه كان محكوما بانفعالاته، فهي تعتّم عليه الرؤية، وتدفعه إلى التخبط. أقر أن ذلك من عيوبه التي يحاول مخلصا تصحيحها. ربما عاقب ذلك الشيخ المسكين بسبب تعلقه بالمدينة التي أحبها.. بغداد. إنها سجل حياته، ماضيه وحاضره ومستقبله. كل مكان منها موصول بموقف أو واقعة أو حكاية من مجدها الغابر وتاريخها المجيد. ترك كل خليفة بصماته، فما الذي سيتركه هو؟ كثيرا ما ضايقه هذا السؤال. خمسة عشر عاما مدة طويلة، لكنه على الرغم من ذلك لم ينصب جسرا مثل جده الظاهر، ولم يبنِ مدرسة كبيرة كأبيه المستنصر، ولا قصورا مثل أجداده الراحلين. تمنى أن يأتي اليوم الذي يفعل فيه ما يخلد ذكره، ألم يحكم جد أبيه الناصر أربعين عاما، عمّر فيها بغداد، وازدادت سطوة الخلافة في عهده؟

أمامه من الزمن ما يكفي. كان ذلك الجواب يهدئه قليلا، أو قد يقنع بعض سامعيه، لكنه يحس في أعماقه بالتقصير تجاه نفسه وتجاه الآخرين. ما الذي يستفيده الناس من تبحره في الفقه، وحفظه القرآن، والأحاديث النبوية؟ أين إنجازاته كحاكم مسلم؟ ما الذي يحول بينه وبين أن يكون الحاكم القدوة لمرؤوسيه؟ فكر تهربا، أن السؤال يجب أن يكون: لماذا عليه أن يكون قدوة؟ إنه مسؤول أمام الله فقط، أما الآخرون فخاضعون للقانون والشريعة والثواب والعقاب. هل يرضى الله عنه إذا تحصن في قصره، وأهمل شؤون رعيته؟ لا، وألف لا. لا ينبغي له، كما قال العقلاء، أن يكون فخره بالآباء والأجداد، وإنما ينبغي أن يكون فخره بالفضائل التي حصلها، والأخلاق التي كملها، والآداب التي استفادها، والأدوات التي استجادها. إن ما يميزه عن الآخرين، أن مشيئة الله هي التي جاءت به إلى الحكم، ولو شاء، سبحانه، العكس لفعل، فعلى الناس أن تدرك هذا ولا تنساه لحظة.

هزّ رأسه بقوة مبعدا الأفكار التي تطارده. تطلع إلى صفوف أشجار التفاح والتوت والتين والخوخ والسدر والدفلى والنخيل وشجيرات الآس المحاذية للممرات في الفناء، إلى دوائر الزهور تحت الشرفة.

في تلك البقعة المنخفضة، عند ركن السور الجنوبي، دُفن أبوه أبو جعفر منصور المستنصر بالله، أياما قبل أن ينقل جثمانه إلى «مقبرة الخلفاء» في الرصافة. مازالت عالقة في باله كل تفاصيل تلك الجمعة، العشرين من جمادى الآخرة من عام أربعين وستمائة للهجرة النبوية. أيقظه أحدهم في الصباح الباكر. حين فتح عينيه، رأى أمامه عند حافة السرير، قائد الجند شرف الدين إقبال الشرابي، وعددا من أعوانه، والدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي، واقفين بوجوه عابسة تنذر بشر مستطير. اقترب الشرابي منه أكثر حتى وقف على

رأسه. خطر في ذهنه أنه يروم قتله. لم يكن ذلك غريبا، فقد شهدت قصور الخلفاء العشرات من محاولات القتل لانتزاع السلطة. لا بد أنهم قتلوا أباه قبل أن يأتي الدور عليه. لم يساوره شك في نية قائد الجند وأعوانه، لكنهم لم يرفعوا سيوفهم عليه. كان الهلع قد أسكت كل حركة فيه. انحنى القائد إقبال الشرابي أكثر من المعتاد، ربما كان ذلك للسخرية منه. توقع أن يطلق الشرابي التركي ضحكة ساخرة، فيكررها رجاله، غير أن إقبال الشرابي قال بصوت حازم خفيض: «هنالك أمر نرجو أن تشاركنا في كتمانه الآن، وأن تكون خطوتك الحكيمة الأولى استتاب الأمن والاستقرار في البلاد».

لم يفهم شيئا. تساءل مذهولا: « ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ ».

قال القائد، وكأنه يفضي بأمر لا يحتاج إلى توضيح: « قضى الخليفة نحبه».

قال الدويدار الكبير تحسبا لأسئلة جديدة واختصارا للوقت: «في ساعة مبكرة من هذا اليوم، توفي مولانا أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ابن الظاهر بأمر الله، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. إنا لله وإنا إليه راجعون».

ودّ في تلك اللحظة لو فرّغ حزن فجيعته في صرخة مدوية تُردد صداها جدران «التاج» وأروقته وممراته وأسواره. هل حقا فقد أباه إلى الأبد؟ بالأمس، ظلا يتسامران إلى وقت الغروب، فكيف يصدق مثل هذه الوفاة المفاجئة؟ إنه يراه الآن، مثلما فارقه قبل ساعات. صوته ما زال يرن في أذنيه.

أضاف الدويدار الكبير بنبرة سريعة: « أمرنا الجميع بكتمان الأمر حتى تتقلد أنت يا مولاي الخلافة».

همس الشرابي بحماس خدش هيبة الحزن: «إن عمك الخفاجي طامع في الخلافة، وله أنصاره ومؤيدوه، فعلينا أن نفوت الفرصة عليه ما دام لم يعرف بالخبر بعد».

حاول أن يستشف دوافعهم، فتساءل ببراءة: «ولماذا لا يكون عمي خليفة؟».

أجاب الشرابي، متطلعا إلى وجوه أعوانه للتأكيد على موالاتهم لقائدهم: « أنت أحق بالخلافة منه، وعمرك الآن ثلاثون عاما، فلست صغيرا ليكون وصيا عليك. لو آل الأمر إليه، فستكون أنت وأمك وأبناؤك من أوائل ضحاياه. إن له من الطموحات ما يجعل الدنيا كلها ضد بلادنا وسيعرضنا لكوارث لا قدرة لنا على احتمالها».

انبرى علاء الدين مؤيدا: « مولاي، لا بد أنك قد سمعت مقولته التي يرددها دائما حتى في حضرة الراحل والدك، إن ملّكه الله تعالى أمر الأمة، ليعبرن بالعساكر نهر جيحون، وينتزع البلاد من يد المغول، ويفنيهم قتلًا وأسرًا وسبيًا».

تساءل عبد الله بصوت مرتجف: «وما العيب في مقولته هذه؟ ألا يتمنى الناس ذلك دفاعا عن العراق وبلاد المسلمين؟».

رد الدويدار الكبير بجفاء: «مقاتلة المغول معناها إقحام البلاد في حروب لا معنى لها ما دام المغول لا يتحرشون ببغداد».

كان حزن عبد الله أكبر من التفكير بصواب ذلك الرأي أو عدمه. ارتدى ثيابه على عجل، وانطلق معهم إلى الغرفة التي سُجِّي فيها جثمان أبيه. أثار دهشتهم حين توقف عند غرفة أستاذه منذ الصغر، والذي تعلم منه الفضائل والعربية والخط الحسن، الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي بن محمد النيار،

الأستاذ والإمام الشافعي. طلب منه أن يرافقه إلى غرفة أبيه. كان الشيخ على علم بالخبر المحزن.

كان المستنصر مهيبا، حتى وهو جسد بارد ممدد على سريره. لم يتجاوز الرابعة والخمسين حين توقف قلبه فجأة. كان أشقر، ضخما، قصير القامة، ذا وجه جميل أبيض مشرب بحمرة، أزج الحاجبين، أدعج العينين، سهل الخدين، أقنى الأنف، رحب الصدر.

قبّل عبد الله وجه أبيه. قبل أن يكمل قراءة سورة الفاتحة، أجهش في البكاء، واضعا رأسه على صدر أستاذه الشيخ.

قال الشرابي بنبرة حازمة منذرة: «والآن، ما رأيك يا مولاي؟».

أجاب متلعثما: « اتركوني دقائق قليلة أشاور فيها أستاذي الشيخ».

لم يغادروا الغرفة، بل انزوَوْا في ركن بعيد منها. أطرق الشيخ برأسه إلى الأرض طويلا. كان الرجال يراقبونه باهتمام بالغ. عبد الله كان ينتظر أيضا ما سيقوله الشيخ، فلن يحيد ابن الخليفة عما يقترحه أستاذه، ولو كان التنازل عن الخلافة. سحب الشيخ ابن النيار نفَسا طويلا. قال هامسا: «هل عرفت، يا مولاي، سبب وفاة أبيك أمير المؤمنين؟ الأطباء يؤكدون أن شخصا ما وضع في فمه أثناء نومه قطرات من مادة سمية فتاكة سريعة المفعول».

فتح عبد الله عينيه على سعتهما، تلفت حوله بغضب. صوَّب نظرة احتجاج قوية إلى الرجال الذين انهمكوا في الحديث عن خطط عزل وتعيين.

أضاف الشيخ ابن النيّار بصوت خفيض: « لا يسعك الآن البحث عن الفاعل ومعاقبته. القتلة معروفون. عليك يا سيدي أن تعمل بحكمة. يقول الحكماء: اجعل قتال عدوك آخر حيلتك، وانتهز الفرصة وقت إمكانها، وكِلْ الأمور إلى أكفائها، ومن عادى من لا طاقة له به، فالرأي له مداراته وملاطفته

والتضرع إليه، حتى يخلص من شره ببعض وجوه الخلاص. وقالوا : ينبغي للملك ملاطفة أعدائه، وإخوان أعدائه، فبدوام الإحسان إليهم تزول عداوتهم، وإن أصروا على عداوته بعد إحسانه، كانوا قد بغوا عليه، ومن بغي عليه، لينصرنه الله. الدنيا دول، فما كان فيها لك أتاك على ضعفك، وما كان فيها عليك، لم تدفعه بقوتك، والشر مخوف ولا يخافه إلا العاقل، والخير مرجُوّ يطلبه كل أحد، وطالما تأتّى الخير من ناحية الشر، وتأتّى الشر من جهة الخير. مولاي، إنهم يخيرونك بين الحياة والموت، بين الخلافة والقتل. حتى لو تنازلت عن الخلافة، سيعتبرونك مصدر تهديد، لا بد من القضاء عليه. ليس أمامك سوى القبول، وليكن الله في عونك».

في ذلك الصباح، استدعَى الوزير ابن الناقد، وهو عاجزٌ، في محفةٍ، وأحضر أيضًا مؤيد الدين محمد بن العلقمي أستاذ الدار، فمثلا بين يديْ عبد الله، وقبلا الأرض، وهنآه بالخلافة، وعزياه بالمستنصر، وبايعاه. تم إحضار جماعة من الأسرة الشريفة من أعمامه وأولاد الخلفاء. وفي بكرة السبت، رأى الناس أبواب الخلافة مغلقةً، وجلس عبد اللطيف بن عبد الوهاب الواعظ مخبرا الناس بوفاة الخليفة، وجلوس ولده المستعصم بالله. ثم لما ارتفع النهار، استدعَى الأعيان للبيعـة، وجلس الوزير لعجزه، ودونه بمرقاة أستاذ الدار، وكان يأخذ البيعة على الناس، وردد كل واحد منهم : «أبايع سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيه الشريف، وأن لا خليفة للمسلمين سواه». بايع الناس على درجاتهم، وبايع في اليوم التالي الأمراء الصغار والمماليك، وبايع في اليوم الثالث من تبقى من الأمراء والتجار وعامة الناس. ثم جلس الملأ للعزاء بأبيه المستنصر. تكلم المحتسب جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي،

وتكلم الشعراء، لكنه كان بعيدا عنهم. كان يفكر في الحِمل الذي سيتعب كاهليه، وفي المؤامرات التي ستحاك ضده، وفي وجوب أن يدفن عواطفه ومشاعره حين يأمر بقطع رؤوس بشر مثله، كل جريرتهم معارضة حكمه، وأن يغمض عينيه عن جثث القتلى ممن يزج بهم في الحروب، ويسد أذنيه عن صراخ الأرامل والصغار اليتامى. ودّ أن يغادر كرسيه بلا رجعة، لكنه خاف من القتل على أيدي من تباروا في تقديم الولاء والطاعة له.

ظل أمر وفاة المستنصر خافيا على الناس في اليوم الأول، حتى أن خطباء صلاة الجمعة دعوا الله أن يطيل في عمره. في تلك البقعة المنخفضة من الأرض دُفن أبوه. وبعد أن بايع كبار القادة والرؤساء، علم الخفاجي بالأمر واعتبره اغتصابا لحقه، فأوغر الشرابي وابن العلقمي صدر عبد الله، الذي لُقِّب في تلك الجمعة بالمستعصم بالله، على عميه الخفاجي وأبي القاسم أحمد، فأوعز بسجنهما، وما زالا قابعين في سجن خاص. حقق وتقصى لمعرفة مَن سَمَّ أباه، لكنه لم يتوصل إلى شيء. حدث الشيء نفسه لأخيه أبي القاسم الذي مات في عمر الشباب، مخلّفا بنتا واحدة اسمها زينب. كم أحزنه ما أشاعه المغرضون بأنه كان وراء موت أخيه.

كلما رأى شيخه ابن النيّار وثبت من مخيلته تلك النبوءة التي يستذكرها كلما انفرد بنفسه. بقيت تعذبه وتداهمه عند كل حادثة ومكروه. قيل للخليفة يوما إن أستاذه ابن النيّار مريض جدا، ويود رؤيته. فذهب إلى دار الشيخ على عجل. أومأ ابن النيار إلى المستعصم أن يدنو منه أكثر. طلب منه أن يأمر الآخرين بترك المكان. حينها، قال الخليفة بابتسامة مطمئنة: «ها يا أبتِ، هل لك طلب خاص فأنفذه في الحال؟».

أجاب الشيخ بصوت واهن متقطع: «أظن يا مولاي أنها لحظاتي الأخيرة في الحياة».

قاطعه الخليفة مطمئنا: « ما هذا الكلام يا شيخي الجليل؟ أكد الأطباء أنه لا خطر على حياتك، وستمر هذه الأزمة سريعا».

قال الشيخ بصوت مبحوح: « أخشى أن تخطفني المنية قبل أن أقول لك ما في صدري».

فتح المستعصم عينيه على سعتهما، قال باهتمام: « قل ما تريد يا أستاذي فكلي آذان صاغية».

أمسكت يد الشيخ النحيلة بيد الخليفة الناعمة: « عندي طلب أخير.. أتمنى أن تفكر في مستقبلك، وتحاذر من أعوانك وأعدائك، وتكسب حب رعيتك وتقوي دولتك».

سأله مستغربا: « لماذا تقول ذلك يا ابن النيار؟».

دمعت عينا الشيخ. قال بصوت مختلج: «قلت ذلك من خشيتي عليك».

سأله الخليفة مقطبا حاجبيه: « مم تخشى عليّ؟».

أجاب ابن النيار ببطء شديد: «مما في بالي».

هز المستعصم يد الشيخ برفق ليكمل ما يريد قوله، فانتبه الشيخ لاهثا مغمض العينين: « بدأ حكم آل سفيان بمعاوية بن أبي سفيان وانتهى بمعاوية بن يزيد، وبدأ حكم آل مروان بمروان بن الحكم وانتهى بمروان بن محمد، وابتدأ حكم الفاطميين بعبد الله المهدي، وانتهى بعبد الله أبي محمد العاضد لدين الله، وابتدأ حكم آل العباس بعبد الله أبي العباس السفاح، وأخشى أن ينتهي بك يا عبد الله».

تعافى الشيخ بعد أيام قلائل، لكن نبوءته ترسخت في أعماق المستعصم، وظلت تؤرقه.

ردد الخليفة مع نفسه بصوت مسموع : « ابتدأ حكم آل العباس بعبد الله أبي العباس السفاح، وأخشى أن ينتهي بك يا عبد الله».

تململ المستعصم في مكانه في الشرفة، هازا قبضته في الهواء، قال في نفسه: « المرء يصنع قدره، ستثبت الأيام خطأ توقعاتك يا ابن النيّار. إن قوتي أكبر من حدود دولتي. أنا إمام المسلمين، وهذا سر قوتي وبقاء دولة بني العباس. كلمة واحدة مني تحرك المسلمين في كل شبر من الأرض. من ذا يفكر في إعلان الحرب على خليفة جنوده كل المسلمين على الأرض؟».

أفاق من شروده حين رأى في فناء القصر اثنين من الحرس يمسكان شخصا من ذراعيه ويكفخانه على رأسه. كان الرجل أشعث الرأس، طويل اللحية، عاري الصدر، ذا ملابس رثة. سألهما الخليفة عن ذلك الشخص وما فعله، فأجاب أحد الحارسين رافعا رأسه نحو الخليفة ضاحكا: «مولاي، هذا المجنون عبدول أثار ضجة عند بوابة القصر مدعيا أنه نبي».

قال المجنون محتجا: «أنا عبد الله والمجانين يدعونني عبدول».

سأله الخليفة باسما: «حسنا يا عبدول، لكل نبي معجزة، فما هي معجزتك يا هذا؟».

أجاب الرجل واثقا من نفسه، وهو ينتزع ذراعيه من الحارسين: «ليأمر أمير المؤمنين بأي شيء وسيجده أمامه».

طلب منه الخليفة أن يحضر في هذه اللحظة مائدة عامرة بالطعام والشراب. انحنى عبدول قائلا: «لو كنتُ يا مولاي في مكان آخر لفعلتُ ذلك، ومن الصعب أن آتي بمائدة من الطعام والشراب وأنا في قصر الخليفة، وكل من دخل القصر هو ضيف على أمير المؤمنين».

انفجـر المستعصم في ضحكة صاخبـة ، فسأله مازحـا: «ومن ربك يا عبدول؟».

ارتسمت علامات الجد على مُحَيّا عبدول، فتساءل مستغربا: « إنهم كثيرون، أي رب تقصد؟».

أضاف: «عقلي يقول إن كل من لا يحاسبه البشر هو رب. أنت مثلا واحد من الأرباب. لا أحد يحاسبك من البشر وأنت مثلهم».

أحب المستعصم أن يغير الحديث؛ فمثل هذه الأقوال، حتى لو كانت من مجنون، تعكر مزاجه: «دعنا من هذا الهراء، قل لي يا عبدول هل تتحدث إلى ربك الذي بعثك نبيا؟».

تنهد عبدول، وعلت وجهه ابتسامة كبيرة، بانت معها لثته الأمامية التي تساقطت أسنانها: « أنت الرب الوحيد الذي تحدثت معه».

رفع الخليفة سبابته محذرا ضاحكا: «قلت كف عن هذا القول. هل تحدثت إلى رب العالمين؟».

استغرق عبدول في الضحك وكأنه تذكر أحاديث حميمة: « أتحدث مع ربي لكنه لا يحدثني. يحدثني أحد الملائكة. دائما نتحدث. آخر مرة كانت ظهر هذا اليوم».

تساءل الخليفة وهو يتهيأ لضحكة قوية: «أخبرني يا عبدول عن حديثكم الأخير، هيا».

قال عبدول وكفاه تغوصان في شعره الأشعث المغبر: « كنت متمددا على العشب في البستان، فقلت: أيها الملاك الصديق، كم تبلغ الألف ألف سنة في السماوات؟ فأجابني: دقيقة واحدة يا عبدول. قلت: وكم قيمة الألف ألف

دينار؟ قال: بالنسبة لي أقل من فلس واحد. قلت : أيها الملاك أعطني فلسا واحدا. قال: انتظر دقيقة يا عبدول!».

كاد المستعصم أن يهوي من الشرفة حين تمايل من شدة الضحك. أمر أن يُترك عبدول حرا في حدائق القصر وبساتينه.

عاد الهدوء مرة أخرى وعادت الكآبة. حطت عينا المستعصم بالله أخيرا على زهرة أقحوان حاصرتها الريح، طوحتها. سقطت منها وريقة، وريقتان. ظلت الزهرة تقاوم. أحنتها الريح أكثر، لامست الأرض، ارتفعت ثانية، لكن لم يبقَ منها سوى قلبها الأبيض، غير أنها بقيت محنية.

أظلمت السماء فجأة. اهتز المكان بدوي الرعد، وتتابعت خيوط البرق مضيئة، في لحظات خاطفة سريعة، تكوينات غريبة من الغيوم، ووجه الخليفة ويداه المبسوطتان على سياج الشرفة الحجري. ظلت عيناه مشدودتين إلى خيوط البرق وتكويناتها الغريبة. هبَّ حزن كان راكدا في أعماقه، اجتاحه، أثار هواجسه. هل يا ترى سيتكرر في بغداد ما حدث قبل أسابيع قليلة في المدينة المنورة؟ ظهر حينها في المدينة دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة؛ فكانت ساعة بعد ساعة واستمرت خمسة أيام، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة الشرقية قريبًا من قريظة، رآها الناس من دورهم من داخل المدينة كأنها عندهم، وسالت أودية منها وادي شظا. سمع الناس أصواتًا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، أولها يوم الاثنين أول الشهر، فلم تزل الأصوات ليلًا ونهارًا، حتى ظهرت النار يوم الجمعة. انبجست الأرض عن نار عظيمة، وامتدت أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال وعمق قامة ونصف، وسال الصخر منها، وقيل إن النار كانت تدب دبيب النمل، وكانت تحرق كل ما مرت عليه من الحجارة وغيرها، فكانت الحجارة تذوب كما يذوب الرصاص، ثم

صار فحماً أسود، وأضاءت بيوت المدينة منها في الليل، حتى كان في كل بيت مصباح، ورأى الناس سناها بمكة، فالتجأ أهل المدينة إلى قبر رسول الله ﷺ، ودعوا واستغفروا الله تعالى، وأعتقوا عبيدهم وتصدقوا، واحترق مسجد رسول الله ﷺ وذهبت سائر صفوفه، وبعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة.

أحس بالظلام يتسرب داخله، يفتت مزاعمه بالقوة وقدرته على تحريك جيوش المسلمين. أصبحت الدولة الكبيرة مجرد ممالك صغيرة متناحرة، ولم يعد الناس يؤمنون بقادتهم. لم يحدث هذا في عهده، بل حدث في حكم من سبقه. حتى الموصل أمست تابعة بالاسم فقط لخليفة بغداد، وليس للخليفة من حول أو قوة خارج حدود العراق. لم يعد له سوى اسم يُذكر عرضا في خطبة صلاة الجمعة. حتى في بغداد، أصبح الخليفة مهددا بالأخطار. الصليبيون ما زالوا يشنون الغارات على بلاد المسلمين، وسفنهم تهاجم المدن الساحلية. لو قُدِّر لهم احتلال الشام ومصر، ما الذي يمنعهم من التقدم صوب بغداد؟ إعصار المغول اجتاح ممالك الشرق، دمرها، أهلك الحرث والنسل، حوَّل المدن الإسلامية العامرة الزاهرة مثل بخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور إلى خرائب وأنقاض، وسكانها إلى جثث متعفنة في العراء، تتقاسمها الكلاب والذئاب والضباع، واتخذ الغزاة من المساجد، التي كانت عامرة بالتقى والعلم والأدب، مرابض لخيولهم، مردِّدين أنهم لعنة الله على خلقه. المصيبة أنهم باتوا يطوِّقون العراق والخلافة من الشرق حتى وصلوا قلاع الإسماعيلية، ومن الشمال بعد أن حولوا حواضر الإسلام في تركستان وبلاد الروم إلى كتل من رماد. أسقطوا دولة الخوارزميين وقطعت سيوفهم رقاب قادتها، شقت صدور رجالها، أدمت وجوه نسائها، بقرت بطون

الحوامل، وداست حوافر خيولهم العجائز، انتهكوا حرمة ربات الخدور، فهل جاء الدور على مدن العراق ومركز الخلافة في بغداد المعمورة؟

كيف يمكنه احتمال أو تخيل أن تتحول بغداد الجميلة، عاصمة الدنيا، إلى خرائب تنعق فيها الغربان؟ أن يقتحم الغزاة الهمج بيوت الناس الآمنين، ومراكز العلم وقاعات المدارس، ودور العبادة، وقصور الخلافة الناطقة بتاريخ مجيد؟ أن يتعالى الصراخ والعويل، بدلا عن أذان الصلاة وتلاوة القرآن؟ كيف يمكنه تخيل أن تجر نساؤه إلى مخادع الغزاة، مثلما فعلوا بنساء سلطان الخوارزميين علاء الدين محمد؟ هل سيردد مغموما مقهورا ذليلا هاربا نادما ما ردده السلطان الخوارزمي قبل موته : « لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين ، تُحفَر فنُقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط، يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب»، لا، فعلاقاته جيدة مع المغول، وبينه وبين الخان الأعظم منكو وأخيه هولاكو خان مراسلات ودية ومحبة. نعم، محبة، وحيث إنه أحبهم، فلا شك أنهم يحبونه ويميلون إليه. لا بد أن الرسل بلغوه عنهم كذبا. قال لنفسه: «حتى لو كان الأمر خلاف ذلك فلا خشية منه؛ لأن كل الملوك والسلاطين على وجه الأرض بمنزلة جنود لنا، فهم مطيعون، ومنقادون، فلا خوف من تهديد المغول ووعيدهم، ولو أنهم متمتعون بقوة وشوكة، فهم بالنسبة للعباسيين لا أهمية لهم».

لكن، هل تحول الهدايا، مهما كانت نفيسة، دون أطماع المغول في الاستيلاء على بغداد وكنوزها؟

لا، لن يخيفه الأعداء، فبغداد مقر إمام المسلمين، وكلمة واحدة منه تهز الدنيا إذا ما أعلن الجهاد. لا، ليس الآن، فالأمور لم تصل بعد إلى هذا الحد. لن يفعل ذلك مخافة أن يستفز عدوا لم يفكر في الهجوم على بغداد، أو أن

يعتبر عدو آخر إعلان الجهاد دفاعا عن الخوارزميين أو الإسماعيليين مع أنهم جاهروا في العداوة مع الخليفة. ما بال هؤلاء المغول؟ لماذا لا يتعظون بعبر التاريخ؟ قبل اثني عشر عاما، قصد المغول خانقين، ونهبوا بعقوبا وقتلوا أعدادا كبيرة من أهلها، وعبروا دجلة إلى نهر الدجيل فنهبوا وقتلوا، واقتربوا من بغداد، لكن جيوش الخليفة ردتهم على أعقابهم. وبعد أربع سنوات، هاجموا خانقين مجددا وكبسوا إيوان خانقين، وقتلوا من المسلمين مقتلة عظيمة، ونهبوا الغنم والبقر، وساروا إلى داقوقا، فقتلوا خلقا كثيرا، ولم يستطيعوا التقدم نحو بغداد، فعادوا أدراجهم خائبين. لن يختلف مصيرهم إذا فكروا في العدوان على بغداد من جديد.

انتبه إلى أن زهرة الأقحوان قد اختفت في الظلام، بينما أضاءت المشاعل الرواق العابق بعطر ماء الورد، والمرشوش بطحين المسك، والمفروش بالسجاد الفاخر. بدأت قطرات المطر تتساقط، تبلل وجهه وتنساب متلألئة على شاربه ولحيته المرسلة المهذبة بعناية. دفع عمامته إلى الوراء قليلا. لمح وجود حراس على طرفي الرواق. لم يكن بحاجة للسؤال عن سر حضورهم، فقد أدرك أن زوجته أم مبارك قد بعثتهم لتطمئن على سلامته، غير أن وجودهم لم يعكر نشوته مع المطر. وسع من فتحة قميصه الأبيض كي يبلل صدره. مسح وجهه بكفيه، وفرك عينيه مزيحا تلك الصور المرعبة التي داهمته.

انتبه الخليفة على صوت أقدام في الرواق. رأى زوجته عصمة الدين والدنيا ليلى، أم مبارك، تتجه نحوه، ترفل في ثيابها، متمايلة بقوامها الفارع الممشوق، حاملة بيدها اليسرى فانوسا تراقصت فتيلته، بينما رفعت باليد الأخرى طرفا من ردائها الطويل، كي لا تطفئ الريح اللهب المتراقص، وخلفها خادمتها «بدور» تحمل صينية عليها مصباح زيتي وقدح مليء بعصير التفاح. حين اقتربت منه، رمت خمارها الشفاف المطرزة حوافه بخيوط الذهب فوق

عصابتها المرصعة بالجواهر البراقة والأحجار الكريمة، فبان وجهها الجميل وخداها المتوردان. على الرغم من أنها تصغره بأربع سنوات، إلا أنها بدت أكثر شبابا بمظهرها الجذاب، وقد زينت جيدها بقلادة طويلة من اللؤلؤ، وقلادة فضية أقصر، بينما تهدلت على معصميها أسوار ذهبية وفضية، مرتدية قميصا قطنيا أبيض ذا بطانة سميكة، علته خطوط موشاة بخيوط الذهب، واسع الردن، مفتوح الكُمين، مزرَّرا عند الرقبة بزر ذهبي كبير، وسروالا واسعا أبيض، ولبست فوق ثيابها رداء زهري اللون من القز من دون أكمام، يمتد حتى الركبة، مشدودا عند الوسط بحزام رفيع من الحرير المبروم، وغطت مؤخرة رأسها وظهرها بإزار أسود معتم، عقدت طرفه بخيط حريري ينتهي بدبوس فضي كان يلمع فوق عصابتها. كانت الزوجة الوحيدة. كانت مجرد جارية، لكنها حين أنجبت منه، وبعد إلحاحها أعتقها وتزوجها، لم يتلهف إليها مثلما كان يتلهف لحلول الليل وانطفاء المصباح كي يتدفأ في أحضان تلك الجارية الجميلة المسكينة. لم يقرب منه جارية بعد ذلك، لكن ليلى أدركت مع الأيام، أن في مقدور المستعصم طلاقها متى ما شاء، فلم تملك غير المهادنة، فزوجها ابن الخليفة قبل أن يصبح هو الخليفة، ومن حقه أن يفعل ما يشاء، وهذا ما جعلها تشك في كل حركة منه. ظل سكوتها يثير هواجسه، من لحظة غضب، أو غيرة قد تدفعها إلى الثأر لنفسها وكرامتها، فتدس له السم، أو تخنقه بوسادة.

حين وقفت أمامه، تطلع إليها بابتسامة عريضة أخفى وراءها ما كدره من أفكار وهواجس. لم يفته أنها كانت تترصده، وتراقب حركاته، بعد أن أشعلت الجارية «عرفة» نيران الغيرة في قلبها. لم يعد يميز إن كان اهتمامها البالغ حبا، أم محاولة لإثبات تملكها لقلبه، ومع هذا كبت عدم ارتياحه لمراقبتها كي لا يستفزها. لكن ذلك لم يخلُ من فائدة في رأيه، فقد دفعتها تلك

الغيرة إلى أن تكون أكثر رقة، ولينا، وأكثر اهتماما بمظهرها وزينتها. لعلها حقا قلقت عليه، واثقة أنه في مثل هذا الوقت، من كل يوم، يجلس، أو يقف في الشرفة، وحده، مستعيدا الأيام الخوالي، أو محاولا التنبؤ بالأيام التالية.

قالت ليلى بغنج: « أخشى عليك يا مولاي العزيز أن يصيبك سوء من الصواعق، أو من تيار الهواء البارد».

قهقه المستعصم جذلا: «اطمئني يا أم مبارك. كلما تباعدت المسافة بين صوت الرعد وضوء البرق، فهذا يعني أن الصواعق بعيدة. أما عن الريح، أنت تعرفين، قبل غيرك، أن أمير المؤمنين، وخليفة الله على أرضه، لا تهزه الريح، ولا تصيبه الصواعق، وإذا ما غابت الشمس عن الآخرين، فهي تظل مشرقة بين جوانحه».

عقبت عاصرة كفيها بفرح طفولي: «تلك هي أقصى أمنياتي يا أبا أحمد».

* * *

حدث ذلك في لمح البصر، في لحظة لم يُسمع فيها غير وشوشة أوراق الأشجار المهتزة مع الريح، وصوت تساقط قطرات المطر على حاجز الشرفة الحجري. حين مدت عصمة الدين والدنيا، أم مبارك ليلى، يدها إلى الصينية التي تحملها الخادمة، تراجع المستعصم، مفسحا لها المجال، تهاوت ليلى بين يديه فجأة، وقد استقر سهم في كتفها الأيسر. كانت صيحة الزوجة، وصراخ الخادمة، ورنين صينية النحاس وتهشم القدح، كافيا للإعلان عن وقوع أمر خطير. تابع الخليفة تدفق الدم من كتف زوجته باهتا. صبغ الدم كفه. صرخ في الحراس الذين تجمعوا حوله مذهولين، أن يفتشوا كل مكان عن الشخص الذي أطلق السهم، أن يقلبوا الأرض بحثا عنه. عاد من جديد معلنا بصوت

جهوري، مكافأة سخية لمن يأتيه به حيا أو ميتا. أسرعت الجواري بحمل سيدتهن إلى جناحها الخاص.

صاح بعضهم بالحراس الآخرين المبثوثين حول القصر، وعند الأسوار، وتجاوبت النداءات. استنفر الجميع وأضيئت حجرات القصر وممراته وعلت الضجة. امتلأت الممرات بالمشاعل الباحثة عن ذلك المأجور، الذي كاد أن يقتل أمير المؤمنين في ذلك المساء من ربيع عام 655 للهجرة الموافق لعام 1257 ميلادي.

استمر البحث طويلا، لكن كل ما عثروا عليه كان جعبة سهام لا تختلف عن أية جعبة أخرى.

جلس الخليفة في غرفة استراحته، نازعا البردة والعمامة، واضعا سيفه على طاولة أمامه، مرتعشا، لاهثا، فقد كان هو الهدف، وليس زوجته عصمة الدين، وزادت من قلقه واضطرابه خشيته من عدم العثور على المأجور الذي فلت بطريقة تثير الريبة. قفز من مكانه حين رأى والدته تقف أمامه دامعة. ضمته إلى صدرها بقوة. قالت مجهشة: «ولدي الحبيب..».

خنقتها العبرة فلم تكمل جملتها. أجلسها بجواره. مسح دموعها بأطراف أصابعه. قال متظاهرا بالثبات: «أدرك مبلغ قلقك عليّ، وتأثرك على ليلى. الحمد لله أنها بخير الآن».

واصلت أم الخليفة بكاءها، وجسمها يرتعش بشدة. أجلسها على سريره برفق. حدق المستعصم طويلا في وجهها مستغربا: « ماذا هنالك يا أماه؟ كل شيء على ما يرام. ماذا يبكيك؟».

أجابت متهدجة: « حياتك، يا ولدي، هي حياتي وحياة كل فرد في هذا القصر. لا حياة لي من بعدك».

تضاحك المستعصم محاولا تسليتها: « ما زلت، يا أم أمير المؤمنين، قوية وكأنك ابنة الأربعين عاما، وليس الخامسة والستين. حتى لو حدث ما ليس في الحسبان، فستعيشين من بعدي عمرا طويلا».

احتضنته من جديد. قالت متوسلة: «لا، لا تقل ذلك يا عبد الله. الحياة من بعدك ذل».

قطب المستعصم حاجبيه: « قولي يا أمي ما يقلقك. أرجوك».

رفعت ذراعيها عنه ببطء. ردت بصوت مختنق بعد أن مسحت دمعها: «أخشى أن يعيد التاريخ ما فعله أبوالمنصور، محمد القاهر بالله ابن المعتضد، بأم أخيه أبي الفضل، جعفر المقتدر ابن المعتضد».

قال المستعصم معاتبا بلطف: « ما هذا يا أماه؟ نحن في زمن غير زمن المقتدر والقاهر. تلك حكايات مضت عليها مئات من السنين».

ردت واثقة: «كل شيء يتغير ويتطور، إلا طبيعة الإنسان. يقال يا ولدي إن القاهر، رحمه الله وعفا عنه، بعد أن تنازل له عن الخلافة ابن أخيه المكتفي بالله ابن المقتدر، هل تعلم كيف رد القاهر ذلك الجميل؟ طارد أولاد أخيه المقتدر، وسجن حرمه، لكن ما فعله بأم المقتدر، ظل وصمة عار عبر التاريخ. كانت المسكينة مريضة بالاستسقاء، وزاد مرضها بقتل ولدها، واشتد جزعها حين سمعت أنه بقي مكشوف العورة، في مكان قريب من الشماسية..».

أجهشت في البكاء ثانية. وضع المستعصم يديه على كتفيها: « اهدئي يا أمي وأبعدي هذه الوساوس عن بالك».

اعتدلت في جلستها: «امتنعت أم المقتدر، أسكنها الله الجنة، عن المأكول والمشروب، حتى كادت تهلك، فأجبرتها النسوة أن تأكل شيئا يسيرا من

الخبز والملح. أحضرها القاهر، كما تحضر السبايا، وسألها عن مالها، فاعترفت المسكينة له بما عندها من المصوغ والثياب، ولم تعترف بشيء من المال والجواهر، فضربها أشد ما يكون من الضرب. تصور أنه علقها من رجليها وراح يضرب راحتي قدميها اللتين ما كانتا تلبسان إلا أحذية مغلفة بالحرير المشبَّع بالمسك المذاب والعنبر، ولا يبقى الحذاء أكثر من عشرة أيام حتى ترميه إلى الخدم؟! لم يكتف بذلك بل ضرب أيضا مواضع العفة من بدنها، فحلفت للظالم أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه، مؤكدة أنها لو كانت تملك مالًا لما أسلمت ولدها للقتل..».

قاطعها عبد الله المستعصم بالله: « اطمئني فلن يبلغ الأعداء غرضهم. أخشى أن يضعف القلق قلبك أكثر. أرجوك أن تعودي إلى غرفتك مطمئنة».

قبلت الأم رأسه وأخفت وجهها بأذيال شالها قبل أن تغادر الغرفة. أدرك أن عدوى الرهبة من المستقبل انتقلت إليه، بل إن مخاوفه ورهبته زادت في تلك اللحظة عن مخاوف أمه. يمكن أن يموت في أية لحظة، وموته يتبعه موت كثيرين من أهله وقادته وأتباعه. كيف له أن يتقي محاولات الغدر والتآمر؟ فكرة الموت بدأت تفزعه. لم تكن كذلك من قبل. في شبابه، أنساه سكر الشباب مرارة الموت، ثم ألهته مظاهر القصر، في زمن أبيه، وبعدها نشوة السلطة، عن تلك الفكرة. حين تطلع في وجه أبيه على فراش الموت، انتابته رعدة خوف، فالذي أمامه لم يكن أباه، صار جسدا غريبا. الموت ينتزع كل شيء حتى الهوية. يذكر أنه في شبابه، كان يرافق أباه المستنصر كثيرا في جولاته في الأسواق نهارا، وفي دروب بغداد ليلا، ليطمئن على أحوال رعيته. تعجب كيف يمكن لخليفة المسلمين أن يقضي ساعات من وقته الثمين في عمل كهذا، ولعل الأب قرأ ما في رأس ولده، فأخبره أن المرء كي يظل خالد

الذكر عند الناس، محمود السيرة، فعليه أن يفعل ما في وسعه من عمل الخير. لا يذكر أنه فعل ذلك في سنوات حكمه، بل إنه لم يسلك دروبا فرعية أو خلفية في بغداد. كان يتجنب لقاء العامة لأنهم طماعون، حسودون، سريعو التمرد والكفر بالنعمة، ولا يغتسلون إلا مرات قليلة في الشهر. لو أنه رأى في عيونهم الحب والإخلاص والرضا لأنعم عليهم أكثر مما فعل أبوه وجده. إنه لا يكرههم. لم يروا وجهه يوما، فهل كان النقاب الكثيف أسود اللون حاجزا بينه وبينهم؟ ليتهم عرفوا أن النقاب لم يكن بقصد التعالي والخوف من الحسد، لكن الضوء حين يسقط في عينيه يثير بقوة داء الشقيقة. سأل أباه في آخر أيامه وبحضور عدد من كبار القادة: «ما رأيك يا أبتِ بأهل العراق؟» أجاب المستنصر متباهيا: «نحن من أهل العراق.. ولد آباؤنا وأجدادنا على هذه الأرض، وتشربوا بمائها، وتغذوا بخيراتها. يروى عن النبي ﷺ، أنه قال: «اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا وفي شامنا وفي يمننا وفي حجازنا» فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله ، وفي عراقنا، فأمسك النبي ﷺ ، فلما كان في اليوم الثاني، قال مثل ذلك، فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله ، وفي عراقنا، فأمسك النبي ﷺ ، فلما كان في اليوم الثالث، قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله ، وفي عراقنا، فأمسك النبي ﷺ فولى الرجل وهو يبكي، فدعاه النبي ﷺ، فقال: «أمن العراق أنت؟» قال: نعم، قال: «إن أبي إبراهيم ، عليه السلام ، همّ أن يدعو عليهم، فأوحى الله تعالى إليه لا تفعل فإني جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة قلوبهم». ويروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: « أهل العراق كنز الإيمان، وجمجمة العرب، وهم رمح الله، عز وجل، يحرزون ثغورهم، ويمدون الأمصار».

وعندما جاء المساء، استدعاه أبوه قائلا: «هنالك قول آخر عن أهل العراق، لكنني لم أذكره نهار اليوم أمام الحاضرين، كيلا أبخس أهل العراق.

يقال إن جرير بن عبد الله مرّ بقنطرة الصراة فقيل: يا صاحب رسول الله ، ألا تنزل فتصيب من الغداء؟ فضرب خاصرة فرسه بسوطه وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة، يجبى إليها خزائن الأمصار وجبابرتها، يخسف بها وبمن فيها، فلهي أسرع ذهابًا في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة».

هل اختاره القدر من بين كل خلفاء بني العباس ليخسف بغداد بمن عليها؟ لا، إنها مجرد وساوس تنتابه بين الحين والحين. سأل المستعصم نفسه لو أنه مات بذلك السهم، فهل سيذكره أهل العراق بخير؟ لا. هل العيب فيهم أم فيه؟ لا يمكن أن تكون أمة على خطأ وفرد واحد فقط على صواب. إنه لم يفعل شيئا للمسلمين، إذًا لن يكتب له الخلود في ذاكرة الأجيال، سيكون موته مثل نفوق دابة في أرض خلاء. من الصعب عليه تصور ذلك، مثلما يصعب عليه تصور نفسه جثة هامدة. ردد بصوت مبحوح: الموت هو وقوفك يائسا أمام معضلة، فكيف إذا كانت المعضلة هي الموت؟

* * *

2

الدعوة لاجتماع طارئ، تعني أن الأعداء بعثوا بوفد أو رسالة يهددون الخليفة باكتساح البلاد، أو يبتزونه لاقتطاع ما تبقى للدولة من أراضٍ خارج العراق، أو أن الخليفة بطش، أو ينوي البطش بشخص معروف أو جماعة معارضة، ويطالب المسؤولين في الدولة أن يبصموا على تأييد قراراته، أو أن أمير المؤمنين اكتشف مؤامرة لقلب نظام الحكم، أو أنه رأى حلما أن أحدهم ينوي التآمر عليه. وعموما، فالدعوة لمثل هذه الاجتماعات تثير القلق؛ لذلك سارع كبار المسؤولين في الدولة للحضور إلى مقر الخليفة في قصر التاج، حال تلقّيهم دعوة للاجتماع به لأمر عاجل، على الرغم من حلكة الليل وأوحال الطريق، بدافع معرفة ما حدث أكثر منه خوفا من الخليفة. لكنهم بعد عبورهم باب النوبي، وسماعهم بخبر المؤامرة، حمدوا الله على وصولهم، فتخلف أي واحد منهم في هذا الوقت، يجعله هدفا سهلا للشك فيه من قبل الآخرين، حتى أن العجوز فلك الدين بكتمر، الذي لا يخطر في بال أحد في القصر، إلا عندما يتحدث أحدهم عن أحداث تاريخية قريبة، نقله أبناؤه على محفة من داره في محلة الظفرية إلى قصر التاج.

استعرض المستعصم بالله بنظراته رجال خاصته، واحدا واحدا. استبعد مع نفسه، في تلك اللحظة، تهمة التآمر عن اثنين فقط من الحاضرين: ابنه

الأوسط، أبي الفضل عبد الرحمن، لشدة حبه وولائه وإخلاصه. كان أبو الفضل عبد الرحمن في الحادية عشرة من عمره، يوم رافقه في رحلة صيد في الصحراء الممتدة غرب الكوفة. ظل عبد الرحمن يتبعه، وصادف أن ضلا الطريق، وكانا قد تركا طعامهما مع مرافقيهم من الخدم. كانت أشعة الشمس حارقة، وليس هناك سوى كثبان الرمال الناعمة الحمراء. قال لابنه أن يمكث عند سفح مرتفع، ويذهب هو للبحث لعله يهتدي إلى طريق قوافل، أو بيت من الشعر. عاد أخيرا برفقة خدمه قلقا على ولده، فوجده وفي حضنه رغيف من الخبز. سأله متعجبا: «من أين جاءك هذا الرغيف؟».

أجاب، وهو يفتح عينيه بصعوبة من وهج الشمس، بأنه عثر عليه بين متاعه المربوط بالفرس، لكنه لم يقضم قطعة منه، وحين سأله أبوه عن السبب، قال: «كنت أعرف أنك ستعود متعبا من بحثك الطويل، ولا بد أن تكون أكثر جوعا مني، فأبقيت الرغيف لك».

أما الثاني فكان الحاجب التركي، المتقاعد ذا اللحية البيضاء والوجه الشاحب والظهر المنحني، المتكئ على عصاه، فلك الدين أبا العز بكتمر، الذي كان يوما مُوفَدَ أبيه المستنصر إلى خان المغول، والذي يشيع أن ما أصابه من ضعف في السمع، كان نتيجة مؤامرة مغولية دنيئة، حين وضعوا في أذنه، أثناء ضيافته هناك، حشرة صغيرة عجيبة خدشت طبلتها، لكنه لم يقنع يوما سامعيه بدوافع المغول للتآمر عليه. لعله لم يدرِ حتى تلك اللحظة السبب في حضوره. الآخرون جميعا مرشحون للشك فيهم، حتى أستاذ الدار والمحتسب شديد النحافة، الذي يمكن بسهولة تامة تصور شكله في القبر بعد أعوام طويلة من موته، الشيخ محيي الدين بن يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، ذي العيون الغائرة واللحية الطويلة المدببة المخضبة. لم يشك في أمانته وعفته،

لكنه يخشى من شدة تدينه فيفاجئ الناس بإعلانه فتوى بتكفير الخليفة وإثارة الناس عليه، فهو يكرر أمامه، في مناسبة أو غير مناسبة، قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ الباقون في رأيه لا يخرجون أيضا عن دائرة الاتهام، وأولهم فخر الدين الدامغاني، رئيس ديوان الزمام، والمسؤول عن أمور الأمن في البلاد، الأمرد الطويل، عريض الكتفين، الذي بدا كأنه مشجب للسلاح، فإضافة إلى سيفه المعلق على جانبه الأيسر، ثبّت في حزامه الجلدي العريض على اليمين، خنجرا قصيرا، وبجانبه مدية ذات مقبض فضي. لم ينسَ الخليفة الإهانات التي كثيرا ما يوجهها في لحظات غضبه إلى مسؤول الأمن في البلاد. إنه المسؤول الوحيد المطلع على حركاته وبرنامجه اليومي.

لم لا يكون الوزير ابن العلقمي هو المتآمر؟ لكن الوزير سيكون أول قتيل على أيدي المتآمرين لو قُدِّر لخطتهم النجاح. لم يستبعد أن يكون الوزير مغتاظًا منه، بسبب الاعتداء الذي وقع على أقارب له في الكرخ، يوم هاجم جنود الدويدار الصغير وبمشاركة من ولده أبي العباس سكان الكرخ، وربما حقد وزيره عليه لأنه لم يعاقب المشاركين في تلك الفتنة واكتفى بإدانتها، أو لعل زعماء مدينة الحلة قد أوغروا قلبه على الخليفة.

لو لم يكن أبو العباس ابنه لوجه إليه التهمة من دون تردد، فتهور الابن ونزقه وتقلب مواقفه وطيشه يجعله مرشحا لأية تهمة، كما أن غيرته من أخيه الأصغر، عبد الرحمن، جعلته غير مطمئن لخلافة أبيه. لم ترق له تصرفات نجله الأكبر، فكثيرا ما ينسى نفسه فيتصرف وكأنه الخليفة، ينكل بمعارضيه، يتحرش بالحرائر، يقيم مجالس الشراب، فيكثر ويسكر، فيعربد

ويأتي في سكره بما لا يأتيه غير المجنون. بلغه مرة أنه، وبعد أن تطرق الحديث إلى الملك الناصر ابن الملك المعظم الأيوبي، وكيف أنه كان إذا سكر يقول: أشتهي أن أرى غلامي فلانًا طائرًا في الهواء، فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه في الهواء، فيضحك ويشرب، فأصر أبو العباس أن يفعل مثله، ونادى أحد الغلمان، ليفعل به ما فعله الملك الأيوبي، ولولا احتيال أصحابه عليه، لفعلها. نصحه كثيرا، وحذّره مرارا وتكرارا، أن يرعوي ويتذكر منزلته، وأن عاقبة تصرفاته تعود بالتالي على أبيه. ربما دفعه كرهه لزوجة أبيه إلى محاولة قتلها. ذلك أمر محتمل أيضا.

هل يريد الدويدار إعادة دور الأمراء الترك، أمثال بجكم وتوزون وكورتكين الديلمي ومؤنس الخادم والبساسيري، في السيطرة على الحكم، وجعل الخليفة مجرد سجين في مكان مريح، مثلما كان في زمن السلاجقة والبويهيين؟ منح الدويدار الصغير المراتب العالية بسبب شجاعته وربما أيضا ضمانا لولائه، ولديه الآن الجاه والمال والمنصب ولقب الملك، فما الذي يريده بعد هذا كله؟

لم لا يكون قائد الجند الأتراك شهاب الدين سليمان شاه بن برجم؟ إنه يعرف ولاءه وإخلاصه، لكنه غير واثق من رجحان كفة هذا الولاء إزاء ولائه للدويدار الصغير، بسبب الأصل الشركسي.

الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي، قد يكون هو الآخر مستاء من الخليفة، ويود الانتقام لأنه يقول أمام معارفه، كما وصل إلى مسامع الخليفة، إن منصبه مجرد تسمية فارغة من أية صلاحيات، متناسيا أن الخليفة قد غض الطرف عن استيلائه على عدد من المزارع بالقوة بعد أن طرد أتباعه مالكيها بالقوة.

لا يختلف عنهم قاضي القضاة الشيخ القصير نظام الدين عبد المنعم الذي بسط ذراعيه بارتخاء على كرشه، الذي لم تحجب ثيابه الحريرية العريضة حجم انتفاخه. كان يتمنى على الدوام، بشكل معلن، لو أن الخليفة يوليه البصرة أو الأحواز كي يجمع ثروة تضمن له عيشا رغيدا في شيخوخته.

شعر الدامغاني بالخوف حين رأى عيني المستعصم المحدقتين فيه تفوران بالغضب، اصطكاك أسنانه فضح خوفه، ليس من احتمال عزله عن منصبه، بل من كلمة واحدة قد يتفوه بها الخليفة وينفذها الحراس: اقتلوه.

صاح الخليفة غاضبا: «كيف هرب الفاعل والقصر مكتظ بالحراس؟».

أجاب الدامغاني متلعثما: « مولاي أمير المؤمنين.. لقد ساعدت أجواء العاصفة وغزارة المطر المجرم على الإفلات من قبضتنا. لم نعرف حتى الآن كيف تسلل إلى القصر، لكننا عرفنا أنه هرب من باب الغربة المطلة على نهر دجلة حيث كان هنالك قارب بانتظاره».

رد المستعصم مزمجرا: « ليست مهمتك الأساسية معرفة هل هرب المجرم بقارب أو على ظهر بعير، بل أن تعرف هويته وتبحث عنه وتقبض عليه».

رمشت عينا الدامغاني ولم يحر جوابا. سأله المستعصم: « من تظن وراء هذه المؤامرة؟».

أطرق الدامغاني برأسه إلى الأرض. أجاب برتابة، وكأنه يتلو مقولة محفوظة عن ظهر قلب: «لا يخفى على مولاي، وهو خير العارفين، أن أعداءنا كثر. هنالك عملاء وجواسيس للمغول، وربما كان المجرم الهارب واحدا منهم، أو قد يكون قاتلا مأجورا بعثه الملاحدة الإسماعيليون الحشاشون.. أو أنه عميل للصليبيين، ولا أستبعد أن يكون واحدا من شراذم الخوارزميين الذين تفرقوا في البلاد الإسلامية».

قفز الخليفة من مقعده، وانتصب أمام الدامغاني غاضبا: «معلومتك هذه لا تضيف شيئا يا دامغاني».

تساءل بنبرة توبيخ، وهو ينقل عينيه بين الواقفين: « كيف يحدث هذا؟ وفي بغداد عاصمة الدنيا، وليس في مدينة أخرى، أو قرية مرمية عند الثغور؟ أي زمن هذا الذي تراخت فيه أجهزة الدولة حتى انحدرت الأمور إلى أن يتجرأ عميل مأجور أو متآمر حقود على استهداف أكبر رجل على البسيطة، على خليفة الله على أرضه؟».

التفت إلى رئيس الديوان قائلا، بعد أن هدأت سورة غضبه قليلا: «المستعصم بالله ابن المستنصر بالله، وحفيد الظاهر والناصر والمعتصم والمأمون والرشيد والمنصور، الخليفة الذي تحسب له جحافل المغول والصليبيين والروم ألف حساب، يتعرض لمحاولة اغتيال، والفاعل اختفى بقدرة قادر؟».

ارتبك الدامغاني ملتفتا إلى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، مستغيثا به. تقدم الوزير ذو الشارب المخضب المفتول واللحية البيضاء المدببة، المليء بالحيوية والنشاط رغم تجاوزه سن الستين، انحنى للخليفة فاستقامت ذوائب مذهبة لامعة تدلت من عمامته البيضاء، واسترخى قفطانه الأسود.

قال الوزير: «الفرحة بسلامة سيدنا الخليفة لا يمكنها التقليل من خطورة المحاولة الآثمة، ودقة التسلل إلى فناء قصر التاج، والهروب منه على الرغم من وجود حراسة مشددة. إنها المرة الأولى التي يتعرض فيها مولاي إلى محاولة اغتيال، وفي مكان يفترض أن يكون الأكثر أمنا في العراق كله. أعدك يا مولاي بأنني سأبذل غاية وسعي للقبض على الفاعلين».

ربما كان الوزير صادقا في حماسه، فحياته، شاء أو أبى، مرتبطة بحياة

الخليفة بعد كل هذه الخدمة الطويلة كوزير في بلاط أمير المؤمنين. ومنذ اللحظة الأولى لسماعه الخبر، اتجهت ظنونه نحو الدويدار الصغير بسبب ما بينهما من عداوة، وتصور أن هدف المؤامرة هو القضاء عليه بعد إزالة الخليفة الذي يعتبره مظلة أمانه.

التفت نجل الخليفة الأكبر أحمد نحو الوزير، يتفحصه بنظرات ثاقبة، محاولا استشفاف ما في جعبة الوزير من معلومات لم يصرِّح بها انتظارَ الفرصة المواتية. لمح الوزير نظرات متواطئة بين ابن الخليفة وقائد الجند.

قال الخليفة حانقا: « الكل يعلن استعداده لبذل جهده، وكان الأحرى أن تكون تلك الجهود قد بُذلت قبل حين. المصيبة عندنا أن الإجراءات الأمنية لا تطبق إلا بعد حدوث الكارثة. وقانا الله هذه المرة، فعليكم أن لا تسمحوا بتكرارها».

قال أبو العباس أحمد نجل الخليفة الأكبر متأبطا كفيه، محركا ساقيه: «ليطمئن مولاي، سنعثر على المجرم الهارب قبل أن ينتصف نهار الغد».

لم يغب عن بال المستعصم فقدان الود بين ابنه والوزير، وما قاله الابن لم يكن سوى تحدٍّ فارغ، فقهقه مستخفا: « كيف تعثر عليه وأنت لا تعرف من يكون؟!».

أجاب بثقة أدهشت المستعصم بالله: « أظن أنني أعرف الجماعة التي ينتمي إليها المتآمر الهارب، وبعد التحقيق معهم، والشدة عليهم، سيدلون باسمه وعنوانه».

رجع الخليفة برأسه إلى الوراء، ناظرا لولده بعينين ثابتتين: «ومن هي الجماعة التي تتهمها يا أحمد؟ شيعة الكرخ؟ أهل العراق يحتجون، يتذمرون،

يشككون، يتمردون، يثورون، لكنهم لا يفكرون في اغتيال خليفتهم. على امتداد أكثر من ستة قرون من دولة بني العباس، لم يذكر التاريخ أن عراقيا، من أبناء الشيعة أو السنة، قد نفذ أو شارك في محاولة اغتيال لخليفة عباسي».

رد أبو العباس بحماس، رامقا الوزير بطرف عينيه: «نعم يا أبتاه.. إنهم يتمنون دائما زوال حكم بني العباس».

اعتدل الخليفة في جلسته منتفخ الأوداج: «هل تريد القول إن ما حدث قام به أحد أبناء الكرخ كرد فعل على ما فعلته زمرة تأتمر بأمرك من أعمال شنيعة مستهجنة ضد الناس هناك؟ لا تنسَ أني عفوت عنك أملا في أن تصحح مسيرتك، وترضي الناس عنك، وتجذب قلوبهم إليك. منطقك هذا لا يليق بولي عهد دولة المسلمين. لقد صدق من قال : المملكة تخصب بالسخاء، وتعمر بالعدل، وتثبت بالعقل، وتحرس بالشجاعة، وتساس بالرياسة. إياك أن تكرر ذلك أمامي، التمني شيء والتآمر شيء آخر، فالشيعة، في الكرخ وغيرها، هم جزء من هذه الأمة، ومن رعاياي، وليس هناك ما يدعوهم للتمرد على الدولة والخلافة. لا يغيب عن بالك أبدا أن أعداء المسلمين هم من يغذي الفتنة، ليضعف قوتنا ويفرق كلمتنا. تألمت كثيرا لما جرى بين أهالي محلة أبي حنيفة والخضريين وبين أهل الرصافة، وما جرى بين أهل الكرخ الشيعة والسنة».

أضاف الخليفة المستعصم متمهلا بنبرة هادئة لينة: «ولدي أحمد، ومن ركب ظهر العجلة لم يأمن الكبوة».

لعل أبا العباس كان يتوقع مثل ذلك الرد من أبيه، فلم يبدُ عليه انزعاج أو اضطراب، فلطالما تذمر أبوه من مواقفه تجاه سكان كرخ بغداد ومن مواقف كثيرة غيرها. كان أبو العباس أحمد في سن الرابعة والعشرين، معروفا

باستهتاره، ونزواته الصبيانية، وحفلاته الليلية الماجنة الصاخبة بالموسيقى والغناء وزعق السكارى، على شاطئ النهر. يشبه أباه كثيرا، لكنه يتميز بعينيه الواسعتين الجاحظتين وحاجبيه الطويلين المقوسين.

تنحنح الدويدار الصغير، الأمير مجاهد الدين الشركسي، ممهدا لإبداء رأيه: «عفوا يا مولاي، ما قاله ولي عهدكم، حفظكم الله وأطال في أعماركم، صحيح جدا. أنا واثق من أنه لم يغرب عن بال مولانا أمير المؤمنين أن أهل الكرخ اغتالوا اثنين من رجال الشرطة في أحد دروب بغداد قبل أيام. لا أرى في المحاولة الآثمة أمرا غير متوقع، بعد أن اعترض مولانا على استخدام الشدة ضد الرعاع من أهل المدينة. نقل لي أحد الحراس أنه بعد عودته من قضاء حاجته رأى رجلا يركض قادما من فناء القصر باتجاه باب الغربة المطلة على نهر دجلة، فأثار مشهده شكوك الحارس الذي تبعه لكنه لم يمسك به بعد أن ابتعد بقارب صغير متجها صوب الكرخ».

امتعض الخليفة من انتقاد أمير الجند لسياسته. ودّ أن يهجم عليه ويبطحه أرضا ويشبعه ضربا ورفسا لتطاوله على مقام خليفة المسلمين، لكنه لم يستطع فعل ذلك؛ لأنه يعرف أن أكثر الجند من الأتراك الموالين للأمير الشركسي، وإذا ما حدث أمر، فسيعلن الجند ثورة في المدينة.

تقدم إلى الأمام أبو الفضل عبد الرحمن، الابن الثاني للخليفة والأصغر من أبي العباس بسنة واحدة وأقصر منه قليلا، والذي ورث تقاسيم وجهه الحسنة عن جده المستنصر بالله، غير أنه تميز عن أخيه بما كان يبديه من هدوء واتزان، كما عُرف بالمحافظة على تفاصيل سهراته ومجونه خلف أبواب مقفلة، فهو أكثر مكرا من أحمد المستهتر، والمعروف عن عبد الرحمن إنشاؤه سجنا سريا في «دار الشجرة» لتعذيب أفراد الأسرة الحاكمة المعارضين للحكم والمتهمين

بمحاولات قلب نظام الحكم. قال مخاطبا أباه: « المهم أن الله تعالى قد حفظ أمير المؤمنين وسيحفظه من كل شر. ما حدث الليلة لن يتكرر. سنبذل أقصى جهودنا في التحري حتى نعثر على الشخص أو الجماعة المشبوهة».

هدَّأ جواب عبد الرحمن من روع أبيه الذي بادره متسائلا: «من تظنه وراء هذه المحاولة الخسيسة؟».

أجاب أبو الفضل عبد الرحمن بعد لحظات: «لا أستطيع تحديد الجهة التي حاولت اغتيال مولانا أمير المؤمنين. كل الاحتمالات واردة يا أبتِ».

«كل الاحتمالات؟ ماذا تقصد بذلك يا عبد الرحمن؟».

«إن لم يكن الأعداء من وراء الحدود، فربما كان الرأس المدبر للمحاولة الفاشلة المنكرة من رجال الدولة أو من أعيانها، أو حتى من داخل دار الخلافة».

هز المستعصم بالله رأسه موافقا: « أحسنت، هذا ما أردت أن لا يغيب عن بالكم».

* * *

انصرف الجميع وبقي الخليفة وحده شارد البال. استرخى في مقعده الوثير. أغمض عينيه ليحظى بغفوة تريح أعصابه المتوترة، لكن سؤالا خطر له: ماذا لو ظنت عصمة الدين والدنيا ليلى أنه وراء عملية الاغتيال؛ للتخلص منها ليخلو له الجو مع عشيقته الجارية عرفة؟

غادر الغرفة بخطوات سريعة. جلس بجانب سريرها. قال متنهدا بارتياح: « الحمد لله على سلامتك يا أم مبارك. كنت لي درعا حماني من سهم حاقد أهوج أو متآمر مأجور. إن وجودك بجانبي يشعرني دائما بالأمان، بالراحة والطمأنينة».

قالت سكرة بما سمعته: «لقد أنعم الله علينا اليوم بحياة جديدة بسلامتك أيها الحبيب. أنستني سلامتك ما أحسست به من ألم وفزع».

أخذ يدها، أطبق كفيه على كفها بحنو: « لم يعد الموت يخيفني. لكل كائن موعده الذي يموت فيه. تلك هي سنة الحياة يا عصمة. لكل امرئ أجله، فالحياة هي المكان الوحيد الذي لا نغادره أحياء يا عزيزتي».

قالت بوجه يطفح بالسعادة: «يومك بعيد، ولن تفارق هذه الدنيا إلا بعد أن تشبع منها وتمل».

فكرا قليلا، قال بصوت خفيض: « الحياة يا ليلى بحد ذاتها رحلة وليست مقصدا أو غاية. قد تطول الرحلة أو تقصر، لكن سعادتها لا تكمن في العافية والمال والسلطان، بل في الإنجازات. الموت يأتينا مرضا أو في حادث طارئ، أو قتلا في معركة، أو القتل صبرا، لكن أفعالنا، إنجازاتنا هي التي تبقى. ما الذي خلد ذكر أجدادي حتى هذا اليوم؟ إنها أعمالهم العظيمة. لكن أنا..».

قاطعته ليلى قائلة: «أنت أيضا، بعد عمر طويل، ستخلدك أعمالك العظيمة أيضا».

نهض المستعصم من مكانه مستفَزا. راح يدور في الغرفة محاولا تبديد ثورة اعتملت في داخله. قال في نفسه: إذا لم أكن قادرا على فعل الأشياء وتوجيهها، فلن أكون قادرا على إبعاد ما يستهدفني. هل بقيت ثمة هيبة لخليفة بني العباس؟ لقد تمردت حتى الإمارات الصغيرة وتحدت بغداد. صار الأشقياء ورجال العصابات يهددون الخليفة في عقر داره. ورثتُ دولة ضعيفة شاخت روحها، وهزلت قوتها، وكثر أعداؤها والطامعون فيما تبقى من خيراتها. إنني أرثي لحالي الآن.. إمام الأمة وأمير المؤمنين وسليل بني

العباس كاد أن يقتله سهم لولا الصدفة التي حمته. من يدري متى تكون المحاولة التالية التي قد لا تكون فيها صدفة تنقذني! ربما كان المتآمرون عبر نهر دجلة أو بمحاذاة أسوار بغداد، أو في دار الخلافة.. هل عليّ أن أشك في الجميع فيعذبني الشك؟ ماذا أفعل؟».

ترقرقت دموع في عيني عصمة الدين والدنيا ليلى، فرفعت رأسها قليلا عن الوسادة، راسمة على وجهها الأسمر ابتسامة مخففة: «اهدأ يا أبا أحمد. القلق سيثير صداعك. اترك الأمور إلى الغد، فقد آن لك أن تنام الآن لتريح رأسك وبدنك».

وقف قبالتها: «ليست المسألة خوفي على حياتي من محاولة أخرى. المسألة الأكثر خطورة هي أنني لم أعد واثقا من شيء، أو قادرا على توقع ما سيحدث، ومعرفة المستقبل لا يدركها المنجمون، بل نحن من يصنع المستقبل، لكن كيف أصنع المستقبل، ويداي مغلولتان بسبب كثرة الأعداء واستشراء الفساد؟».

فرك جبينه. كان يدرك أن عليه منذ هذه اللحظة السير في ظلام دامس، لا يدري فيه مع أية خطوة سيكون الوقوع في فخ قاتل، أو السقوط في حفرة عميقة لا قرار لها. أيقن أنه ما عاد قادرا على تمييز المخلصين من الكارهين ضمن الحلقات المحيطة به، فالوجوه متشابهة، بعضها صادق في ولائه، والبعض الآخر تقنَّع بمهارة عالية بالتزلف والتملق، ومن الصعب عليه التفريق بينهما. ربما استهوته أكاذيب التملق، فهو يحتملها أكثر من مرارة الحقيقة، وإن أدرك أن المتملقين أكثر خطرا من الأعداء المجاهرين بعداوتهم؛ لأن العدو صنعته حقائق لم يحتملها أو يقبلها.

قالت متفائلة: «أنا واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام».

فرك المستعصم جبينه مغمضا عينيه. قال بوجه يعصره ألم لا يطاق: «قد يكون من استهدفني واحدا لحق به حيف وظلم، أو لعله أهين على أيدي رجال الدولة، فجاء ينتقم مني لأن على أمير المؤمنين أن يتحمل أوزار الآخرين».

قالت ليلى ضاحكة: «أو ربما كنت أنا الهدف».

لم تمنحه وقتا للسؤال عن قصدها أو بمن تشك، فقالت بتأثر كبير وهي تحدق في عينيه: «عاودك الصداع؟ عليك يا عزيزي أن تخلد الآن للنوم».

قبل أن يصل باب الغرفة، استدار نحوها، نظر إليها مليا. داهمته فكرة لعينة، قد تكون عصمة الدين ليلى هي المخطط لهذه المؤامرة، وشاءت الصدفة أن يصيبها السهم الموجه إلى قلبه. لم لا؟ قبل شهر واحد فقط، قُتل في مصر الملك المعز عز الدين أيبك التركماني، وكانت شجرة الدر قد بعثت بهدية إلى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به وتمليكه مصر. فخشي الملك الناصر يوسف أن يكون هذا خديعة، فلم يجبها بشيء. وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر الملك المعز من شجرة الدر وأنها باطنت الملك الناصر يوسف، فتباعد ما بينهما. كانت شجرة الدر قد أعدت له خمسة ليقتلوه. فلما صعد الملك المعز إلى قلعة الجبل آخر النهار، ودخل إلى الحمام ليلًا، أغلق عليه الباب خدم زوجته، وقتلوه بأمر من زوجته شجرة الدر أم خليل، ولم يشفع له تدينه وعفته وكرمه. ما الذي يجعل عصمة الدين والدنيا ليلى أم مبارك مختلفة عن شجرة الدر أم خليل؟ هل كان خوفه من مصير كمصير المعز وراء احتجاجه على تولي شجرة الدر الحكم في مصر؟

تساءلت ليلى بدلال: «لماذا تنظر إليّ هكذا يا أبا أحمد؟».

لم يجبها . غادر الغرفة على عجل.

تمنى لو استدعى «عرفة» ليلقي برأسه على صدرها، فتمسّد شعره وكأنها تزيل عن صدره الكدر والمخاوف.. لتطربه بصوتها الناعم القوي، فتنسيه متاعب الحكم، وتغنيه عن سماع الشكاوى والوشايات ونميمة الرجال المحيطين به، وطلبات زوجاته ونزوات أولاده. لكنه لم يستطع، خشية أن تثير لهفته إليها الأقاويل عن كونه وراء تلك المحاولة الفاشلة. وقف في غرفته الخاصة، دار حول نفسه لاعنا ذلك المتآمر الذي حرمه من ليلة طرب ساهرة. قرر منذ تلك اللحظة أن يبقى مكان مبيته سرا لا يعرفه غيره، فتنقل ليلتها بين عدة غرف حتى استغرقه النوم في غرفة فارغة تجمع فيها الملابس للغسيل.

واصل المطر هطوله مصحوبا بزوابع رعدية مدوية.

* * *

3

لم يكن الخليفة المستعصم بالله الوحيد الذي لم ينم ليلته تلك. كان الدويدار الصغير أرِقا هو الآخر. ظل، ومنذ عودته من قصر التاج، يدور مضطربا في حجرات داره التي لا تبعد كثيرا عن دار غريمه الوزير ابن العلقمي ضمن أسوار حريم دار الخلافة. كان الدويدار الصغير، قائد الجيش الأمير - أو الملك حسب اللقب الذي منحه إياه الخليفة، أو اضطر إلى منحه، لكسب وده وتأييد جماعته- مجاهد الدين أيبك الشركسي المستنصري، ذا وجه منتفخ الأوداج شديد الحمرة، حريصا على دفع عمامته الزرقاء إلى الوراء حتى تظهر ناصيته، وعلى دفع صدره الضيق إلى أمام كدرّاجة تواجه الريح. كان أغنى رجل في بغداد بعد الخليفة طبعا، زاعما أن الحظ ساق إليه ذات يوم درويشا أعطاه مثقالا من مادة عجيبة تحول الحديد إلى ذهب، وزعم أنه يفعل ذلك في داره الفخمة، داخل سرداب خصصه لأبحاث الكيمياء والتنجيم.

وقفت «شمس» أمام المرآة متظاهرة بفكّ ضفائر شعرها الأشقر الطويل، فنزل مغطيًا كتفيها المدورتين العاريتين، غير أنها تابعت بطرف عينيها حركات زوجها مجاهد الدين المضطربة الفاضحة لشيء ما ينهشه من الداخل. لم يقلقها حاله، بل كانت تنتظر مثل ذلك الاضطراب لتتمتع بمشاهدته، بل ألح عليها فضولها لمعرفة السر الذي أقلقه بعد عودته من قصر الخليفة. استغربت وجود

تغضن تحت جفنيها، مع أنها لم تبلغ بعد عمر الأربعين. ما زالت جميلة، أو لعلها أجمل نساء رجال الدولة. نساء كثيرات أبدين إعجابهن ببشرتها البيضاء المشربة بحمرة، وبشعرها الطويل، بعينيها الخضراوين الواسعتين وأهدابها الطويلة، بجسمها الطويل الممشوق وصدرها الناهد. تأملت قوامها، تلمست شفتيها المكتنزتين. شعرت بغصة، فقد قادها هذا الجمال أن تكون حبيسة في دار رجل لا تحبه، أو أنها لم تجد منه طوال سنتين من الزواج ما يحسن صورته في ذهنها. كانت على النقيض منه في كل شيء. لعنت السياسة والمصالح، فلم يكن زواجها سوى صفقة رضيت بها على مضض، من أجل خاطر أبيها، الذي لم يدرك حتى الآن مبلغ تضحيتها ولا حتى سوء معاملتها في دار الدويدار الصغير.

تطلعت الى صورته المنعكسة أمامها على المرآة. ودت أن تبصق عليها، لكنها أحجمت عن فعل يكشف نفاد صبرها أو يوحي بقلة حيلتها. كان بوسعها أن تستنجد بأبيها، لكنها تعرف ردة فعله وما قد يليها من تعقيدات، ربما تصل إلى حرب مع جيوش الخلافة في وقت يهدد الأعداء باحتلال العراق كله. إيصال رسالة إلى أبيها، صاحب الموصل، الملك الرحيم بدر الدين عبد الرحمن بن لؤلؤ، ليس صعبا، وإرسال مبعوث من أبيها إلى أمير المؤمنين يحثه فيها على تخليص ابنته من براثن زوجها أمير الجند الشركسي أمر سهل، ولا شك أن الخليفة سيسارع إلى تلبية طلب صاحب الموصل، حرصا على بقاء الولاء لإمام المسلمين، حتى لو اقتصر هذا الولاء على الدعاء في صلاة الجمعة، لكنها لم تشأ أن تظهر ضعيفة خانعة مسلوبة الإرادة. ما كان يريحها أنها انتصرت عليه بإبعاده عن مخدعها، لم يستطع إرغامها؛ لأنه يعرف أن وراءها جيوش أبيها وعلاقاته بالخليفة، غير أنها لم تنجح بعد في إجبار

الشركسي على تسريحها بإحسان. كادت أن تنفجر ضاحكة حين تذكرت طرفة روتها لها سيدة بغدادية، لكنها وضعت يدها على فمها حابسة ضحكتها. تقول الطرفة إن امرأة لم تكن على ود مع زوجها، عثرت على مصباح سحري، وما إن دعكته، حتى ظهر أمامها جني المصباح، قائلا بصوت قوي حازم: يمكنك يا سيدتي أن تطلبي ثلاث أمنيات، لكن أية أمنية تطلبينها ستتحقق مضاعفة لزوجك! فطلبت المرأة قصرا على دجلة، وبلمح البصر، كان لها قصر ولزوجها قصران. أزعجها أن يكون لزوجها ذلك. طلبت صندوقا من الجواهر، فكان لها ذلك الصندوق ولزوجها صندوقان. وقبل أن تبوح بأمنيتها الثالثة، ذكّرها الجني بشرطه، فقالت: «أريدك أن تشبعني رفسا!».

لكنها الآن لا تحتاج لمصباح سحري، فها هو زوجها في غاية الاضطراب والحيرة. تساءلت متهكمة: « هل اكتشف أمير المؤمنين شيئا من اختلاساتك؟».

توقف عن الرواح والمجيء. قال بنبرة تعال وغرور: « قد تكونين جميلة ومغرورة، لكنك لست ذكية بما يكفي لتوقع الأشياء أو الحدس بها. لو كنت أطمع في شيء عند الخليفة وأود امتلاكه، سأملكه بالحسنى أو بالقوة. أستطيع لو شئت تدبير انقلاب وتبديل الخليفة بآخر، لكنني لا أحتاج ذلك».

لو كان المستمع غير شمس الأتابكية لغرق في الضحك من لكنة الدويدار التركية وقلبه الطاء تاء والحاء هاء والعين ألفا.

كانت شمس أعلم الناس جميعا بحال هذا الرجل الذي أملت المصالح السياسية أن يكون بعلها، لكنه لم يكن يوما شريك حياتها، والشيء الوحيد الذي يشتركان فيه هو سقف الدار فقط. أعجبها فيه، وإن لم تبح له، أنه كان عصاميا مكافحا طموحا، لم يعرف التردد في المغامرة ليتصدر بقية حاشية

قصر الخلافة. كان مفاخرا بماضيه. كثيرا ما كان يجتر أمامها ذكريات صباه راعيا أغنام أهله على سفوح جبال القفقاس، مرددا أغنيات ريفية، حتى جاء ذلك اليوم الذي هجمت فيه جحافل ملك خوارزم، فاقتلعته من تلك السفوح الخضراء لترميه في سوق الرقيق، فاشتراه أمير شركسي ووضعه في معسكر للتدريب على السلاح. تفوق منذ البدء على أقرانه حتى وصل إلى مرتبة قائد جند بغداد محفوفا بولائهم، وحين تعاظم أمره، منحه الخليفة كل ما تمناه من ألقاب. أعجبها ذكاؤه وشجاعته، وكرهت فيه طمعه وغروره ودهاءه وحقده ومكره وخبثه.

قالت شمس باستفزاز: « أخشى أن يجرك طمعك إلى ما فيه هلاكك وهلاكي. بمقدور الخليفة ساعة يشاء أن يدعو أهل بغداد العرب للالتفاف حوله والقضاء على أي نفوذ منافس».

قهقه الدويدار بطريقة هستيرية: « يا لك من ساذجة في أمور السياسة! بين الخليفة وشعبه حجب عدة.. وعند كل حجاب، ثمة مسؤول مذنب يخشى الفضيحة والعقاب، فكيف يسمح المسؤول لضحاياه بالوصول إلى الخليفة ليقدم شكواه؟».

«وأنا على يقين تام بأنك واحد منهم إن لم تكن أولهم».

«من الضحايا؟».

«بل ممن يخشون الفضيحة والعقاب. لا أعتقد أن أحدا يشك بكونك واحدا من المسؤولين عما يجري من ظلم وانتهاك للحقوق».

لم يكن سرا ابتزازه للتجار والقوافل، ولم يكن سرا أنه يمتلك أموالا عظيمة وبساتين غناء ومخازن كبيرة مليئة بالبضائع المستوردة والحبوب،

يتحكم من خلالها بحركة السوق والأسعار، يمكنه ان يخلق أزمة في أي وقت يشاء، حاله في ذلك حال العائلة الحاكمة والحاشية. لكن السر الذي لا يعرفه أحد سوى اثنين فقط، هو وزوجته شمس، الباب المخفية لسرداب وضع فيه ما يملكه من نقد وذهب وجواهر. كان مقتنعا بالطريقة التي يقال إن أمير الأمراء قبل بني بويه، بجكم، قد اتبعها في إخفاء أمواله، لكنه استبعدها تشاؤما من مصير بجكم الذي مات من طعنة رمح في خاصرته من صبي كردي لم يكن يعرفه. كانت أموال بجكم كثيرة فكان يدفنها في داره، وفي الصحاري، وكان يأخذ رجالًا في صناديق فيها مال إلى الصحراء، ثم يفتح عليهم فيعاونونه على دفن المال، ثم يعيدهم في الصناديق ولا يدرون إلى أي موضع حملهم ، فضاعت أمواله بموته.

ردّ بجفاء: « ربما، لولا ذلك لما كنت الآن ترفلين بالحرير وتنعمين بالرخاء والجاه..».

«كنت سعيدة وأكثر راحة ودلالا في قصر أبي».

قال مصرًّا على أسنانه بعد أن أجادت الضرب على الوتر الذي يغيظه: «ما الفرق بيني وبين أبيكِ بدر الدين لؤلؤ؟ ما يغيظني هو أنك تلهجين بذكر أبيك ليل نهار، وكأنك قد نسيت كيف أصبح حاكما على الموصل! الكل يعلم أنه كان أرمينيًّا اشتراه رجل خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود الأتابكي، صاحب الموصل، فحظي عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه. المصيبة أنه لم يتورع عن قتل أولاد أستاذه غيلة واحدًا بعد واحد إلى أن لم يبقَ معه أحد منهم، فاستقل هو بالمُلك، وصفت له الأمور. أبوك مشهود له بالحيل والمراوغة والدهاء، مؤمن أن الغاية تبرر الوسيلة».

قالت محذرة: «إياك أن تذكر أبي بسوء. لا يمكنك أن تقارن نفسك بأبي.. أجمع الناس على أنه عاقل، حازم، لبيب، جواد، كريم، وبسبب عدله وشهامته وحسن سياسته وإحسانه للرعية، مازال يحكم الموصل منذ خمسين سنة. وفي شبابه، يقولون عنه إنه كان حسن الشباب من نضارة وجهه، وحسن شكله، وكانت العامة تلقبه: قضيب الذهب».

أضافت متباهية: «لعلو شأنه تبارى الشعراء في مدحه... وأنت لا يمدحك إلا اللصوص وقطاع الطرق. يكفي أبي فخرا أن التاريخ سيذكره».

«الشعراء يمدحون من يعطي أكثر».

«واللصوص لا يحترمون أحدا إلا أقرانهم».

«إذا كنتِ تتهمينني بسرقة رواتب الجنود، فأبوك قد سرق الموصل كلها».

«يكفي أبي فخرا أن التاريخ سيذكره. إنه هو من طلب من الشيخ عز الدين بن الأثير، رحمه الله، أن يجمع تاريخا ويجعله باسمه فأنجز ابن الأثير الكامل في التاريخ».

«إذا كان ابن الأثير قد كتب الكامل في التاريخ لأبيك فأنا من يصنع التاريخ».

«لا شك أنك تقصد الصفحات السود في التاريخ..».

توالت على الباب الخشبي الخارجي طرقات سريعة. قبل أن يتجه إلى الباب، التفت إليها متوعدا: «سترين يا ابنة بدر الدين».

أثار فضولها زائر الليل هذا تحت مطر غزير والطرقات تغرق بالمياه والظلام. تسللت بخفة إلى زاوية معتمة قريبة من الباب. سمعت زوجها

يعنف شخصا ما : «كيف تأتيني إلى البيت في مثل هذا الوقت الحرج أيها الأحمق؟».

قال الشخص المجهول: «أريد المكافأة».

رد الدويدار بصوت خفيض: «ويلك! إنك تستحق العقاب وليس المكافأة. لقد فشلت في المهمة».

سمعت الشخص الذي يلف الظلام وجهه: « غامرت بحياتي وقمت بالمهمة.. أريد المكافأة الآن فأنا لا أطمئن إلى وعودك».

تراجعت شمس بحذر مصعوقة بما سمعته. لكن من يكون ذلك الهدف الذي فشل الشخص المأجور في إصابته؟

في الصباح التالي، سمعت من جيرانها محاولة اغتيال أمير المؤمنين. أيقنت سعيدة أنها تملك سرا يذل الدويدار ويرميه إلى جهنم. ارتدت ثيابها وأسدلت خمارها، اكترت دابة ركبتها ضاربة بكعب حذائها بطن الدابة في طريقها إلى مقر الوزير مؤيد الدين بن العلقمي.

* * *

خطا الوزير متثاقلا نحو الباب المشرعة على نهر دجلة. وقف هناك بقميصه الحريري الأبيض الموشّى المرسل فوق سرواله االأسود العريض الذي اختفت نهايتاه تحت رقبة حذائه وسيوره الجلدية الملتفة حول ساقيه. عقد ذراعيه على صدره، متابعا بشرود موجات دجلة المنحدرة صوب الجنوب، وقطرات المطر ترسم عليها دوائر صغيرة، ما إن تتسع حتى تظهر دوائر أخرى لقطرات أخرى. تابعت عيناه حركة الأمواج وهي تهدهد ما اعتلاها من رغوة الزبد والنوارس الغافية وعيدان قصيرة وقصب وأغصان مورقة طرية وسعفات نخيل وخرق غاب لونها.

تظاهر بالأسف على اشتراك الأمير مجاهد الدين أيبك الشركسي في مؤامرة فاشلة، لكنه في الحقيقة أخفى مشاعر الفرحة باصطياد الشركسي. قال بصوت خفيض: « ما تقولينه يا سيدتي أمر خطير، لكنني لا أشك أبدا في صدقك، فأنت امرأة معروفة من عائلة مشهورة. ما يحيرني هو ما الذي يدفعك لكشف هذا السر عن مسؤول كبير هو زوجك؟».

قالت وهي تلملم أطراف قبائها استعدادا للمغادرة: « سيدي الوزير.. هذا أمر يخصني، لقد قدمت لك المعلومة وعليك التحقق منها».

وجد جوابها منطقيا. لعلها أرادت الانتقام من الدويدار. ليس مهما السبب. إنه الآن يمسك بخناق الدويدار وسيكشفه أمام الخليفة. مجاهد الدين من بدأ العداوة وليس هو. لو وجد الدليل لأطاح به وقضى عليه إلى الأبد.

سألها أخيرا: « ألا تتذكرين شيئا مميزا في صوت ذلك الشخص الذي تحدث مع زوجك الأمير الدويدار؟».

فكرت قليلا، قالت هازة رأسها: « نعم، نعم، كانت لكنته أعجمية، صوته أجش وكثير التنحنح».

غادرت شمس المكان على عجل، تاركةً الوزير يتيه في أفكار شتى. من المستحيل أن يتبوأ الشركسي منصب الخلافة، ولا يمكن له تدبير أمور الوزارة، ومركزه مرموق وأمواله لا تحصى، فلماذا إذن خطط لاغتيال المستعصم بالله؟ أمر غريب محير. لا بد من البحث عن ذلك الشخص ذي الصوت الأجش. لكن، أين يبحث؟

أطال الوزير الجلوس على حافة سريره. انتصب واقفا ضاربا بلاط القاعة بكعب حذائه، مبعدا عن رجليه خدرا اعتراهما. أقفل النافذة فاستوقفته

صورته المنعكسة على الزجاج. مرر أصابعه النحيلة الطويلة برفق على وجهه الذي كساه شحوب مهيب، متحسسا الخطوط التي ارتسمت تحت جفنيه وحول شاربه. حدق في عينيه الحزينتين اللامعتين وكأنه يسبر أعماقهما، منقبا عما تبقى من مناظر قديمة، تطلع إلى غزارة الشيب في شعره الذي بدا خفيفا في قمة رأسه ووسطه حتى بانت جلدته. بدت عليه دهشة مستنكرة، وكأنه قد اكتشف الآن أنه أكبر سنا من الأربعة والستين عاما التي انقضت من عمره.

تهلل وجهه حين ومضت في باله فكرة استغرب غيابها عنه. لا بد أن يكون الفاعل من الجنود الأتراك الموالين لمجاهد الدين أيبك الشركسي.

ارتدى الوزير قفطانا أسود وتحزم بسيفه الدمشقي ووضع على رأسه عمامته البيضاء، وطوّح في الهواء عباءته السوداء قبل أن يثبتها على كتفيه.

عاد المطر يتساقط بغزارة، لكن الوزير استطاع الوصول إلى ثكنة الجند في حريم دار الخلافة. عرف الجنود أن الوزير جاء للتحقيق في محاولة الاغتيال التي باتت حديث الناس في كل مكان. وقف حرس دار الخلافة في صف طويل، ومن يأتي الدور عليه، يدخل غرفة صغيرة جلس الوزير فيها موجها سؤالا واحدا فقط لمن يدخل عليه: أين كنت ليلة أمس؟

لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة حتى وجد ابن العلقمي ضالته. فاجأ الوزير الجندي المضطرب: « هنالك جندي شاهدك البارحة وأنت ترمي السهم باتجاه شرفة أمير المؤمنين».

صاح الجندي مصعوقا بعد نحنحة متتالية: «لا، لست أنا».

قال الوزير مطمئنا: «لا تخف. إذا أخبرتني بكل ما لديك من معلومات، سأقترح على مولانا الخليفة العفو عنك».

اعترف الجندي التركي بكل شيء. قال إنه لم يتسلم من الدويدار الصغير مكافأته بعد، وإن الهدف كان قتل الخليفة لإفساح المجال لتولي نجل الخليفة، أبي العباس أحمد الخلافة، على أن يكون الأمير مجاهد الدين أيبك شريكا فيها.

ربت ابن العلقمي على كتفه قائلا: « إذا أعدت هذه الأقوال على مسامع أمير المؤمنين، فأنا أضمن لك إطلاق سراحك ومنحك مكافأة كبيرة تغنيك عن الخدمة».

لعلها كانت أسعد لحظة في حياة الوزير طيلة خدمته في قصر الخلافة مدة خمس وعشرين سنة، تولى فيها مناصب عدة وأصبح أستاذ الدار في زمن المستنصر بالله، والمشرف على بناء المدرسة المستنصرية، وأخيرا، وفي عهد المستعصم بالله، تولى الوزارة. لم يصادف في حياته غريما عنيدا مثل الدويدار الصغير. حانت الآن اللحظة المنتظرة.

* * *

بذل المستعصم بالله جهدا كبيرا للحفاظ على رباطة جأشه. حث نفسه على الهدوء وعدم التهور. لم ينسَ تعنيف أبيه له حين كان في العشرين من عمره. كان برفقة أبيه ذات يوم من أيام شهر رمضان عندما دخلا راكبين أحد أزقة بغداد قبل غروب الشمس بقليل، فرأيا شيخا كبيرا ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى. اندفع عبد الله موبخا الرجل قائلا: «أما تستحي أيها الشيخ؟ أليست لك كرامة فتحتفظ بها؟».

لم يعرف الشيخ هوية الفارسين، فأجاب متلعثما: «لم أفعل ما يشين يا سيدي».

قال عبد الله رافعا رأسه إلى الأعلى ليؤكد لأبيه قوة حدسه: «لِـمَ لَـمْ تأخذ الطعام من محلتك؟ هل أنت محتاج أن تأخذ من محلتين أم هو الطمع الذي دفعك؟».

قال الشيخ وهو ينظر إلى المستنصر بالله: «لا والله يا سيدي، لكني شيخ كبير نزل بي الوقت وأنا أستحي من أهل محلتي أن أزاحمهم وقت الطعام، فيشمت بي من كان يبغضني، فأذهب إلى محلة غير محلتي فآخذ الطعام، وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب، فأدخل بالطعام إلى منزلي بحيث لا يراني أحد».

التفت المستنصر إلى ولده عبد الله غاضبا: «ماذا كنت تخسر لو تمهلت قليلا، فتسأل الرجل قبل أن توبخه؟ حين يتعجل الناس العاديون في قراراتهم، تقع الخسارة عليهم، لكنك عندما تكون خليفة، وتتهور في قراراتك، وتستعجل في استنتاجاتك، فالخسارة تقع على أمة بكاملها. لقد أغضبتني وأغضبت الله حين تهجمت على شيخ صائم بريء».

رمى المستنصر بصرة إلى الشيخ فيها ألف دينار، فلما فتحها الرجل فرح فرحا شديدا، ولم يستطع تحمل كل تلك الفرحة فسقط ميتا من لحظته، فقال المستنصر لمرافقيه: «شيء قد خرج منا لا يعود إلينا. تصدقوا بها على أبناء محلته».

قال المستعصم للوزير: «أخشى أن تكون يا ابن العلقمي قد وقعت ضحية جندي نصّاب. أعرف أنك كثير الشك فيما يتعلق بالأمير أيبك. الذهن المبتلى بالشك يضع على العين عصابة سوداء، فلا يبصر المرء طريقه. ما تقوله خطير جدا وعليك إثباته».

رد الوزير واثقا: « الشك، يا مولاي، ليس عيبا، فهو أساس الإيمان ومبتدأ البحث عن الحقيقة، وبداية الحكمة. لم أتفوه بهذا الادعاء من دون دليل قاطع».

سرت رعشة في جسد الخليفة. أصبح تنفسه لهاثا. ماذا لو قدم الوزير دليلا دامغا لا يقبل التأويل؟ هل وصل ابنه حدا من الضعة والخسة أن يتآمر على قتل أبيه؟ كيف له أن ينطق بحكم قطع رقبة ابنه؟ والدويدار، هل سيسكت جنوده بعد مقتله بتهمة الخيانة الكبرى؟

ودّ لو كان في دليل الوزير ثغرة يمكنه منها الطعن فيه. أحس ببدايات نوبة صداع الشقيقة. بلع ريقه: «هات دليلك أيها الوزير».

التفت ابن العلقمي إلى فخر الدين الدامغاني، رئيس الديوان، وطلب منه إحضار الجندي من سجن حريم دار الخلافة، الذي لم يكن يبعد أكثر من خمسمائة ذراع.

شعر الخليفة في تلك اللحظات أنه يقف على حافة فوهة بركان تغلي في جوفه حمم محرقة. مسح العرق عن جبينه وحاجبه. أطرق إلى الأرض وأغمض عينيه. تناهت إلى سمعه أصوات أقدام، فرفع رأسه ببطء. تنهد بارتياح وهو يرى رئيس الديوان عائدا وحده.

قال الدامغاني في تقرير مختصر: « وجد الحراس الجندي التركي مخنوقا في زنزانته، ولا أحد منهم شاهد الفاعل».

أدرك المستعصم أن الوزير على حق، لكنه لا يريد المواجهة في وقت تزايدت التهديدات والمصاعب. لكن مجرد افتراض مثل هذه المؤامرة، وليس حدوثها فعلا أمر يثير الهلع ويتطلب اتخاذ مواقف حاسمة من دون إشعار المتآمرين بافتضاح جريمتهم. لا بد من اتخاذ الحيطة وتغيير الحرس الخاص ووضعه

تحت إمرة ولده الثاني أبي الفضل عبد الرحمن. عليه التخطيط للسيطرة على الأمور، ويجعل الجميع يرضخون لأوامره. تلك النوايا هدأت خاطره، وإن لم يكن واثقا من قدرته على تنفيذ مخططاته.

عاد من شروده على صوت رئيس الديوان: « ما هي أوامرك يا مولاي؟».

تساءل المستعصم في سره: ما الذي يتوقعه رئيس الديوان الأبله؟ هل ينتظر منه أن يقود حركة انقلابية تصحيحية، يحيل فيها المتآمرين إلى القضاء ويصادر أموالهم؟ إنها فكرة جيدة لو كان قادرا على تحقيقها، فأموال الدويدار الصغير يمكنها أن تسد عجزا في ميزانية الدولة أو تضيف أكياسا من الذهب والفضة إلى خزائن الخليفة. تمنى أن يكون مثل أبي جعفر المنصور حين قضى على أبي مسلم الخراساني، لكنه تمنى أيضا أن لا يكون مصيره كمصير المقتدر بالله على يد أعوان التركي مؤنس. فالدويدار ضمن سلامته بولاء جنوده، وولده أبو العباس تحصن بولاء العصابات التي شكلها من شباب بغداد العاطلين.

خشي المستعصم أن يرى الوزير ابن العلقمي، ورئيس الديوان الدامغاني تردده وضعفه. اعتدل في جلسته موحيا باتخاذ قرار مصيري، غير أنه خيب توقعات الاثنين حين قال: «أريدكما أن تتكتما على ما حدث، ودعا الأمر لي لأقف على الحقيقة. اذهب يا ابن العلقمي لشؤونك، وليبقَ رئيس الديوان للمشاورة».

لم يبقَ في الغرفة سوى الخليفة ورئيس الديوان. أسبل المستعصم ذراعيه إلى الجانبين متنفسا الصُّعَداء: «يا له من موقف! لو كان الدويدار الصغير وحده لدبرت أمر قتله، لكن المصيبة أن ولدي الأكبر مشارك فيها وهذا ما يجعل يدي مغلولة».

قبل أن يجد رئيس الديوان تعليقا مناسبا يرضي الخليفة، أضاف الأخير: «ليس هذا بالأمر الغريب في دولة بني العباس. هل تصدق أن أما تقتل ولدها وأن ابنا يقتل أباه؟».

ظن الدامغاني أن المستعصم ربما يختبر ولاءه: « ربما فعل ذلك بنو أمية، لكنه ليس من شيم نسل عم النبي الأكرم».

قال الخليفة ساخرا من تملق رئيس ديوان الزمام: « النسب ليس كل شيء. العباس وأبو لهب كلاهما من نسل عبد المطلب، لكن العباس آزَرَ النبي، وأبا لهب عاداه. نعم، لقد حدث ذلك. لقد قتلت الخيزران ولدها الهادي كي يتقلد ولدها الثاني هارون الرشيد مقاليد السلطة، وقتل محمد المنتصر أباه الخليفة المتوكل لأن المتوكل قدم عليه أخاه في ولاية العهد».

تريث للحظات، قال بعدها: «هل تظنني يا دامغاني أقل مكرا من الآخرين؟».

لم يَدَعْ الدامغاني يبحث عن جواب مناسب، بل أضاف: « لو شئتُ لقطعت بالسيف من أختاره. لا يخيفني أحد. لا يحميني هؤلاء الحراس ولا الجنود الترك أو الجنود العرب، بل الله يحميني، لأنني حامل راية الإسلام».

هز الدامغاني رأسه موافقا ونظراته مُسَمَّرتان على الأرض.

نهض الخليفة من مكانه، دار حول رئيس الديوان. وقف أمامه وجها لوجه: «ماذا تقترح يا دامغاني؟».

عقب الدامغاني محاولا التخفيف من توتر الخليفة الذي عكسه اصفرار وجهه، وارتباك حركة يديه: « لم يثبت شيء حتى الآن يا أمير المؤمنين. وكي يكون مولاي على بينة تامة، لا بد من سماع رأي الطرف الآخر ودفاعه.. نجلكم والدويدار الصغير».

ارتاح المستعصم لعبارات الدامغاني فقد وجد فيها مخرجا من موقف صعب يتطلب شجاعة نادرة لم يكن يمتلكها، في ذلك الوقت على الأقل، قال: «اقتراحك جيد ويستحق الثناء. ليأتِ الدويدار الصغير لمقابلتي حالا».

* * *

4

ذعر الأمير مجاهد الدين أيبك عند سماعه خبر القبض على الحارس المتهم بمحاولة اغتيال الخليفة، ولو سمع بموت الحارس خنقا في السجن، لهدأت نفسه. توقع أن يستدعيه الخليفة ليحاسبه، وربما أعد له خطة للقتل لا تختلف عن فعلة المنصور بأبي مسلم الخراساني حين استقبله بوجه بشوش بينما كان السيّافون مختبئين وراء الستائر. هل يعترف للخليفة بأنه تآمر مع نجله الكبير أبي العباس لإرهابه ومن ثم إزاحته عن الحكم؟ لن يستطيع المستعصم أن يفعل شيئا لو أنه وضع جنوده في حالة إنذار داخل دار الخلافة. حتى لو خرج سالما من هذه المحنة، فكيف سيواجه الناس، وهو الخائن للأمانة والمتآمر على إمام المسلمين؟ كيف سمح للعداوة مع الوزير أن تبيح لنفسه قتل خليفة يُكِنّ له التقدير وصاحب فضل عليه؟ لا، ليس الخليفة صاحب فضل عليه، بل هو صاحب الفضل على الخليفة لأنه يحميه. لكن، كيف فاته أن حياته في ظل المستعصم مأمونة، بينما لا يطمئن عليها لو أن أبا العباس الأخرق المتقلب المزاج المنقاد لرغباته، أصبح أمير المؤمنين؟

سألته شمس وهي تضع ساقا على ساق وقد مدت ذراعيها على مسند الأريكة: «أراك وكأنك في ورطة، فقل لي ما بك، عسى أن أستطيع مساعدتك».

ها هي تستفزه مرة أخرى. لولا هذا الاستفزاز ونظرات التحدي، لفكر يوما بإطلاق سراحها وعودتها إلى الموصل. لكنها تغيظه بعباراتها الفاضحة لعيوبه وتعليقاتها الساخرة الطاعنة في كبريائه.

ردّ عليها بجفاء: « أية ورطة أكون فيها وأنا الأمير أيبك الشركسي المستنصري؟».

أيقنت أنه لم يعرف شيئا عن دورها في كشف تآمره. لم يهمها ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يفعل لها شيئا وإلا تقدمت جيوش أبيها الأتابكي بدر الدين لؤلؤ لتحتل بغداد. أطلقت ضحكة ساخرة: «شركسي ومستنصري؟ يا له من تملق مفضوح!».

رماها بنظرة غاضبة وغادر البيت على عجل، صافقا الباب وراءه بقوة. اتجه بفرسه إلى دار الخلافة، ثم اتجه راجلا إلى قصر الفردوس مباشرة، مقر نجل الخليفة الأكبر أبي العباس أحمد.

حين التقاه، رفع أبو العباس كأسه، داعيا الدويدار الصغير لمشاركته الشراب. لكن الدويدار ظل جامدا في مكانه عند الباب متعجبا من هدوء نجل الخليفة وبرودة أعصابه. بادره أبو العباس بابتسامة عريضة: « اجلس، من يراك يا أيبك يظن أن القيامة قد قامت».

نهض أبو العباس بصعوبة وهو يتمايل ثَمِلًا، سحبه من يده وأجلسه بجواره. قال وهو يمط كلماته بارتخاء: «كنت أظنك يا أيبك تحسن اختيار رجالك للمهمات الصعبة. من أين جئت بهذا الحارس الغبي الذي أصاب أم مبارك بدلا من تحذير أبي وإرهابه؟ عليك أن تحسن اختيار الرجل المناسب دائما».

قال الدويدار الصغير مضطربا: «لكن الحارس الآن في قبضة الوزير».

ضحك أبو العباس فلمعت عيناه الواسعتان: «انتقل الحارس إلى جهنم.. أرسلت له واحدا من نواب عزرائيل قبل أن يصل مقر أبي».

تنهد الدويدار مجاهد الدين أيبك بارتياح. تساءل بحثا عن مزيد من الطمأنينة: «لا شك أن الوزير قد أجبر الحارس على الاعتراف، ولا بد أنه أخبر مولانا الخليفة بالأمر، فماذا نصنع؟».

ربّت أبو العباس على كتف الدويدار: «اطمئن، لم يجد وقتا كافيا».

دخل أحد الأعوان، وتقدم صوب أبي العباس وهمس في أذنه فجفل واقفا، فتساقط بعض الشراب من كأسه. حاول أن يوازن نفسه، قذف بالكأس إلى الأرض، قال للدويدار الصغير الذي كان يتابعه مذعورا: « عليك أن تتدبر الأمر وتجد لنا خلاصا من هذا المأزق».

صاح الدويدار الصغير كالملسوع: «ماذا؟ ما الذي طرأ؟».

انكفأ أبو العباس على وجهه ساقطا على الأريكة. رفع رأسه بعد قليل قائلا والزبد يتدفق من زاويتي فمه: « يقول مساعدي المشؤوم إن ابن العلقمي .. إن ابن العلقمي الوزير قد استجوب الحارس قبل سجنه».

صاح الدويدار مبهوتا: «هذا ما كنت أخشاه».

زمّ أبو العباس شفتيه غير مبال: «عليك أن تتصرف أيها الدويدار».

تطلع الدويدار حوله متحيرا: «ما لي وهذه الورطة وليس لي فيها ناقة أو جمل؟».

نظر إليه أبو العباس معاتبا ورأسه يتمايل: «كيف تقول هذا أيها الأمير؟ ألم نتفق على أن تتسلم أنت أمور الوزارة والقيادة حين أكون أنا أمير المؤمنين، بعد أن نرغم أبي على التنازل عن الخلافة؟ ألم تقبل أن أضع اسمك مع اسمي في دعاء صلاة الجمعة وعلى النقود المسكوكة؟».

أقر الدويدار مع نفسه أن ما قاله أبو العباس كان صحيحا. في الحقيقة، لم يغره ذكر اسمه في الصلاة، وعلى النقود، على المشاركة في محاولة قلب نظام الحكم، وإنما كان هدفه أبعد من ذلك بكثير. ما إن تمر أيام قلائل على تولي أبي العباس للحكم حتى يتحرك هو وجنوده للقضاء على الخليفة الجديد بتهمة قتل أبيه، وبعد ذلك تولية مبارك، الابن الأصغر للمستعصم، ليكون خليفة بالاسم فقط، بينما يكون الدويدار هو الحاكم الفعلي، مثلما فعل الأمراء الترك ذلك من قبل. راوده ذلك الحلم طويلا، ووجد في استجابة أبي العباس وسذاجته خير دافع لتحقيق الحلم الأمنية. قبل شهرين، صعد إلى غرفة على السطح وعاد منها بعلبة احتفظ فيها بقطعة نقدية يعتبرها حرزا، وعلامة حظ سعيد. وقتها قال لزوجته شمس متباهيا: «اشتريت هذه المسكوكة قبل أعوام من تاجر مفلس.. إنها علامة الحظ وعنوان السعادة! هل تعرفين كم عمر هذه القطعة الفضية؟ عمرها أكثر من ثلاثمائة سنة! لكنها عندي أهم هذه القطع، لا بسبب قدمها، بل لأنها تجسد حلمي.. عليها صورة رجل شاكي السلاح وثمة كتابة منقوشة تحت الصورة سأقرؤها لك.. (إنما العز فاعلم، للأمير المعظم، سيد الناس بجكم)».

ضحكت شمس مستهزئة كعادتها: « ومن يكون بجكم هذا؟».

أجابها مفتخرا: « كان مثلي تركيا.. لكنه كان صاحب الحل والربط في عهد الخليفة العباسي الراضي بالله، الذي تولى الخلافة قبل أكثر من ثلاثمائة سنة. وحين مات ذلك الخليفة بعد خمس سنوات في الحكم، بويع للخليفة المتقي بالله، الذي حاول القضاء على نفوذ الأتراك بالاستعانة بالعرب الحمدانيين، فما كان من زعيم الأتراك يومذاك توزون إلا أن يخلع المتقي ويسمل عينيه».

سألته شمس يومها مستنكرة:« كيف يمكن لمرؤوس تركي خلع خليفة عربي؟».

أجابها أن بني العباس لم يقيموا حكمهم ويستمروا فيه إلا بعون العناصر الأجنبية. وحين اتهمته بالخيانة، ردّ عليها أن بجكم وتوزون تركيان مثله، والمستعصم بالله حفيد الراضي والمتقي بالله، فلماذا لا يعيد التاريخ نفسه؟

قالت: « لكن المستعصم ليس الراضي ولا المتقي».

قال والحلم يدغدغ باله: «قد يكون كذلك لكنه بالتأكيد ليس قويا على شاكلة أجداده كأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون، ولا حتى مثل جده الظاهر أو أبيه المستنصر».

عاد المساعد معلنا أن رسولا من قصر الخلافة يطلب حضور الأمير الدويدار لمقابلة الخليفة. شعر الدويدار أن الأرض اهتزت تحت أقدامه. قال أبو العباس بصوت متقطع، وقد أغمض عينيه: « أنت.. من ورطني.. لو ساءلني أبي.. سأقول إنك هددتني بالقتل إن لم..».

قاطعه الدويدار وقد حزم أمره: « لا تتعجل الأمور يا أبا العباس، سيكون كل شيء على ما يرام وكما نشتهي».

لم يسمع الدويدار تعليقا لأن نجل الخليفة غط في نوم عميق وتعالى شخيره.

* * *

اتجه الدويدار الصغير إلى دار سليمان شاه، قائد مجموعة الجند التركمان، الذي يثق فيه أكثر من أي تركي في بغداد. كان سليمان شاه في أواخر الأربعينيات من عمره، ذا لحية صهباء، ووجه أبيض وحواجب كثة. لم يكن يرى من أعداء للدولة سوى النصارى واليهود، وكثير ما كان يقول: لولا هؤلاء لما ظهر جنكيز خان ولما تقدم المغول غربا ولما سقطت دولة الخوارزميين.

لم يكاشفه الدويدار الصغير بتواطئه مع نجل الخليفة، وإنما أخبره بأن الخليفة، وبدفع من الوزير ومساندة من رجالات العرب، يخطط للقضاء على جميع القادة والجنود الترك في بغداد، ولكي يحول الدويدار دون حدوث هذه المجزرة، قرر أن يقوم بعصيان. فوجئ سليمان بما سمعه، لكنه لم يصدق أن يتهور الخليفة فيعلن حربا على جنود مسلحين يحرسون بغداد وحتى قصر الخلافة، غير أنه لا يملك سوى تأييد قائده الأعلى.

انطلق الاثنان إلى مقر ثكنة الجنود التركمان قرب باب البستان المواجه لدار التشريفات في الناحية الشمالية من حريم دار الخلافة. كانت الخطة الاستيلاء على قصر الخلافة وأسر الخليفة وعائلته وقتل الوزير ابن العلقمي، ورئيس الديوان، وقاضي القضاة، والمحتسب محيي الدين أبي المظفر يوسف سبط الإمام ابن الجوزي، وجميع القادة العرب في الجيش.

كانت المفاجأة التي أذهلت الدويدار، وأجبرته على تغيير خططه، أن الوزير ابن العلقمي قد سبقه في تأمين حماية كافية للقصر من المشاة والفرسان العرب الذين سارعوا في تحصين مواقعهم. اشتبك الطرفان قرب باب النوبي، لكن الظفر كان للعرب الذين كبدوا الترك خسائر كبيرة، وأجبروهم على التراجع، فغادر الدويدار الصغير الأمير مجاهد الدين أيبك والقائد سليمان شاه وجنودهما حريم دار الخلافة، ليحتلوا طرقات بغداد وجسريها، القديم القريب من شريعة دار الخلافة، والجديد الذي أنشأه الظاهر بالله جنوب المخرم وشمال الرصافة. اتخذ الدويدار الصغير مقرا له على شاطئ دجلة قرب محلة الإمام أبي حنيفة النعمان.

* * *

في ذلك اليوم الماطر، استعاد أهل بغداد حوادث ماضيهم القريب، فعادت أجواء الفوضى، وسيطر المتمردون والمشاغبون وقطّاع الطرق على

أجزاء كبيرة من عاصمة الخلافة. توالت الأخبار على دار الخلافة مثيرة فيها الخوف والفزع والاضطراب: اشتباكات بين الجنود الترك والسكان العرب والضحايا بالعشرات، اشتباكات بين محلة ومحلة وبين سكان المحلة الواحدة، هجرة عشرات العوائل إلى خارج بغداد، حيث نصبوا لهم خياما في العراء، اندلاع عراك بين سكان محلات بغداد استُخدمت فيه الأيدي والحجارة والعصي والسكاكين والفؤوس. نجح بعض المشاغبين في قيادة جماعات من أهل السنة المتمركزين في أحياء باب الأزج ، حي السلطان، مشهد أبي حنيفة، الحربية، باب البصرة، للهجوم على السكان الشيعة في الكرخ، المختارة، الخضرية، وحول مرقد موسى الكاظم، وحدث العكس، فقامت جماعات من غوغاء الكرخ بعبور دجلة بالقوارب، ومهاجمة المحلات التي تسكنها أغلبية سنية، ولم تعد الحرائق تفرق بين سنة وشيعة، كما حدثت مواجهات في أحياء أخرى صغيرة منتشرة هنا وهناك. توالت أنباء أخرى: مقتل العديد من الأبرياء وهم في بيوتهم، إحراق عدد من البيوت والمكتبات ومقرات الشرطة والقبض على عدد من أفرادها وتعذيبهم، تخريب عدد من المساجد وديرين للنصارى، اغتيال ثلاثة من أئمة المساجد في الكرخ والرصافة، اختطاف عدد من التجار، والمطالبة بفدية مالية كبيرة لإطلاق سراحهم، سرقة خانات المسافرين ودكاكين سوق الثلاثاء وسوق العطارين، العثور على جثث مشوهة مجهولة. غير أن العمل الأكثر رعونة وخطرا كان قيام بعض الحمقى المتطرفين من كلا الجانبين ليلا بفتح ثغرات تدفقت منها مياه دجلة إلى محلات الكرخ وإلى محلات الضفة الشرقية كالمخرم والرصافة والشماسية، وحاول السكان سد تلك الثغرات غير أن تيار المياه القوي السريع دفعهم بعيدا.

كان الخليفة متعكر المزاج في المساء عندما طلب ابنه أبو العباس المثول بين يديه. أذن له وتلقاه بلا حفاوة. انحنى الابن يقبل يد أبيه باكيا. حين استوى،

تريث لحظات لتستقر انفعالاته. قال معتذرا: «أتمنى أن لا يساورك الشك في إخلاصي لك يا أبتِ، أعترف أنني أخطأت كثيرا بالموافقة على هجوم الدويدار على شيعة الكرخ بدعوى عدم إخلاصهم لأمير المؤمنين، وأيقنت الآن أنه قد تصرف بغباء، وأثبت بعصيانه الآن عدم إيمانه بالإسلام وبإمام المسلمين».

أضاف حين رمقه أبوه بنظرات مطمئنة: «أرجو يا أبت أن تسمح لي هذه الليلة بقيادة مجموعة من المقاتلين بمداهمة الدويدار وأعوانه والقضاء عليهم».

احتضن المستعصم ولده مربّتًا على ظهره: «غدا، سأتخذ القرار المناسب».

* * *

في الصباح التالي، حدثت ضجة في دار الخلافة حين وصل رسول من الدويدار الصغير، حاملا مطالبه لإنهاء العصيان. تلقى الدامغاني من الرسول رسالة مطوية وأخبره أن يعود ظهرا لتسلم الجواب عليها.

استدعى الخليفة الوزير والدويدار الكبير والمحتسب وقاضي القضاة وأمين المكتبات عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد للاستئناس برأيه.

قال الخليفة بعد أن نفث زفيرا طويلا: «ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان الجيش المتمرد كبيرا؟ لا بد أنكم تيقنتم الآن من صواب قراري في تخفيض عدد الجنود من مائة ألف إلى عشرين ألف، ليس رغبة في تقليل الإنفاق، بل خوفًا من حدوث تمرد كهذا. هنالك حكمة أستحضرها في بالي دوما: لا توسعنَّ على جندك فيستغنوا عنك، ولا تضيّق عليهم فيضجروا منك، وأعطهم عطاء قصدًا، وامنعهم منعًا جميلًا، ووسع عليهم في الرجاء،

ولا توسع عليهم في العطاء. وكان جدي أبو جعفر عبد الله المنصور يردد قولا: أجع كلبك يتبعك».

استأذن أمين مكتبات بغداد، ابن أبي الحديد، وقال: « مولاي أمير المؤمنين.. تذكر لنا كتب التاريخ أن جدك المنصور لما قال في جمع من قادته: (أجع كلبك يتبعك) قال له أحد القادة : يا أمير المؤمنين أخاف أن يلوح له غيرك برغيفٍ فيدعك ويتبعه».

كان الخليفة موقنا أن لا أحد في بغداد يمكنه أن يقدم رغيفا غيره. تفرس في وجوه سامعيه. كان واثقا من عدم قناعتهم بأقواله تلك، فالتقارير التي وصلته، نقلت إليه ما يتردد في بغداد من شائعات بأن قراره ذاك كان نتيجة بخله ورغبته في زيادة خزائنه.

أضاف : « يبدو لي أن الدويدار الصغير في وضع مرتبك، فهو لم يظفر بتأييد الأهالي، حتى في المخرم التي اتخذها قاعدة له، ولا يضمن بقاء الجند الأتراك معه لفترة طويلة. بعث بمطالب يعرف هو قبل غيره أنها مرفوضة جملة وتفصيلا. يريد أولا ذكر اسمه مع اسم الخليفة في صلاة الجمعة، إقالة الوزير ابن العلقمي، تهجير أهل الكرخ إلى مدينة الحلة. أريدكم أن تقترحوا حلا مشرفا لهذا العصيان».

وكما توقع الخليفة، اندفع الوزير في تعداد مساوئ الأمير أيبك ولم يبقِ له حسنة واحدة، مؤكدا أن في مقدوره تجنيد أكبر عدد من السكان لمحاربة العاصين. أما المحتسب سبط ابن الجوزي، فاقترح إقامة الحجة على الدويدار الصغير وجماعته بإنهاء العصيان. من جانبه، دعا ابن أبي الحديد إلى تجنب الحرب قدر الإمكان.

قال المستعصم مذكّرا الآخرين: «وإن كان أيبك مذنبا في هذا التمرد الطائش، لكن علينا أن لا ننسى شجاعته ومواقفه في الذود عن حياض المسلمين. ما زال أهل بغداد يذكرون بالحمد خروج أيبك مع إقبال الشرابي قبل عشرين عاما لمقاتلة المغول الذين توغلوا حتى وصلوا داقوقا وسر من رأى. لعل ذلك الموقف البطولي هو الذي جعل في نفسي فسحة للعفو عنه».

أثار الدامغاني، باقتراح قدمه، اهتمام المستعصم وإعجابه وأثبت أنه الرجل المناسب فعلا لشؤون الأمن. قال الدامغاني: «القتال يطيل الخلاف ويعمقه ويعقده، وبعد سقوط دولة الخوارزمي، أصبحت جبهتنا الشرقية مفتوحة أمام المغول، فلا بد من إنهاء الفتنة بأسرع ما يمكن. والحل الذي أراه هو أن نبعث من يقنع الدويدار بالتراجع عن تمرده إذا منحه مولاي العفو».

تساءل الخليفة على الفور: «ومن تراه قادرا على القيام بهذه المهمة؟».

أجاب الدامغاني على الفور: «زوجة الدويدار الصغير، الأميرة شمس الأتابكية».

فكر الخليفة قليلا. هز رأسه موافقا: «فكرة جيدة. اذهب إليها وأخبرها أن أمير المؤمنين اختارها لهذه المهمة».

بدت شمس وكأنها تنتظر مثل هذه المهمة لتريح نفسها من تأنيب ضميرها بسبب وشايتها بزوجها الأمير مجاهد الدين أيبك الشركسي، على الرغم من ضيقها به وتحاملها عليه. ألقت على وجهها خمارا سميكا وخرجت على مطية تقودها خادمة لها. اجتازت حريم دار الخلافة، ومرت على الدكاكين المغلقة في سوق السلطان، ثم سوق الثلاثاء، وسارت في أحد دروب الرصافة، قبل أن تنعطف إلى درب واسع في محلة المخرم قادها بعد ذلك إلى مقر الدويدار.

أوقفت المطية فجأة. خطر في بالها أن الدويدار قد لا يدرك أن حبها لبغداد ورغبتها في إحلال السلام والقضاء على الفتنة هي دوافع تنازلها ومجيئها بنفسها، وربما أثار ذلك الريبة في نفسه. لعل ذلك سيكون سهلا، لكنه قد يوظف تنازلها كي يثأر منها ومن مواقفها السابقة واستفزازاتها، فيعاملها معاملة مشينة. إنها على استعداد لتفعل أي شيء من أجل بغداد، حتى لو تنازلت قليلا عن كبريائها، وتصالحت مع الدويدار، الذي لا يمكن أن يصدق أن شمس أحبته فجأة.

استقبلها استقبالا أثار دهشة القادة الأتراك جميعا. لم تكن تتوقع غير استقبال بسيط وشكوك كثيرة في دواعي قبولها لهذه المهمة.

أبلغته شمس بالعفو الذي يعرضه عليه أمير المؤمنين، ثم قالت بابتسامة رسمتها على شفتيها: «لا يمكنك أن تحقق شيئا من تمردك هذا، لهذا جئتك بحل يحفظ لك مكانتك وهيبتك، ويجنب بغداد مزيدا من الفوضى والاقتتال. لقد بعثني الخليفة المستعصم بالله، وقبلت المهمة، ليس حبا بك، ولكن حرصا على سمعتك التي هي أيضا سمعتي. أظننا متفقين في شيء واحد فقط، حبنا لهذا البلد الطيب الذي نعيش فيه الآن. سأصالحك مقابل إنهاء التمرد في الحال».

كان الدويدار ينتظر حلا مشرفا كهذا، حين يبعث الخليفة عارضا عليه العفو وعودته إلى مناصبه ومكانته، فكيف الآن وشمس بنفسها تحضر إليه وتعده بما حرمته منه مدة طويلة؟

نجحت المهمة، وانتهت بذلك فتنة خلفت وراءها شروخا وخسائر في الأرواح والممتلكات، وكانت تلك الثغرات التي أحدثها الغوغاء عاملًا من عوامل حدوث الفيضان الكبير.

* * *

5

استمر سقوط الأمطار لليوم الخامس على التوالي. تناقل الناس أسماء محلات وبساتين جرفتها مياه الفيضانات. وكالعادة، راح الناس يبالغون في أعداد القتلى والمفقودين، حتى وصل الرقم إلى خمسة آلاف، من ضمنهم عدد كبير من الأطفال والنساء والعجزة.

وضع مؤيد الدين بن العلقمي رأسه بين كفيه مسندا مرفقيه على ركبتيه، مصغيا لنقرات قطرات المطر على زجاج النافذة المطلة على النهر، وخرير مياه المزاريب. محاولة اغتيال الخليفة المستعصم بالله زعزعت الشعور بالأمان والسلام، وأمسى الجميع أهدافا للقتل.

حين رفع رأسه، بوغت بأحدهم يقف أمامه باستقامة واستعداد. كان رجلا في أوائل الثلاثينيات من عمره، مفتول العضلات، جميل المحيا، يدل زيه على أنه من ضباط الجيش.

تساءل بإلحاح: «من أنت؟ كيف دخلت هنا؟ ماذا تريد؟».

أجاب الشاب هادئا: «طلب مولاي إرسال ضابط عربي يتمتع بخبرة قتالية».

ارتسمت على وجه الوزير ابتسامة ارتياح واعتذار: « تذكرت. أنت إذن الضابط المرشح أن يكون مرافقا لي؟».

هزّ الضابط رأسه بالإيجاب. تفحصه الوزير بنظراته طويلا. جال في ظنه أن يكون هذا الضابط صنيعة الدويدار الصغير ليقتل الوزير لا ليحميه. أمره أن يعرِّف نفسه بالتفصيل.

قال الرجل: « مولاي الوزير المعظم.. اسمي عبد القهار بن ناصر الدين حسين بن منصور، كنيتي أبو الفوارس، ولقبي الكندي».

ضحك الوزير عاليا: «ماذا؟ أبو الفوارس؟ هل توقع أبوك أن تكون مقاتلا في جيش الخليفة؟».

ذكر الضابط في جوابه أن الله وحده يعلم لماذا أطلق أبوه عليه هذه الكنية الدخيلة على عائلتهم المسالمة الوديعة، ولعل أباه أراد أن يخفف من سوء الطالع الذي صادف ولادة ابنه التي حدثت عام ٦١٦ للهجرة، وهو عام عظمت فيه نكاية الإفرنج بأهل مدينة دمياط عند حصارهم لها. ولعل أكبر مصيبة صادفت عام ولادته، كانت كما قال «ظهور المغول كقوة مدمرة بقيادة الشيطان الأكبر جنكيز خان لعنه الله وأحرق مرمسه».

أما عن لقبه، فكيف له أن ينساه، ولطالما سرد والده ما تناقله عن آبائه من أسماء أجداد من شجرة العائلة التي جذّرها السماع ومدّ أغصانها الخيال، حتى انتهت بعيدا عند الملك الضليل وذي القروح وآكل المرار، جندب بن حجر بن الحارث الكندي، المعروف بامرئ القيس، الوحيد الذي صدَّق عبد القهار وجوده على الشجرة، بسبب ما ورثته العائلة من هوى بحسان النساء وتعدد الزوجات وتعلق بالشعر والأدب ومعاقرة المدامة وحب اللهو والترف، وأحيانا الضلالة، وماض أسطوري ما زالت تردده أمه في ساعات الضجر والخيبة.

سأله الوزير عن مسقط رأسه، وما يعرفه من معلومات عن المكان. أجاب أنه ولد في محلة باب الشماسية المجاورة لمحلة مرقد الإمام أبي حنيفة النعمان، في الجانب الشرقي من بغداد. قال عنها إنها المكان الذي تفرغ فيه الرشيد لمجالس الطرب وحفلات الغناء، وبنى البرامكة قصورهم على أنقاض بيوت الفقراء. ذكر أيضا أنها كانت الخط الأول لجبهة القتال بين الأتراك والخليفة المستعين بالله الذي هرب من سر من رأى لائذا بأهل بغداد من تسلط الأتراك وجبروتهم. وذكر أن في الشماسية أجمة قصب يحيطها ماء آجن، قيل هي المكان الذي قُتل فيه المقتدر بالله قتلة شنيعة على يد واحد من جنود أمير الأمراء مؤنس، وتركت جثته عارية، فتبرع الناس بدفنها. أضاف متنهدا: «ربما تذكر المقتدر قبل أن يلفظ أنفاسه منظر الحلاج الذي أمر بصلبه».

أثار الضابط إعجاب الوزير بما يمتلكه من معرفة وشخصية وقوة ملاحظة.

نهض الوزير من مكانه، وقف قبالة الضابط، سأله إن كانت له مشاركة في حرب أو عملية قتالية.

رد عبد القهار قائلا: « نعم سيدي. قبل اثني عشر عاما، في منتصف عام ستمائة وثلاثة وأربعين، وكنت حينها في مقتبل الشباب، توليت منصب آمر سرية من سرايا الجيش. كنت والرجال الذين كانوا بإمرتي من ضمن المحظوظين بعدم التسريح، بعد أن تقلصت موارد الدولة وازدادت النفقات، لكننا كنا ضمن مجموعة من الجنود العرب وسط أعداد كبيرة من الأتراك الموالين لقائد الجيش. كنت حينها في مقر قائد الجيش شرف الدين إقبال الشرابي، سلف الدويدار الصغير الشركسي، نناقش خططا لم نتفق عليها للدفاع عن بغداد بعد ورود أخبار مؤكدة عن تقدم جيش من

جيوش المغول بقيادة جكتاي الصغير نحو بغداد، فحضرت أنت يا سيدي الوزير، مبديا خطة فيها خدعة للعدو، تتضمن توزيع الجنود داخل خيام خارج السور، بعد إيصال أخبار إلى العدو بأن جيش بغداد ضعيف منهك، وأن الخيام المضروبة خالية يراد منها إيهام المغول بكثرة المقاتلين. كتب للخطة نجاح كبير، فحين اقترب العدو من سور بغداد في ذلك الخريف، وكان في عجالة من أمره لانتهاز الفرصة الموهومة، فوجئ بخروج الجنود من الخيام ووقوفهم بأعداد كبيرة في صفوف مرتبة بانتظام، بأسلحة جيدة وعلى خيول لم يدركها التعب، فيما وقف صف طويل من رماة السهام على السور، فأدرك المغول انطلاء الخدعة عليهم، فشنوا حملة يائسة لبث الرعب في نفوس جنودنا، لكننا ثبتنا لهم ورشقناهم بالسهام، وأنزل الله السكينة على عسكرنا، وأنزل بعد السكينة نصره، وما إن عسعس الليل حتى أوقد المغول نيرانا عظيمة وأوهمونا أنهم مقيمون عندها، لكننا اكتشفنا في الصباح أنهم قد رجعوا إلى بلادهم خائبين».

علق الوزير: «خدعة بخدعة».

ضحك الاثنان. وضع الوزير يده على كتف عبد القهار وهزها برفق، ففهم عبد القهار أن الوزير منحه تقديره وثقته.

ركب الاثنان فرسيهما وانطلقا لتفقُّد ما ألحقه الفيضان من أضرار.

* * *

تسببت الأمطار الغزيرة في ارتفاع منسوب المياه في نهر دجلة، فتدفقت المياه وغطت المناطق المحاذية للنهر، وتوغلت داخل محلات بغداد، مثيرةً هلع السكان الذين راحوا يصرخون طالبين النجدة. كان الصبيان والنساء

يتراكضون حاملين ما استطاعوا حمله من متاع. لم يعيروا اهتماما بالوزير الذي شق مع مرافقه طريقهما وسط الأوحال.

رأى الوزير، عن بعد، لصا يحاول انتزاع صرة من امرأة عجوز والفرار بها. انطلقا نحوه وحاصراه، فارتبك اللص وارتطم بعمود حجري شج رأسه.

قال الوزير متوعدا: «لولا هذا الظرف الحرج، لقدتك بنفسي إلى السجن، يكفيني أن أرى غضب الله قد حل عليك».

ابتعد اللص على عجل مخافة أن يغير السيد الفارس رأيه. قالت العجوز وهي تستعيد صرتها متبرمة: « لو كان العدل سائدا لما تجرأ أحد على السلب والنهب. هل تعرف أيها السيد أحدا في هذه البلاد لم يلحق به ظلم ؟ ما فائدة الشكوى؟! مهما طغت دجلة فهي أرحم بنا من طغيان القائمين بأمور المسلمين.. لولا الظلم والطغيان، لكنت الآن سعيدة في مزرعتي.. لعن الله عمال الخراج. سلبنا أعوان عامل الخراج كل ما نملك، وأخيرا راحوا يعذبون زوجي حتى مات بين أيديهم.. لم يكتفوا بذلك، بل صادروا الأرض بحجة تسديد ديون قديمة».

سألها الوزير: « لماذا لم ترفعي شكواك إلى أمير المؤمنين؟».

تطلعت إليه بدهشة واستغراب: « ومن ذا الذي يستطيع الوصول إليه؟ وحتى لو فعلت، فلن تكون هناك فائدة؛ لأنني لم أسمع في هذا الزمان أن مشتكيا استرد حقه».

لم يحر الوزير جوابا، فجر عنان فرسه. ما إن ابتعد قليلا حتى نادته العجوز: « هل أنت من أعوان الخليفة؟».

التفت اليها الوزير مجيبا: « نعم .. هل لديك ما تودين إبلاغه به؟».

ردت بجرأة وتحد: « الرعية أمانة في عنقه، فهل يعرف ما حل بهم؟ بلِّغ سيدك أن من يقصر في حماية رعيته لن تنجيه القصور الحصينة من غضب الله».

تفقد ابن العلقمي مواقع كثيرة في المخرم والرصافة وفي الكرخ، واستغرقت تلك الجولة عدة ساعات ، ولم يتناول طعاما سوى رغيف تقاسمه مع مرافقه.

عاد المطر يتساقط من جديد. احتمى الوزير ومرافقه بسقيفة في سوق المدينة المغلق. تساءل عبد القهار: «ماذا سنفعل الآن يا سيدي؟».

«لا بد أن أطلع أمير المؤمنين على ما حدث».

«مولاي.. ما الذي يمكن أن يفعله مولانا الإمام المستعصم بالله لدرء خطر الفيضان عن بغداد؟».

«إنه أمير المؤمنين.. كلمة واحدة منه تستنهض همة كل الرعية فيتطوع الجميع لمواجهة الخطر».

تساءل عبد القهار متلعثما:« وهل مولانا...؟».

نظر إليه ابن العلقمي مشجعا: « ماذا؟ أفصح عما تريد السؤال عنه».

«هل مولانا الخليفة متفرغ لهذا وهو كما يقال عنه حِلْس أو حبيس قصوره التريفة وجناته الوريفة؟».

علق الوزير بنبرة قاطعة: « لسنا في موقع من يحق له محاسبة أمير المؤمنين».

«أقصد يا مولاي ألا تؤثر هواية أمير المؤمنين في سماع المغنين على واجباته كقائد لهذه الأمة؟».

أجاب الوزير بتباه ظاهر: « عبد القهار.. لقد ترك أمير المؤمنين إدارة البلاد بعهدة رجال اختارهم لتلك المهمات».

أضاف مستدركا: «لكن هؤلاء الرجال ليسوا على شاكلة واحدة، فيهم الطيب وفيهم الخبيث».

سأل المرافق بعد تردد: « ولكن يا سيدي لو حل دمار كبير، لا سمح الله، فالناس يتحدثون عن موقف الخليفة ورد فعله لا عن تقصير من حوله».

«هذا صحيح لذلك يتحمل الخليفة مسؤولية اختيار رجاله».

«ومن يحاسب الخليفة على مسؤوليته؟».

رد الوزير واثقا: «الله والتاريخ».

تلفت الوزير، لكن المطر كان يشتد أكثر. قال: «يهمني أن تطلع على هذه الأمور لكي تفهم ما يدور حولك باعتبارك مرافق الوزير».

تلك الملاحظة شجعت عبد القهار على طرح سؤال آخر: « لكن، ما دور علماء الدين؟».

«تقديم النصح والتذكير بكتاب الله وسنة رسوله».

«وما دور الوزراء أمام قرارات الخليفة؟».

«تقديم المشورة إذا طُلبت منهم».

«والناس يا مولاي؟».

«عليهم الطاعة».

تنحنح المرافق متسائلا: «ليسمح لي سيدي الوزير بإبداء ملاحظة».

هز الوزير رأسه بالإيجاب. قال عبد القهار: «مولاي الوزير، لم يكن الأمر كذلك في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. ألم يخطب أبو بكر في الناس عند توليه الخلافة قائلا: «أيها الناس، إني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عند القوي حتى آخذ الحق منه»؟ ألم يطلب الخليفة الفاروق من الرعية، مع ما عُرف عنه من عدل وقسط، أن يُقَوِّموه إن وجدوا اعوجاجا فيه؟».

هز الوزير رأسه موافقا: «كان أمرهم شورى بينهم. كانت وظيفتهم الحكم بين الناس بالعدل، وليس حكم الناس والتحكم فيهم».

«وخلفاء بني العباس؟».

أجاب الوزير متنهدا: «إنهم مثل خلفاء بني أمية .. يعتقدون أنهم خلفاء الله على أرضه. أضحى اسم الخليفة منذ أيام عبد الملك بن مروان (خليفة الله)، وهذا يعني أن ما يفعله الخليفة وما يأمر به، إنما هو من أمر الله وقدره، فلا يُسأل. ومن أجل ذلك حاربوا من يقول بأن الإنسان يخلق أفعاله بقدرته وأنه يُسأل عنها؛ لأنهم إنما يفعلون ما يصدر عنهم بأمر من الله، فلا يُسألون عما يفعلون. أما بنو العباس فقد ظلوا يرددون مقولة أبي جعفر المنصور في خطبة بيعته: «إنما أنا سلطان الله في أرضه، وظل الله الممدود بينه وبين خلقه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده».

خف المطر، فواصلا طريقهما بموازاة سور حريم دار الخلافة، ثم دخلا من باب السلطان، وبعد أن اقتربا من «باب النوبي»، المدخل لدار الخلافة

التي لم يسبق لعبد القهار أن وطئتها قدمه، اتجهت نحوهما شابة جميلة راكبةً حمارا صغيرا. كانت مبللة الرأس وذات ملابس تدل على مكانتها كواحدة من أميرات القصر. سألت متشبثة بعنان فرس الوزير: « كنت أبحث عنك أيها الوزير؛ لأنك الوحيد القادر على مساعدتي».

تبادل الوزير مع مرافقه نظرات ضاجَّة بالدهشة والحيرة، فأسرعت الشابة مبدِّدة تلك الحيرة: «أنا الأميرة أمل بنت الأمير محمد بن أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله، المعروف بالخفاجي، عم الخليفة».

قاطعها الوزير: «بنت كريمة لأمير كريم! طوع أمرك يا أميرتي».

قالت أمل غاصَّةً بالعبرات: « ربما تعلم أو لا أن أبي وعمي أبا القاسم أحمد مسجونان في أخفض زنزانة في أحد سراديب سجن قصر الشجرة. أتوسل إليك أن تسرع إلى إنقاذهما من الموت غرقا ما داما مكبَّلَين بالحديد».

وعدها أن يفعل ذلك حال خروجه من عند أمير المؤمنين. ظلت عينا عبد القهار معلقة بالأميرة الشابة الجميلة. ودّ القيام بتلك المهمة تقربا إليها، لكن الوزير باغته متسائلا: «ألا تذهب لتفقد دارك؟».

رد عبد القهار: «بيتنا يا مولاي على هضبة ربما كانت أطلال قصر شاهق. ولكن ماذا عن دارك يا مولاي؟».

فكر الوزير قليلا: « اذهب إلى هناك وانقل لهم طلبي بالانتقال إلى دار الدويدار الكبير فهي على مرتفَع لا تبلغه مياه الفيضان».

انطلق المرافق بفرسه مثيرا نافورات من برك لونت الأرض بلون الغرين، أما الوزير فترجَّل من فرسه، وفوجئ عند باب النوبي بمشهد لم يخطر في باله. كانت قصور دار الخلافة محاطة ببحيرة واسعة. قال أحد الحراس ضاحكا: «مولاي الوزير، لا طريق إلى قصر الخليفة إلا بقارب أو سباحة».

لكنه حين رأى وجه الوزير متجهما، أحنى رأسه خجلا. صاح به الوزير: «أحضر قاربا أيها البليد».

صعد الوزير القارب وبمعيته ثلاثة من الحراس. أمر الحارس الذي تولى قيادة القارب أن يتجه بهم إلى قصر «دار الشجرة». وصل ارتفاع مياه الفيضان هناك إلى ذراع ونصف الذراع. عند مدخل الدار، تناهت إلى سمع الوزير أصوات استغاثة. قفز من القارب وخاض في الماء متوغلا في الباحة الغارقة وتبعه الجنود، واستطاع تتبع الأصوات حتى وصل غرفة واجهتها من القضبان الحديدية المتقاطعة. كان الباب مقفلا، لكن الحارس وقبل هروبه دفعته الرأفة أن يترك المفاتيح معلقة قرب الباب عسى أن يأتي غيره فيساعد المسجونين. كان الخفاجي وأخوه واثنان من أتباعه في آخر رمق من الحياة. كان السجناء في ثياب، أو بقية ثياب، رثة خَلَق.

بعد أن صعد في القارب، جلس الخفاجي هادئا متطلعا إلى المياه التي غطت المكان. تساءل من دون أن ينظر ناحية الوزير: «إلى أين تأخذوننا الآن؟».

رد الوزير ابن العلقمي: « إلى مكان آمن».

قهقه الخفاجي ساخرا: « وهل هناك مكان آمن في بغداد؟».

تساقط رذاذ خفيف. أثار هدوء الخفاجي فضول ابن العلقمي فسأله: « لا بد أنك فكرت في الموت غرقا وأنت مقيد بالأغلال وفي مكان مغلق، أليس كذلك؟».

أجاب بصوت مبحوح: « أيها الوزير، المرء ميت وهو في الأحياء».

قال الوزير: « ما يثير استغرابي أنك، وعلى الرغم من مرارة السجن وعذابه بعد نعيم العيش في كنف أخيك الراحل المستنصر بالله، ومفارقة الأحبة وأهلك، ما زلت صامدا قوي القلب، رابط الجأش».

رد الخفاجي غامسا يده في الماء: « أتذكر على الدوام حكاية كان يرددها أبي الظاهر، رحمه الله، وملخصها أن كسرى ملك الفرس غضب يوما، والملوك يلجئون دائما إلى الغضب عندما تخونهم الحيلة، على حكيم بلاطه فأودعه السجن، مثلما فعل خليفتكم بنا من دون أن نعرف لذلك سببا. وذات يوم أراد رئيس الشرطة معرفة أحوال السجين كي يسرع بالخبر إلى سيده كسرى، مثلك تماما يا ابن العلقمي، فدخل على الحكيم ووجده عكس ما ظنه، فرآه هادئا ثابتا، فأدرك الحكيم ما جال في خاطر السجّان، فقال باسما: « سينقضي عجبك هذا لو عرفت أن سبب طمأنينتي هو أن عندي دواء مركب من ستة عناصر ، صنعته بيدي وأنا لا أفتر عن تناوله».

فسأله رئيس الشرطة: «وما هو ذلك الدواء العجيب؟» .

أجاب الحكيم : «بالتوكل على الله القادر ، والاعتقاد بقدرته والتسليم بقضائه ، والتحلي بالصبر والاستقامة ، والاعتقاد بأن الجزع والضجر لن يوصلا إلى نتيجة، فعوّدت نفسي على تحمّل المصائب والمشاق ، والإيمان بوجود من هو أسوأ مني حالًا، فشكرت الله على ذلك، ثم يقيني بأن التفاؤل يجلب الفرج».

استدار ابن العلقمي إلى رجل أسود، فسأله عن اسمه، فبادر الخفاجي معرِّفا به: «أيا كان غرضك من السؤال، استصغارا أو تجاهلا، وربما تكون قد سمعت عنه ولم تره، فإني أعرفك به.. إنه أخي أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر، وعم سيدك المستعصم. يسمونه العباسي الأسود، فأمه كانت حبشية».

ضحك الخفاجي مُرَبِّتًا على كتف أخيه: « اثنان من بني العباس حصلا على لقب«العباسي الأسود» إبراهيم المهدي، عم المأمون، والمعروف بالغناء، وأخي هذا المعروف بالشجاعة».

سأل الوزير أبا القاسم: «وأنت، كيف عوّدت نفسك على تحمل هذه الظروف القاسية؟».

رد أبو القاسم: « بالصبر. صدق علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حين قال : الصبر مطية لا تكبو».

لم يعلق الوزير بشيء، لكنه كان متيقنا لو أن معجزة جعلت الخفاجي خليفة، فسيكون أول قرار له هو تقطيع الوزير إربا إربا؛ لأنه لم ينس أن ابن العلقمي كان من المؤيدين لتنصيب عبد الله خليفة بدلا عنه.

أودع السجناء في غرفة عالية في ديوان الزمام وأقفلها عليهم تاركا أحد الجنود على حراستها والقيام بنقل السجناء إلى الحلبة إذا ما ارتفعت مياه الفيضان.

اتجه ابن العلقمي بالقارب إلى دار الصخر حيث تم بإشرافه نقل أمتعة أولاد الخليفة، ونقل أيضا عوائل الأمراء العباسيين القاطنين في قصر الفردوس.

كان عليه أن يقدم تقريرا للخليفة عن الأوضاع، فاتجه للدار الشاطئية بعد أن امتلأت دار الخليفة بالماء. استغرب حين أعلمه أحد الحراس بأن الخليفة موجود في القاعة الكبرى. كان الوقت عصرا، وليس هناك من وفد كي يستقبله الخليفة، ولم يبلغ باجتماع يحضره أمير المؤمنين. الحفلات لا تقام في القصر إلا ليلا. قريبا من باب القصر، نزل الوزير من القارب واتجه نحو القاعة الكبرى مدفوعا بالهواجس ومتوقعا المفاجأة.

* * *

6

كانت القاعة مدهشة بما حوته جدرانها من ستائر الديباج المذهبة المطرزة بالصور الملونة لفيلة وخيول وجمال وسباع، أو مناظر طبيعية لجبال وغابات وسهول وأنهار، وبما فُرش على أرضيتها من سجاد كاشان وخراسان، وبُسط حريرية واسطية وموصلية ونيسابورية وأرمينية مليئة بنقوش وزخارف رائعة، وبما وضع على جانبيها من أرائك مفروشة بالحرير. كان الخليفة جالسا تحت مظلة تقي عينيه الضوء، يمسد ريش ظهر حمامة من حمام الزاجل احتضنها بذراعه اليسرى على صدره، مصغيا بكل جوارحه لصوت الجارية المولدة «عرفة» المغرد بأشعار لجرير. كانت تجلس قبالته، محتضنة عودا تعزف عليه، ومحاطة بعدد من الطنبوريات والدفّافات قعدن على الأرض متمايلات مع اللحن والصوت الشجي. كان المستعصم بالله يحرك رأسه طربا. صاح منتشيا: «زيديني طربا يا عرفة، لكن لا تجعليني أرغب في الطيران كيزيد بن عبد الملك حين كانت تغني له حبابة».

ردت عرفة بدلال وميوعة: « أتمنى يا مولاي أن لا ترميني بحبة عنب فأختنق بها مثل حبابة».

قال الخليفة مقهقهًا: « لو حدث هذا، لا سمح الله، لمت من يومي».

فتح صرة من الدنانير الذهبية ورماها عليها، فتعالى رنين قطع الذهب المتساقطة. قال المستعصم: «لا أحد يموت اختناقا من دنانير الذهب».

صاح منتشيا: «غني يا عرفة، ترنمي بالشعر..

تغنّيْ فإن اليومَ يومٌ من الصّبا ببعضِ الذي غنّى امرؤُ القيسِ أو عمرُو

فظلتْ تغنّي بالغبيطِ وميلِهِ وترفعُ صوتًا في أواخرِهِ كسرُ

ردت عرفة:

تغنّ بالشعرِ إمّا كنتَ قائلَهُ إن الغناءَ لهذا الشعرِ مضمارُ

بدأت عرفة بالغناء..

انقطعت الموسيقى، وسكتت المغنية حين اقتحم الوزير المجلس بملابسه المبللة، منحنيا أمام سيده. أخبره بهلع واقتضاب أن كارثة قد حلت.

نهض الخليفة من كرسيه الوثير فزعا: « ماذا؟ هل سقطت مدن إسلامية جديدة بأيدي المغول؟».

ردّ ابن العلقمي بنبرة حزينة: « لا يا مولاي، بل بغداد، عاصمة الدنيا، تغرق الآن. اكتسحت مياه دجلة، بعنف وقوة، أكثر محلات بغداد في جانبيها الشرقي والغربي، في الرصافة ومحلة الإمام أبي حنيفة ومحلة سوق يحيى والشماسية والمخرم والظفرية وباب الأزج والكرخ ومحلة قصر عيسى ومحلة الشارع والقُرية، متوغلة في الأزقة والساحات والمنازل، وأغرقت الأسواق، وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ والآبار والبلاليع».

عقد الحرج لسان الخليفة، فها هو وزيره قد فاجأه على تلك الحال، بينما يغرق أهل بغداد وتتهدم دورهم.

تطلع إلى من حوله من خدم ومغنيات، وإلى عرفة التي جمدت في مكانها تنتظر ردة فعله. صفق بيديه فانسحبت عرفة وتبعتها الراقصة والعازفات.

تنهد الخليفة مستردا رباطة جأشه. جلس في مكانه، متصنعا ابتسامة ظلت باهتة: « إنها ليست المرة الأولى التي يحدث فيها فيضان دجلة، أليس كذلك؟».

ردّ الوزير: « عفوا يا مولاي، الوضع أسوأ مما تتصورون. غرقت المزارع المحيطة ببغداد. بيوت الطين تتساقط الآن على رؤوس ساكنيها في الجانب الغربي. الفيضان يجتاح المشهد الكاظمي. المياه تملأ أروقة المارستان العضدي. تغرق سوق السلطان وسوق الثلاثاء. يصل علوها في المدرسة النظامية أربع أذرع. تحاصر المدرسة المستنصرية.. تداعت حيطان جامع فخر الدين بن المطلب. وسقطت مسناة مسجد قمرية.. هل تتصور يا مولاي أن السفن تجري الآن في أزقة بغداد؟ وفوق هذا، هنالك توقعات مخيبة باستمرار هطول الأمطار الغزيرة يومين أو ثلاثة».

تساءل الخليفة متضايقا: «ما الذي يتوجب عليّ فعله؟ هل تظنني ساحرا يصنع المعجزات بعصاه؟ أخرج للناس الخائضين في أوحال الفيضان، والمغمورة بيوتهم بالمياه، لأقول لهم خذوا حذركم من الفيضان؟».

«لو أن مولانا يخرج للناس فيثير حضوره حماسهم فيشاركون جميعا في مساعدة الجنود على درء خطر الفيضان، وتعرف يا أمير المؤمنين أن المرء لا يفكر إلا بنفسه في الشدائد والمحن، وعلينا تنبيه الأهالي أن من مصلحة الجميع التعاون لمواجهة الخطر».

فرك الخليفة جبينه. تنهد قائلا: « لا تظنني غير مبالٍ بما يجري.. إن هذه الأخبار تؤلمني جدا.. وإذا ما رأيت الجواري يغنين لي، فلا تحسب ذلك بطرا مني في هذا الظرف الصعب. إنني حقا أُمضي وقتا لا بأس به في سماع الموسيقى والأغاني، لكن لا ولعا بها، بل لأنها الدواء الوحيد الذي يخفف آلام صداع

رأسي المزمنة. سماع الغناء والعزف سلواي الوحيدة حين يعصرني الصداع، ويشتد بي القلق من المجهول».

أضاف مستدركا: «لكن وعلى الرغم مما شهدته قبل قليل من رؤية «عرفة» والعازفات، فذلك حفل متواضع إذا ما قيس بما كان يفعله الأولون. الحمد لله أنني لست معروفا بالتبذير والإسراف، ولم أفعل ما فعله جدي هارون الرشيد حين وهب إبراهيم الموصلي مائة ألف درهم نظير أغنية واحدة».

أدرك أنه لم يكن مقنعا وبدا وكأنه مذنب يدافع عن نفسه. قال واثقا: «لا تظن أيها الوزير أنني أنا أمير المؤمنين، أرتكب معصية بسماع الأغاني».

رد الوزير على الفور: «لا يا مولاي، لم أظن ذلك».

لم يأبه الخليفة باعتراض وزيره، بل استأنف حديثه: «أنا ممن لا يرى في سماع الغناء والموسيقى حراما ومعصية. يُروى أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأسًا، ويصوغ الألحان لجواريه، ويسمعها منهن على أوتاره. ويروى مثل ذلك أيضًا عن القاضي شريح، وسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، والشعبي. ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن الزبير كان له جوارٍ عوَّادات، وأن ابن عمر دخل عليه وإلى جنبه عود ، فقال : ما هذا يا صاحب رسول الله؟ فناوله إياه، فتأمله ابن عمر فقال : هذا ميزان شامي؟ قال ابن الزبير: تُوزَن به العقول. وروى بعضهم أن عبد الله بن عمر دخل على ابن جعفر فوجد عنده جارية في حجرها عود، فقال لابن عمر: هل ترى بذلك بأسًا ؟ قال : لا بأس بهذا. وروى أبو الفرج الأصبهاني أن حسان بن ثابت سمع من عزة الميلاء الغناء بالمزهر بأبيات من شعره.. هل تريد المزيد؟».

قال الوزير معتذرا: «مولاي، لا أحد يدانيك في القراءة والاطلاع».

عصر المستعصم رأسه بكفيه متأوها من الألم. داهمته نوبة صداع الشقيقة. صرخ الوزير بالحراس أن يستدعوا الطبيب أبا إسحاق. دخل الطبيب من الباب الصغير المتصل بمقر الخليفة، حاملا صندوقا صغيرا وضع فيه كل عدته من أدوية وآلات جراحية.

جسَّ الطبيب نبض الخليفة ثم حدق في عينيه: « حفظ الله أمير المؤمنين.. بماذا تشعر الآن يا مولاي؟».

رد الخليفة مغمضا عينيه من الألم: « يعصرني ألم حاد أحس معه كأن مثقبا محميا يخترق الرأس، فأكتم صرخة التوجع عاضًّا على شفتي.. تبدأ نوبة الألم من جانب، ثم تنتقل إلى جانب آخر، وبعد لحظات تعصر رأسي كله.. وعيناي فيهما زغللة أحس معها كأنني أهبط في وادٍ عميق ضيق مترنحًا، فيرتطم رأسي على جانبيه.. أرى خطوطا ملونة تجيء وتبتعد، تتعامد وتتقاطع بسرعة، فيصعب عليَّ متابعتها، تخترق عيني حزمة من أضواء حادة متموجة، وأرى نقاطا متوهجة تنطلق كالشهب والنيازك. أشعر الآن بوهن وتنمل في كلتا يديّ وحول فمي وبرودة تلف أطرافي».

قال الطبيب مطمئنا: «ليس هناك من خطر يا مولاي، إنها أعراض الشقيقة حين تشتد.. هل لك يا مولاي أن تعطيني منديلك؟».

تناول الطبيب المنديل وعصب به رأس المستعصم. تساءل الوزير مدهوشا: «والعلاج؟».

أجاب الطبيب ذو البشرة البيضاء والأصابع الناعمة: « ليس هناك غير الحجامة».

رد الخليفة بحزم: «الحجامة لا تنفع معي فقد جربتها من قبل».

قال الطبيب: « ليس في الحجامة ضرر يا أمير المؤمنين، فقد نُقل عن نبيكم الأكرم أنه قال : (إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ لَذْعَةٍ مِنْ نَارٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ)».

صاح الخليفة: « وأنا أيضا لا أحب أن أكتوي .. لا أريد الحجامة».

تبادل الطبيب نظرات الحيرة مع الوزير، فسأله المستعصم: «أبا إسحاق، هل هذا كل ما خطر في بالك؟».

فكر الطبيب قليلا، قال: «لم يبقَ يا مولاي سوى استعمال السمك الرعّاد، فإن وافقت فلا بأس من استعماله».

قهقه الخليفة ساخرا: « هل تنصحني بأكل هذا النوع من السمك مقليا أم مشويا؟».

رد أبو إسحاق بجدية بالغة: «لا يا أمير المؤمنين. هذا النوع من السمك يولّد قوة كبيرة تشبه قوة البرق، وأول من استخدمها الشيخ الرئيس ابن سينا، رحمه الله. وتتلخص طريقة العلاج بوضع السمك الرعّاد في الماء حيا، ويوصل به سلكان من الصلب يقبض عليهما المريض بيديه، فيشعر بارتعاش شديد لا يقوى معه على إمساك السلكين سوى بضع دقائق ثم يلقيهما، وبعد أيام قلائل يشفى المريض وتزول جميع آلامه. توصف هذه الطريقة لمعالجة الأمراض العصبية، وبما أن معلوماتي تؤكد أن ثمة علاقة بين الشقيقة وهذه الأمراض، أقترحها على مولاي، فلعها تنجح».

نفض الخليفة يده بالرفض مقهقهًا: « يقال معارضة الطبيب توجب التعذيب، ومع ذلك لا أحبذ هذه الطريقة».

تساءل الوزير أخيرا: «ما الذي يمكنني فعله الآن لمولاي أمير المؤمنين؟».

أجاب المستعصم مسندا جبهته على كفيه: « ما الذي يمكنك فعله؟ خير ما يمكنك فعله الآن أن تحضر عرفة والعازفات».

* * *

7

مرت ستة أشهر عانى الناس فيها من آثار محنة الفيضان وفتنة التمرد، وأسعار المواد الغذائية ظلت مرتفعة، فنصف أرض العراق لم يُزرع، وليس هناك من يتدارك الأمر. ظل الناس يتحدثون في بغداد عن الوزير والدويدار الصغير، منشقين إلى فريقين، فريق يتحزب لابن العلقمي والفريق الآخر يتحزب للدويدار، وكثيرا ما اندلع في الأسواق شجار بين مؤيد ومعارض. كانت بغداد هادئة طوال تلك المدة حتى ذلك اليوم الذي وصل فيه وفد من القائد المغولي هولاكوخان.

خرج أهل بغداد بدافع الفضول إلى الطرق التي سار فيها الوفد، يتطلعون إلى تلك السحنات الغريبة التي سبقتها أخبار الدمار والقتل والاغتصاب والنهب والسلب. أثارت ملامح القوم دهشة الناس، فقد كانوا عراض الوجوه، صغار العيون، واسعي الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، قصيري الأنف ، سريعي الحركة. كثير من الناس اعتراهم الاضطراب والهلع، عندما استمعوا إلى الشيخ ابن النيار الذي صعد على دكة على رصيف الدرب، قائلا بصوت عالٍ: « أيها الناس، اقتربت الساعة. انظروا إلى هؤلاء المغول وتذكروا حديث رسول الله ﷺ عندما قال: (لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتلوا قومًا نعالُهُمْ الشَّعْرُ ، وحتى تُقاتلوا الترك، صغارَ

الأعين، حمرَ الوجوهِ، ذُلْفَ الأنوفِ، كأنَّ وجوهَهُمْ المجانُ المُطْرقةُ، وتجدونَ خيرَ الناسِ أشدَّهمْ كراهيةً لهذا الأمرِ حتى يقعَ فيهِ، والناسُ معادنُ، خيارُهم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلامِ، وليأتينَّ على أحدِكم زمانٌ لأنْ يراني أحبُّ إليهِ منْ أنْ يكونَ له مثلُ أهلِهِ ومالِهِ) صدق الرسول الكريم، فوجوه هؤلاء أشبه بالتُّرْسِ لبسطها وتدويرها وبالمطرقة لغلظها وكثرة لحمها، وهم ذلف الأنوف وينتعلون الشعر.

شيع الناس الوفد حتى باب النوبي. انتشرت في بغداد شائعات متضاربة، فهناك من قال إن الوفد جاء للحصول على مباركة الخليفة، بعد أن اعتنق هولاكو الإسلام، وزاد بعضهم أن هولاكو يطلب الإذن من أمير المؤمنين للمرور في أرض العراق لأداء مناسك العمرة، بينما ذكر البعض الآخر أن المغول يريدون فرض الجزية على المسلمين، وربما كان الوفد يحمل تهديدا للخليفة بتسليم نفسه. لكن الحقيقة أن الوفد اجتمع مع الخليفة وراء أبواب مغلقة قبل أن يغادر إلى دار الضيافة في دار الخلافة.

منذ ذلك الحين ظلت صورة وجوه المغول تقضّ مضاجع الناس.

* * *

قال عبد القهار: «مولاي الوزير، في الباب رسول من أمير المؤمنين يطلب حضورك إلى دار الخلافة لأمر عاجل».

ارتدى الوزير قفطانا أسود، وتحزم بسيفه الدمشقي، ووضع على رأسه عمامته السوداء، وطوّح في الهواء عباءته قبل أن يثبتها على كتفيه. أومأ إلى مرافقه أن يتبعه، غير أن عبد القهار بقي في مكانه، فلم يسبق له أن رافق سيده إلى دار الخليفة التي لا يدخلها إلا علية القوم. أدرك الوزير موقفه فقال باسما: «أنت الآن ضابط كبير ومرافق للوزير، هيا».

لم تكن حريم دار الخلافة، التي تشكل ثلث مساحة الجانب الشرقي من بغداد، تبعد كثيرا عن دار الوزير، فمشيا راجلين بمحاذاة السور الذي يحيطها مبتدئا من دجلة ومنتهيا إليها على هيئة هلال أو نصف دائرة. كان ابن العلقمي يسير بخطوات سريعة، رافعا يده اليمنى رادًّا بها تحية الناس الذين كانوا يلوحون له بأيديهم في المحال والأسواق التي اجتازاها، بينما كانت يده اليسرى مسندة على مقبض سيفه. لم تخف ابتسامة المجاملة ما على محياه من قلق، ربما خلقته عبارة «أمر عاجل». كان على مرافقه أن يجاريه في خطواته متلفتا حوله لتأمين سلامته.

اتجها نحو باب النوبي المخصصة لدخول الوافدين من الملوك والسلاطين وكذلك الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة، قبّل الوزير مرمرة عند عتبة الباب وأشار إلى عبد القهار أن يفعل مثله. قال موضحا بعد أن اجتازا الباب: «يقال إن طغرلبك لما احتل بغداد قبل مائتي عام، أراد قتل الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه، فقصد الأخير دار الخلافة وقبّل هذه المرمرة احتماء بالخليفة فحماه من ذلك السلطان، وصار تقبيل المرمرة سنة منذ ذلك الحين احتراما لدار الخلافة وصاحبها».

علق عبد القهار بصوت خفيض: «هذه الصخرة شاهد من شواهد تحكم الأجانب بمقدرات بلاد العرب أكثر من كونها دليلا على شهامة الخلفاء».

تظاهر الوزير بأنه لم يسمع شيئا. مشيا في رواق طويل وسط حدائق غنّاء مزدانة بأزهار تنوعت ألوانها وتعددت أشكالها، من النرجس والجوري والياسمين والبنفسج والأقحوان، محاطة بأسيجة من الآس وأشجار الدفلى والسدر، تسقيها جداول صغيرة تفرعت من فتحة من ضفة نهر دجلة. وعلى الدكات الحجرية المنصوبة حول بحيرة صغيرة وعلى بساط الأرض

الأخضر، انتشرت العشرات من الجواري الحسان، من بيض وسود وسمر وشقراوات يرفلن في ثياب زاهية فضفاضة. يلي الحدائق بستان مزدحم بالنخيل والأشجار المثقلة أغصانها بالتوت والتين والتفاح والليمون. التقيا بالعشرات من الخدم يتحركون هنا وهناك، حاملين أوانيَ مقببة بالفاكهة وصوانيَ لمعت عليها كؤوس الشراب.

سأل عبد القهار مولاه الوزير: «هل تعتقد يا مولاي أن القيامة ستقوم لو أن بغداد، لا سمح الله، سقطت بأيدي هؤلاء المغول ذوي الوجوه الشبيهة بالتروس المطروقة والعيون الشبيهة بأحداق الجراد؟».

تكدر وجه الوزير، قال: «لو قُدِّرَ لهؤلاء الغزاة الذين ارتكبوا المحرمات في ممالك المسلمين الشرقية، أن يدخلوا بغداد، فهي القيامة حقا».

تساءل عبد القهار: «ما الذي ستفعله يا مولاي، وأنت الوزير، لتجنب الكارثة؟».

رد ابن العلقمي بنبرة من لا يود الدخول في التفاصيل: «الأمر يقرره أمير المؤمنين وليس أنا».

بعد لحظات من الصمت، سأل الوزير مرافقه فجأة وهما يدلفان إلى رواق آخر معقود سقفه: «عبد القهار، هل تعتقد أنني سعيد بمنصب الوزارة؟».

أجاب المرافق بجرأة: « الناس جميعا يحسدونك يا مولاي».

قال ابن العلقمي وكأنه يخاطب نفسه: « صاحب السلطان، كما قال الأولون، كراكب الأسد، يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب. من رضي أن يتولى هذا المنصب فقد وقَّع مختارا على تنازله عن حق الحياة. إنها مسؤولية جسيمة وحمل ثقيل، خاصة في زماننا هذا، بعد أن شاعت الفتن وفسدت النفوس وكثر الأعداء».

سأله عبد القهار مستغربا: « لماذا إذًا قبلت بالمنصب، يا سيدي؟».

«وجدته أفضل فرصة لخدمة الناس والبلاد، كي لا يزداد الغني غنى ولا الفقير فقرا. لقد رأيت بعينيك أثاث حجرات قصري وما أملك، قد أكون أغنى منك ومن كثير من الناس، لكني لا آكل بملاعق من ذهب، لا أستعمل الملعقة مرة واحدة وأرميها كما فعل الوزير ابن الفرات في أيامه، ولا أبذر آلاف الدنانير في شراء الورد الأحمر، وأكرر ذلك كل ثلاثة أيام كما فعل الوزير المهلبي».

لم يكتم المرافق ضحكة فلتت منه ولكن في حدود الأدب: « هل يعني ذلك أنني تنازلت عن حياتي بالعمل معك؟ فالوزير، يا مولاي، بمرتبة سلطان».

تساءل الوزير غارقا في ضحكة طويلة حتى أحنى رأسه واضعا قبضته على بطنه: « أنا؟ تخاف مني يا ابن ناصر الدين؟ اطمئن، فأنا كابن اللبون، لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب».

بعد لحظات، استغل عبد القهار الفرصة ليطرح سؤالا كثيرا ما راوده: « كيف استطعت يا مولاي البقاء وزيرا طيلة ثلاث عشرة سنة وما زلت، مع أن السلاطين متقلبو الأهواء، كثيرو الشك، يفتحون آذانهم للوشاية والنميمة، ولا يترددون في القتل والغدر؟».

التفت نحوه، قال بمنتهى الجد: « لم أستثقل يوما، يا عبد القهار، ما كلفني به أمير المؤمنين من مسؤولية وما حملني من تكليف. لم ألحف إذا سألته، ولم أغتر به إذا رضي عني، ولم أتغير له إذا سخط عليّ، ولم أطغَ إذا سلطني، ولم أبطر إذا كرمني. لكني لا أدري ما الذي سيحدث لي بعد ساعة أو يوم أو أسبوع».

«هل تعتقد يا سيدي أن الأمر سيكون مختلفا بالنسبة لك لو كان العلويون مكان العباسيين؟».

«لا يا عبد القهار، وهل اختلف الفاطميون عن العباسيين؟».

وصلا قصر التاج، واجتازا صحنا واسعا قبل أن يدخلا إيوانا طويلا توسطته بوابة قاعة الاستقبال. كان الحراس ينتشرون في الإيوان، لكن لم يتجرأ أحد منهم على منع عبد القهار من اختراق دائرتهم؛ لأنه كان بمعية الوزيرالذي أشار إلى قطعة من الحرير الأسود معلقة قرب الباب: « إنها المرة الأولى التي تدخل فيها دار الخلافة، فعليك أن تتعرف عليها.. هل تعلم لماذا وضعوا قطعة الحرير هذه؟ كل الأمراء والولاة والقادة لا بد لهم من تقبيل هذه القطعة إعلانا عن ولائهم للدولة والخليفة».

دخل ابن العلقمي القاعة فيما بقي المرافق ينتظره عند بابها.

* * *

في عصر ذلك اليوم، استطاع عبد القهار مشاهدة المنظر داخل القاعة من فرجة الباب الموارب. إنها المرة الأولى التي رأى فيها ستائر الديباج المذهبة والسجاد الثمين والبسط الحريرية والأرائك المنحوتة مساندها بمناظر ناتئة جميلة.

رأى عبد القهار كبار رجال الدولة واقفين في صفين على جانبي القاعة أمام مقاعدهم، لكنها المرة الأولى التي رأى فيها الخليفة المستعصم بالله؛ لأنه اعتاد إذا سار بين الناس، أن يرسل على وجهه نقابا كثيفا أسود اللون، قال البعض إن الخليفة يفعل ذلك وقاية من نظرات العامة، وقال آخرون إنه يفعل ذلك خوفا من ضربات العيون الشريرة أو طردا لسحر أعدائه، أما إذا

أراد الناس مقابلته والتحدث إليه في شكوى أو استرحام، فهو يتحدث إليهم من وراء ستر متتالية.

كان المستعصم يذرع بقوامه الرشيق منصة قاعة الاستقبال رواحا ومجيئا، يفترسه القلق وتشتت باله الحيرة. كان يرفع يديه بين الحين والحين ليعدل عمامته. قبضت يداه بقوة على حافة مسند سريره المصنوع من الأبنوس والمفروش بنسيج ديبقي مطرز بخيوط الذهب، فاهتزت عقود الجواهر الفاخرة المعلقة مثل السبح على يمين السرير ويساره. لم تعكس الجواهر الضوء المتسلل من الشبابيك، بل عكست ما يهيج في داخل الخليفة من هواجس، أو بالأحرى المخاوف. أومأ إلى الحاضرين بالجلوس على الأرائك الموضوعة على الجانبين.

قال شابكا يديه خلف ظهره وقد حطت عيناه على رسالة مطوية موضوعة على طاولة فوق المنصة وأمام سرير الحكم: « يبدو أن الأمور تسير بما لا نشتهي، فنحن الآن مهددون بخطرين، خطر الإفرنج المتوثبين لاحتلال القدس ثانية والقضاء على الإسلام، وخطر المغول الزاحفين من الشرق طمعا في الاستحواذ على خيرات بلاد المسلمين».

سكت أمير المؤمنين ليرى ردة فعل كلامه على وجوه الحاضرين، فوجدها شاحبة باهتة.

أضاف بنبرة غاضبة: « كانت هزيمة الخوارزميين أمام المغول وما تلاها نكسة للمسلمين».

قال الوزير ابن العلقمي: «الجميع يعرف طيبة مولانا الخليفة وتسامحه، لكن الحقيقة يا مولاي أن الخوارزميين نالوا جزاءهم، ألم يبعث علاء الدين

خوارزم شاه إلى جدك الناصر متوعدا(كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية، فيكون أمر بغداد والعراق لي، ولا يكون لك إلا الخطبة)؟ ألم يعتزم خوارزم شاه على المسير إلى بغداد والاستيلاء عليها قبل خمسين سنة، ولم يرجع عن مسيره إلا بعد أن أهلكت الثلوج دوابه وخاف من المغول على بلاده؟».

طلب الدويدار الصغير الإذن بالكلام، فأذن الخليفة له، فقال ملتفتا للوزير: « أظن يا أمير المؤمنين أن الوزير ابن العلقمي يشير من طرف خفي إلى ما قيل من أن جدكم الناصر لدين الله قد حث المغول على مهاجمة حكومة خوارزم شاه بسبب تهديدهم المزعوم لدولة الخلافة في بغداد».

نهض أستاذ الدار والمحتسب جمال الدين سبط ابن الجوزي، قائلا: «ما ارتكبه المغول في ممالك المسلمين جريمة كبرى، وكارثة تصغر أمامها كل كارثة، وأحداث يشيب لها الولدان. لقد قتلوا، يا مولاي، الفقهاء والعلماء، سَبَوْا النساء وانتهكوا أعراضهن أمام أهليهن، وذبحوا الصغار والكبار؛ لذلك ثار كثير من المسلمين، وكانوا يفضلون الموت على رؤية هذا الجرم الفاحش والسكوت عليه، فكان كثير من المسلمين يقاتلون المغول حتى الموت، ومن كان يسكت على ذلك فإنه رغم سكوته، يمثل به ويعذب بأشد أنواع العذاب، ويلقى في النار. شردوا الأطفال الأبرياء، هدموا المساجد وأحرقوا المصاحف».

جلس أستاذ الدار، فنهض الوزير: «كانت تلك الكارثة بسبب تهور حكام خوارزم وعدم قدرتهم على تجنب وحشية المغول».

رد الدويدار غاضبا: « نوايا المغول معروفة وهي احتلال بلاد المسلمين حتى لو نفّذ الخوارزميون كل مطالبهم».

احتد النقاش بين الحاضرين بين مؤيد ومعارض، أما الخليفة فكان شارد البال. فكر في تلك اللحظة أن «عرفة» لو كانت حاضرة لأبدت رأيا أكثر حكمة مما قاله هؤلاء الخائفون على أنفسهم أكثر من خوفهم على بلادهم وعلى خليفتهم. ربما ستقول له : «ألا يكفيك يا مولاي ما عندك من صداع؟ إذا كانت تلك الممالك قد تمردت عليك وانفصلت عن دولتك، فما الذي يعنيك من أمرهم؟». لعلها ستقترح عليه «أرسلني إلى هولاكو وأنا أقنعه بأنك لا تريد شيئا سوى العيش في بغداد وليحتل المغول ما عداها».

انتبه الخليفة على صوت الدويدار الصغير صائحا:

يا فرقةَ الإسلامِ نُوحوا وانْدبوا أسـفًا علـى ما حَلَّ بالمستعصِمِ
دستُ الوزارةِ كانَ قبلَ زمانِهِ لابنِ الفراتِ فصارَ لابنِ العلقمِي

صرخ الدامغاني: «كيف تفعلون هذا وأنتم في حضرة أمير المؤمنين؟».

ساد الصمت وعاد الحاضرون إلى مقاعدهم، فانتبه الخليفة وقال:« كنت أظنكم ستناقشون الأمر بتبادل الرأي وليس بالخلاف والصياح والصراخ في حضرتي».

شعر بأنه لم يكن حازما أكثر، لكنه كان يدرك أن غضبه على أي واحد منهم سيعرض الحكم إلى هزة عنيفة في وقت يتطلب توحيد الجهود. أضاف: «موضوع الخوارزميين مضى وانقضى. أما الخطر القادم من الغرب، فلا يخفى عليكم أن الحملات الصليبية التي بدأت قبل مائة وخمسين سنة لم يكن هدفها القدس وحدها، بل الوصول إلى بغداد وتحطيم الخلافة. إن الصليبيين يحاولون تحقيق أهدافهم والانتقام لهزائمهم أمام صلاح الدين ومن قبله عماد الدين زنكي والسلاجقة. نعرف جيدا أن بابا روما لم يتوقف

عن إرسال الوفود إلى خان المغول، والهدف هو إقامة تحالف بين المغول والصليبيين للقضاء على الإسلام، وكان آخر هذه الوفود قد ضم الراهب جون دي بولانو كاربيني مبعوث البابا إلى الخان الأعظم والكونت شارل مبعوث القائد الصليبي ملك الإفرنج لويس التاسع الذي يتخذ من قبرص قاعدة له للهجوم على المدن الساحلية الإسلامية في الشام ومصر، وهو الملك الذي أسره إخوانكم المسلمون في مصر ثم أفرجوا عنه بفدية كبيرة، ولم يتوانَ ملك أرمينية في بعث الرسائل تلو الرسائل إلى المغول داعيا إياهم للقضاء عليّ بوصفي رأس المحمديين وخليفتهم».

صاح الدويدار بلكنة أعجمية وهو يسحب سيفه قليلا من غمده: « لقد خاننا النصارى هنا».

زنّر الخليفة عينيه: « لم نَرَ من مواطنينا النصارى إلا الخير، فهم أبناء هذه الأرض، ويفرحهم ما يفرحنا، ويقلقهم ما يقلقنا. صحيح أن هولاكو أحاط نفسه بعدد من القادة والمهندسين من النصارى، وأنه، كما قيل، متأثر بكراهية أمه سورخاخاتاني وزوجته دقوز خاتون النسطوريتين للمسلمين، لكن هذا لا يغير من موقف النصارى هنا المؤيد للدولة، وإذا خان أحد من النصارى، فلا يعدم مثله بين المسلمين».

أضاف مستدركا: «كانت للصليبيين غايتان من التعاون والتنسيق مع المغول، فشلوا في واحدة وهي دعوة المغول لنبذ ديانتهم واعتناق المسيحية، وإن تنصرت جماعة من المغول؛ لأن كبار الرهبان المغول أعلنوا قبل خمسين سنة أن إلههم العظيم، الغ تنگري، أراد أن يحكم الأرض جدهم تيموجين فأطلقت عليه السماء لقب قاهر العالم جنكيز، لكنهم ما زالوا مصرين على تحقيق الغاية الثانية وهي محاربة المسلمين وتطويقهم».

أطرق الخليفة برأسه إلى الأرض، وخيم الصمت على القاعة. رفع رأسه ببطء قائلا: « تعلمون أننا قد أرهقنا أنفسنا، منذ عهد جدي الراحل الناصر لدين الله وحتى هذه الساعة، بما بعثناه إلى المغول من هدايا وأموال، وما كتبناه من رسائل أظهرنا فيها رغبتنا بإقامة علاقات حسنة معهم، غير أنهم لا يخفون إصرارهم على تحطيم الممالك الإسلامية. المعلومات المتوفرة لدينا من سفرائنا وتجارنا تقول إنه ومنذ انتخابه خانا أعظم للمغول، يؤكد مونكو بن تولوي بن جنكيز خان تمسكه بسياسة المغول بالسيطرة على الصين والقضاء على الممالك الإسلامية، وقد أوكل إلى أخيه قوبيلاي اقتحام أسوار بكين، وإلى أخيه الآخر هولاكو غزو بلاد المسلمين. تذكرون جيدا أن المدعو هولاكو بن تولوي قد تقدم غربا نحو نهر جيحون وتقدم قائده النصراني كيتوبغا نحو قلاع الإسماعيلية».

هز بعض الجالسين رؤوسهم تأييدا. بلل الخليفة شفتيه بطرف لسانه. أضاف: «المغول يحاصرون قلعة ألموت الآن».

بُهت الحاضرون إلا سليمان شاه الذي قاطع الخليفة، هاتفا بفرح: « الحمد لله، سيواجه الإسماعيليون الملاحدة مصيرهم المحتوم. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى».

صوّب إليه الخليفة نظرة مزجت بين الغضب والعتاب، فانكمش سليمان متطلعا حوله بحرج: «لقد اغتال هؤلاء اثنين من أجدادك الخلفاء. إنهم كفرة».

قال الخليفة ممتعضا: « لم يشكل الإسماعيليون يوما تهديدا مباشرا لنا، بل بقاؤهم مفيد لأنهم يشكلون حجر عثرة في طريق الغزاة القادمين من ناحية الشرق. لقد بعث جلال الدين حسن صاحب قلعة ألموت رسولا إلى جدي الناصر يعلمه أنهم تبرؤوا من الباطنية وعادوا للإسلام».

علّق الدويدار الكبير: « أمير المؤمنين.. أرجو أن تطمئن لأن قلاع الإسماعيلية الحصينة ظلت عصية على الغزاة طيلة مائة وسبعين عاما».

جلس الخليفة على سريره، ضاربا فخذيه براحتي يديه: « ما دعوتكم إليه ليس ما سيؤول إليه مصير الحشاشين وقلاعهم، بل ما سيؤول إليه مصيرنا نحن. علمت قبل عام أو أكثر، وكتمت ذلك عنكم باعتباره أمرا لا يستحق الذكر، علمت أن الخان الأعظم منكو أمر أخاه هولاكو بهدم القلاع والأسوار وتخريبها من أول كوهستان إلى منتهى خراسان، وإذا ما أنهى ذلك فعليه التوجه إلى العراق. أمره أن يهلك من ينتصب لمناوأته ومن يريد أن يكون عثرة في طريقه من لُر وكورد وغيرهما».

تبادل الحاضرون نظرات تنطق بالدهشة والاستغراب، إلا رئيس الديوان الدامغاني الذي أطرق برأسه إلى الأرض فيما كانت أصابع يده اليسرى وإبهامه تحك خديه.

تناول الخليفة الرسالة المطوية قائلا: « هذه رسالة من المدعو هولاكو حملها وفد منه مليئة بالتهديد والوعيد».

أرهف الجميع الصمت، وراح الخليفة يقرأ نصها: «من القائد المظفر هولاكوخان، حفيد جنكيز العظيم وأخي الإمبراطور الكبير الخان الأعظم منكو، إلى خليفة المسلمين المستعصم بالله.. بعد السلام، إننا قادمون لتحطيم الملاحدة، فإن تحضروا بأنفسكم مع جنودكم تنقذوا بذلك أسركم وبلادكم وستجزون على ذلك الجزاء الأوفى، وإن تتلكئوا، فبعون من الله سنعود إليكم إثر القضاء على هؤلاء الناس، وستلقون نفس المصير».

أضاف طاويا الرسالة: « إنها رسالة وقحة، ولكن كيف سنرد عليها؟».

قال أحمد ابن الخليفة، المشهور بلثغته وتهوره، بنبرة حماسية: « يا أمير المؤمنين، نرد عليه بقوة وتحد. نقول له : نحن من قال شاعرهم:

ونشربُ إن وردنا الماءَ صفوًا ويشربُ غيرُنا كدرا وطينا
ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عنا وماءُ البحر نملؤُهُ سفينا
إذا بلغَ الفطامَ لنا رضيعٌ تخرُّ له الجبابرُ ساجِدينا

تعالت الأصوات: «أحسنت.. أحسنت».

هتف قاضي القضاة: «صدقت يا أبا العباس.. ونحن أيضا نتنبأ بنتيجة المواجهة إذا ما حدثت، ولسان حالنا يقول:

إذا دارتْ رحانا مَعْ رحاهمْ طحَنَّاهم وكُنا الغالبينا

ترددت أصوات من الحاضرين: أحسنت.. أحسنت.

صاح أبو العباس هازا سبابته في الهواء: « لن يدنس هذه الأرض مغولي، ولن يهدد الخلافة بشر. قالها جدي أبو جعفر المنصور من قبل : «إن خلافتنا أمر تولاه الله ولم يكن للعباد فيه أمر ولا قدر» سنرد عليهم وننذرهم بالويل والثبور، وإن لم ينصاعوا فسيقودهم عنادهم إلى الهلاك. ليتهم يفعلونها، فستفتك بهم ضواري الأرض قبل أن تحظى نصال سيوفنا بقطع رؤوسهم، لتكون كرات يلهو بها الصبيان في حارات بغداد المحروسة».

ارتفعت الضجة حين هتف الحاضرون، إلا الوزير وسبط ابن الجوزي، واهتزت عمائمهم، هازين أيديهم أيضا في الهواء: « الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر. النصر للإسلام والموت للغزاة».

قفز أبو العز بكتمر واقفا واضعا كفه المرتعشة ناتئة العروق خلف صيوان أذنه: « ماذا؟ انتصرنا على المغول؟ يا للبشرى!».

هزّ الخليفة يده مستهزئا من العجوز بكتمر. جذب الصياح عددا من الحراس الأتراك، فتجمعوا حول عبد القهار يستطلعون الخبر. سأله أحدهم: «هل قرر مولانا الخليفة أخيرا دفع المتأخر من رواتب الجنود؟».

خيّب جوابه بالنفي أملهم فانسحبوا مغمغمين. عاد المرافق عبد القهار يراقب ما كان يجري في القاعة.

حين هدأت الضجة، سأل الخليفة وزيره: « ماذا تقول يا ابن العلقمي؟».

أجاب الوزير واقفا: « أرجو يا مولاي أن لا نستهين بالعدو، فقد سمعنا أن المغول يتقدمون غربا بجيوش جرارة. علينا معرفة العدو جيدا للوقوف على نقاط ضعفه، وأن نعد العدة لمواجهته. ولأن الإعداد يتطلب مدة ليست بالقصيرة، فلا بد الآن من مهادنة العدو إلى حين، فذلك سيمنحنا وقتا نعد فيه ما يكفي من جيش ونوفر ما يستلزم من سلاح».

صاح الدويدار الصغير أيبك الشركسي من دون إذن من الخليفة: « أتفق مع السيد الوزير في ضرورة إعداد العدة لمواجهة العدو، لكنني لا أتفق معه في أن ذلك يتطلب مدة ليست بالقصيرة».

تساءل المستعصم مدهوشا: « ماذا عن الجيش؟ ألا تكفي قوته الآن في مواجهة أي اعتداء أجنبي؟».

التفت الدويدار الصغير نحو الحاضرين متجنبا النظر إلى الخليفة: « كان الجيش في زمن الخليفة المستنصر رحمه الله ، مائة ألف مقاتل، لكنه خفض حتى وصل عدده الآن خمس ما كان عليه، بينما الصليبيون والمغول يملكون جيوشا جرارة، فكيف لنا مواجهتهم بجيش صغير؟».

بدا الخليفة مرتبكا، فهو من اتخذ قرار تخفيض عدد الجيش. لكن هذا الدويدار الصغير كان هو والوزير من المستفيدين من الأموال التي كانت

تصرف على الجيش. كان يعرف ذلك، وقد سأل الدويدار الصغير يوما عن مصدر ثروته، فأجابه قائلا: عارضني فقير ذات يوم وقال لي: يا ملك خذ هذا المثقال وألقه على عشرة آلاف مثقال يصير الكل ذهبًا، ففعلت فصح قوله، ثم لقيته بعد مدة، فقلت : علمني الصنعة. قال: لا أعرفها، لكن رجلا صالحًا أعطاني خمسة مثاقيل فأعطيتك مثقالًا ولملك الهند مثقالًا ولآخرين مثقالين وبقي لي مثقال أنفق منه.

لو أنه سأله الآن أن يتبرع بشيء من أمواله للجيش، لانقلب مؤيدا للسلم.

راح يحك لحيته مفكرا بجواب مناسب، لكن قاضي القضاة وقد أدرك حراجة موقف سيده، صاح قائلا: «إن قوتنا ليست في العدد وإنما في الإيمان الذي يتسلح به جنودنا، ومثلما نصر الله ابن عمك النبي بجند من الملائكة يوم بدر، فحاشا لله أن يبخل هذه المرة في الدفاع عن بيضة الإسلام بأضعاف مضاعفة من الملائكة».

انبرى أبو العباس مدافعا عن أبيه: « مع تقديري لمقترحات السيد الوزير، فإني أراه قد ضلل بمعلومات خاطئة عن قواتنا خاصة أولئك الناقمين على الخلافة من أبناء مناطق الكرخ الطامعين في الاستحواذ على الجيش لقلب نظام الحكم، أو لعله قد نسي أن كنوز مولاي لم تعد كما كانت، وأن ما بقي فيها مُدَّخَر لأيام أصعب».

ردّ الوزير هادئا: «يعلم مولاي الخليفة أن ولائي كله له وللدولة، ويعلم أيضا أن دعوتي لإعداد جيش قوي ليست وليدة اللحظة، بل لأني أراها دعامة مهمة للاستقرار وصد الأعداء من أية جهة كانوا، ولا أرى أن هنالك أياما أصعب مما نحن مقبلون عليه. جيش هولاكو يا مولاي جيش جرار يبلغ

تعداده عشر عدد المقاتلين في إمبراطورية المغول. لا أتفق مع قاضي القضاة في إعطائه كل الأهمية للإيمان وإهمال الاستعداد. كان مع رسول الله رجال لا يضاهيهم أحد في الإيمان والشجاعة والتضحية، ومع ذلك أمره سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾.

هزّ الخليفة رأسه متذمرا: « لا أريد أن تكون أموالي، وهي ليست كنوز الملك سليمان ولا مثل أموال جدي الرشيد، مدار نقاش بينكم، فحاولوا إيجاد حلول بعيدا عن إرهاقي بالصرف والتبذير. عند كل مشكلة أو طارئ، لا ترون أمامكم من حل سوى أموال الخليفة. أنا لا أبخل بشيء لكنني أفكر بادخارها ليوم أشد حاجة وأشد سوادا».

تململ أستاذ الدار في مكانه، فأدرك الخليفة أن لديه ما يريد قوله: «ما رأيك يا أستاذ الدار؟».

قال سبط ابن الجوزي: « يقول الحكماء، يا مولاي، أحزم الملوك من تقدم بإحكام الأمر قبل نزول حاجته، وتدارك المهم الخطر قبل وقوعه. قيل لأحد ملوك الأقدمين: ما علامة دوام الملك؟ قال: الاقتداء بالحزم والجد في كل الأمور. قيل: فما علامة زواله؟ قال: الهزل فيه».

نظر المستعصم إليه شزرا: «ما الذي تريد قوله يا سبط ابن الجوزي؟».

ردّ غير مبالٍ بانزعاج الخليفة: «أقول يا أمير المؤمنين لا بد من موقف حازم. إن هولاكو هذا رجل صاحب احتيال وخديعة. هولاكو ليس محتاجا إلى نجدتنا فلديه جيوش كبيرة، إنما غرضه إخلاء بغداد من الرجال ليملكها بسهولة».

نظر الخليفة إليه نظرة طويلة لم تنمّ عن ارتياح أو قبول، فسأله لمعرفة مقاصده: «ماذا تعني بالرأي الحازم؟» .

أجاب سبط ابن الجوزي باعتداد: «أن تعد العدة يا مولاي وتتجهز للحرب. لقد انتصرنا عليهم في الماضي، وليس صعبا أن ننتصر عليهم مستقبلا».

علق الوزير قائلا: «كلنا نريد ما يريده شيخنا سبط ابن الجوزي، لكن فاته أننا انتصرنا عليهم يوم كانت قوتهم المهاجمة قليلة العدد».

رد سبط ابن الجوزي محتدا: « ملاحظة الوزير ابن العلقمي غير مقبولة. لما رجع رسول الله ﷺ من وقعة بدر ومعه الأسرى والغنائم، وقد قتل الله رؤوس المشركين، تلقاه الناس من ظاهر المدينة عن أميال فجعلوا يهنئونه بالفتح، وجعل الناس يسأل بعضهم بعضًا عمن هلك ومن سلم، فقال بعض الصحابة: والله ما قتلنا إلا عجائز صلعًا، فأقبل عليه رسول الله ﷺ باللوم ولم يزل كالمعرض عنه، ثم قال له: «أولئك يا ابن أخي الملأ». فلا يجوز لنا أن نصغر في نفوسنا أمر عدونا وإن كان صغيرًا في نفس الأمر، ولا يجوز لجلساء الخليفة ومستشاريه أن يصغروا أمر عدوه عنده، فإنهم إن صغروه حتى ظفر به العدو كان وهنًا له إذ قد غلبه عدو صغير، وإن ظفر هو بالعدو لم يكن قد صنع طائلا».

شعر الدويدار الكبير علاء الدين أن عليه أن يقول شيئا ليخفف التوتر الذي ساد المكان: «ما يثير فيّ الاستغراب ما تحدث به البعض عن الإعداد والتجهيز للحرب، فنحن جاهزون في أي يوم، وفي أية لحظة، ولا نحتاج إلا لسيوف نقطع بها رقاب المعتدين».

ظهرت على محيا المستعصم علامات الرضا، فسأل مستوضحا: « كيف أيها الدويدار الكبير؟ ألا نحتاج إلى الخيل مثلا؟».

أجاب الدويدار الكبير وهو يعدل من وضع جبته: « ولماذا نحتاج إلى الخيل؟ إننا كما أجاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قيل له : لم

لا تشتري فرسا عتيقا؟ فقال : (لا حاجة لي فيه، وأنا لا أفر ممّن كرّ عليّ، ولا أكرُّ على من فرّ منّي)».

هز الخليفة رأسه: «أحسنت يا دويدار.. نحن كذلك فعلا».

بينما جلس الوزير في مكانه، رفع رئيس الديوان الدامغاني يده ثم قال بعد أن أومأ إليه الخليفة بالإذن: « أؤيد ما قاله الوزير أبو طالب، فعلينا معرفة العدو وهولاكو بالذات، لا لنعد لمواجهته الجيوش، فذلك يستنزف أموال مولاي الخليفة».

انبسطت أسارير الخليفة ما دام هنالك مقترح بقهر العدو من دون استنزاف لخزينته، فأومأ مشجعا. تباهى الدامغاني بحسن استقبال الخليفة لكلامه، مضيفا: «الحل يا مولاي لا يكلفنا شيئًا، سوى معرفة جيدة لملامح هذا المدعو هولاكو».

بادر الدويدار الصغير قائلا بسخرية: « لا شك أن رئيس الديوان يفكر في إرسال شخص ماهر، مهارة الحشاشين، لاغتيال هولاكو».

هزّ الدامغاني رأسه بالنفي. تساءل الخليفة مستغربا: «هل تقترح اختطاف القائد المغولي من معسكره ومن بين أهله وجنوده؟».

أجاب الدامغاني واثقا: « لا يا مولاي، أقول لو عرفنا ملامح هولاكو جيدا لصنعنا له تمثالا ويقرأ عليه السحرة تعويذاتهم، ثم ندفن التمثال فيهلك هولاكو، وإذا تعذرت علينا معرفة ملامحه، نكلف أحد الخطاطين برسم صورته التي نتخيلها على الأرض عند باب الخلافة فتدوسها النعال وبذلك نهينه وننتقم منه».

انتظر الخليفة تأييد الآخرين للمقترح كي يعلن مباركته، وحين لزم الآخرون الصمت، زم المستعصم شفتيه خيبة.

نهض أستاذ الدار سبط ابن الجوزي، فاستدارت الرؤوس نحوه. ظل لحظات صامتا بينما ظلت نظرات المستعصم مسلطة عليه، حرك سواكه في فمه وكأنه ينبش عن كلمات مناسبة يتدارك ما بدر منه بعد أن فكر أنه سيخسر الكثير لو ظل صلبا معاندا، فما الذي يضيره أن يكون مثل الآخرين؟ أخفى سواكه في أحد جيوبه، قال بلهجة بطيئة مؤكدا على مخارج الحروف، ممسدا لحيته المخضبة بالحناء: «الحمد لله الذي حبا هذه الديار بابن عم خاتم الأنبياء والمرسلين، مولانا أمير المؤمنين، فهو البقية التي لولاها لقلب الله الأرض على من فيها. إذا ما غامر المغول بالزحف على بغداد مدفوعين بالوهم والغرور، ستمرغ أنوفهم في التراب نادمين يوم لا ينفع الندم. إنهم يا مولاي يجهلون أن إشارة من إصبعك الكريم أو كلمة واحدة منك تدعو فيها المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي إلى الجهاد والدفاع عن بيضة الإسلام، كافية لتزحف الجموع من كل مكان لتحمي دار السلام ولتكون دروعا لمولاي وأهله، فهو إمام المسلمين وولي أمرهم. فليجرب الأعداء وسنرى. إن غدا لناظره قريب».

انفرجت أسارير الخليفة عن ابتسامة عريضة غسلت ما كان يكدر وجهه من قلق وما حمله من غيظ على أستاذ الدار. صاح معظم الحاضرين هاتفين: « الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر».

قال أبو العباس مرتعشا من فرط الحماس: « الحرب يا أبي، وأنا واثق من النصر».

علت أصوات الحاضرين: «أحسنت يا ولي العهد.. أحسنت يا سليل الخلفاء وكبد أمير المؤمنين. أحسنت يا أبا العباس. عاش أبو العباس أحمد. هذا الشبل من ذاك الأسد».

أمال بكتمر جسده النحيل إلى الأمام، تساءل وعيناه الضيقتان ترمشان: «ماذا؟ أحقا تنازل الخليفة عن الملك لولده؟».

قال الوزير واقفا من دون أن يلتفت نحو ابن الخليفة: « الحرب يا مولاي لعبة خطرة تتطلب إعدادا وتخطيطا، فمن يلعب النرد يمكنه أن يندب حظه إن كان من الخاسرين، أما في الشطرنج فلا يلوم الخاسر إلا نفسه، والحرب كلعبة الشطرنج لا تتطلب الحظ بل يلزمها حسن التخطيط ومعرفة الخصم وتوقع حركاته».

ارتفعت الضجة بين مؤيد ومعارض، حتى أشار الخليفة إلى الحاضرين بالسكوت: «الرأي ما قلتموه أيها الأصحاب الخيِّرون، والرأي أيضا ما قاله وزيرنا. سنبعث برد مناسب لهذا المغرور هولاكو، لكننا أيضا سنتحرى أمر قواته وجيشه وعتاده وخططه. كان النبي ﷺ يعرف ذلك في غزواته، فكان يرسل العيون لتأتي له بالأخبار، وفي غزوة أحد، حين أمسك أحد الصحابة اثنين من المشركين سألهما عن العدد، فلم يعرفا، فسألهما عن كم يذبحون من الإبل في اليوم، فقالا : ما بين تسعة وعشرة، فعرف النبي ﷺ أن القوم بين التسعمائة والألف. وفي غزوة الأحزاب أرسل الرسول الأعظم حذيفة ابن اليمان عينا على المشركين ، فاندس وسطهم ، وعرف أخبارهم».

تساءل الدامغاني وهو يتطلع في وجوه الحاضرين: «وكيف سيتحرى أمير المؤمنين أمر هولاكو وقوته العسكرية؟».

أجاب الخليفة: «سنبعث شخصا يتمتع بثقتنا وبالشجاعة والإقدام وقوة الملاحظة وسرعة البديهة».

تطلع الجالسون بعضهم إلى بعض بقلق. صاح العجوز بكتمر: «لم أنتم ساكتون؟ من مات؟».

قهقه الخليفة، قال متهكما: «أعرف أيها السادة أن المواصفات التي ذكرت تنطبق عليكم بالتمام والكمال، ولكي تطمئن قلوبكم، أؤكد لكم أن الشخص

الذي سيتولى المهمة ليس واحدا منكم، بل سأختاره من عامة الناس كي لا يكون موته خسارة لنا، ويمكننا البراءة منه إذا ما انكشف أمره. لن تعرفوا من هو حتى ينجز مهمته».

تنفس الحاضرون الصعداء. شعر الوزير بأن وجهة رأيه لم تستحق العناية، ومما خفف من تأثره، أن الدويدار أيضا لم ينجح في إقناع الآخرين بتبني وجهة نظره. عمد إلى تذكير الخليفة بضرورة حسم موقفه: « لكن وفد المغول ينتظر جوابكم يا مولاي».

كانت الهتافات الحماسية قد أنست المستعصم وفد المغول والجواب على رسالة قائدهم. قال مرتبكا: «ما نفعل إذن؟».

شعر الوزير بالارتياح، فقد عاد إليه الخليفة بعد أن هدأت الضجة: «لا وجه لإرضاء هذا القائد الجبار إلا ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه».

لم يجد المستعصم من حل أمامه غير قبول الاقتراح وإن كلفه ذلك مالا وذهبا. كان أقصى ما تمناه في تلك اللحظة أن ينفض الاجتماع سريعا لتحل مكان أصوات المسؤولين التي فيها الأجش والمبحوح والخشن، أصوات المغنيات، وفي مقدمتهن عرفة، فهذه الأصوات الناعمة تذوب عذوبة ورقة، وتخفف من أوجاع الشقيقة.

قال: «سيبقى الوفد في ضيافتنا ثلاثة أيام نكون فيها قد هيأنا رسولا وهدايا واخترنا من يأتينا بالخبر اليقين عن المغول وقائدهم».

رشح كل واحد من الحاضرين نفسه لمهمة المبعوث، فحياة الرسول مضمونة حسب التقاليد والأعراف المرعية بين الدول والملوك، ويحصل

المكلف بمثل هذه المهمة على صلات كبيرة من المرسل والمرسل إليه. تطلع فيهم المستعصم مراقبا انفعالاتهم. قال: « تعرفون جميعا أن من الأمور المهمة للخليفة حسن نظره في إرسال الرسل، فبالرسول يستدل على حال المرسل. قال بعض الحكماء: إذا غاب عنكم حال الرجل ولم تعلموا مقدار عقله فانظروا إلى كتابه ورسوله، فهما شاهدان لا يكذبان. لا بد أن يتميز الرسول بخصال منها العقل ليميز به الأمر المستقيم من المعوج، والأمانة والعفاف لئلا يخون مرسله. أعرف أن هذه الخصال فيكم لكنني اخترت أستاذ الدار الشيخ محيي الدين بن يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي».

كان سبط ابن الجوزي سعيدا بهذا الاختيار ومحط حسد البقية، فهو سيمثل الخليفة العباسي، لكن سعادته تلاشت سريعا حين فكر بأن إرسال الخليفة لشخص آخر في وقت متزامن مع سفره معناه أن الخليفة لا يثق فيه، لذلك يرسل من يراقبه ويكتب التقارير عنه، فقال: « لماذا لا أكون، يا أمير المؤمنين الرسول والمطلع على أحوال المغول؟».

أطلق المستعصم ضحكة عالية أزاحت كل توتره: «إنك يا سبط ابن الجوزي رجل ثقة ورسول بليغ، لكنني واثق أنك في ديار المغول ستركز على أمور العبادة والحلال والحرام فيما تأكله وتراه أكثر من اهتمامك بمعرفة ما نريد».

دلت حركات الدويدار الصغير وتلفته حوله وتعبيس وجهه عن امتعاضه لقبول الخليفة بمقترح الوزير، ولعله اعتبر ذلك في دخيلة نفسه انتصارا للوزير عليه، ولا بد أنه أضمر خطة لإفشال خطط الوزير.

بغتة، دفع أحد الجنود عبد القهار جانبا، مقتحما القاعة شاهرا سيفه، صارخا بصوت مرتعش: «أين الخليفة؟ أين الخليفة؟ لقد سرح معظم الجيش، والآلاف من الجنود المسرحين يستجدون الآن اللقمة في أزقة بغداد

ونواحيها..الملوك في البلاد الأخرى يغدقون على الجنود ليزيدوا عددهم، وفي بغداد وحدها يسرحونهم.. أين هذا الذي يسمي نفسه أمير المؤمنين؟ أين هو؟ إما أن أقتله أو أقتل نفسي».

جفل رجال الدولة، وجمد الخليفة في مكانه وقد صعقته المفاجأة، لكن ثلاثة من الحراس هاجموا التركي من الخلف وكتفوه. لم يقل الخليفة المرعوب شيئا، لكن أبا العباس صاح في الجنود: «اصلبوا هذا الخائن على باب العامة ليكون عبرة للآخرين».

اقتيد الحارس إلى الخارج وتابعه عبد القهار بنظرات مشفقة. عاد يتطلع إلى القاعة من الباب الموارب. في تلك اللحظة فوجئ المرافق عبد القهار بيد ناعمة تقبض على ظهر رقبته، فقفز مذعورا منفلتا. وجد نفسه أمام سيدة رائعة الحسن تزين جيدها الناصع البياض بقلادة طويلة من اللؤلؤ. أيقن أنها ولا شك من سيدات الدار المرموقات وقد جذب انتباهها الصياح الذي ساد القاعة عند اقتحام الحارس التركي لها. كانت وراءها خادمتها، وكانت هناك أيضا الأميرة الجميلة أمل بنت الخفاجي، ظلت عيناه عالقتين بالفتاة التي احتلت فؤاده، لكن السيدة جرته من تلابيبه بعيدا عن باب القاعة. سألته وهي تنقل سواد عينيها الواسعتين بينه وبين حراس القصر الذين تأهبوا للانقضاض عليه إذا ما بدرت منه أية حركة للهرب: « أنا أم مبارك زوجة الخليفة، فإياك ومحاولة الهرب. من أنت؟ لمصلحة من تتجسس على مجلس مولاي الخليفة؟ للإفرنج؟ للأيوبيين؟ لصاحب الموصل؟ للروم؟ للمغول؟».

أجابها معتدا بنفسه مستغربا تهمتها: « أنا ضابط في الجيش ومرافق لسيدي الوزير وكاتم أسراره».

لم تصغِ لجوابه، بل راحت تستنجد بالحراس، بينما بقي عبد القهار يكرر جوابه. قالَت أمل وقد اكتسى وجهها بمسحة من القلق، مشيرة إليه بأصابعها النحيلة المخضبة الأنامل: «سيدتي.. إنه صادق في قوله، لقد رأيته مع الوزير في أيام الفيضان الأخير».

لكن أم مبارك دفعت الفتاة جانبا، صارخة في وجهها: «لا أقبل من أحد الاعتراض على ما أقوله، أو لعلك تصورتِ أن أباك هو الخليفة؟».

قبض عليه الحراس وكتفوه، قالت لهم السيدة بلهجة لا تقبل النقاش، هازة سبابتها في وجهه: «خذوا هذا الجاسوس إلى السجن وسأخبر الخليفة بأمره».

في تلك اللحظة، حمد عبد القهار ربه، بعد أن اقتيد إلى السجن وليس إلى باب النوبي ليصلب مع الجندي المسكين.

* * *

8

لم يساور مرافق الوزير الشك في أن بقاءه في تلك الزنزانة سيقتصر على ساعة أو ساعتين، فوجوده في السجن، كما تصور، كان محض خطأ، لا بد أن يتم تصحيحه، لكن يقينه لم يكن في محله، فقد توالت الساعات عليه طويلة، بطيئة، مملة ، وأمضى ليلته وسط عتمة غارقة في الرطوبة والعفونة، مقرفصا على حصير من القصب، ومسندا ظهره إلى جدار ترابي رطب، لكنه عرف أن هنالك أناسا يشاركونه المكان، من سعالهم، وصفير صدورهم، وأنينهم الخافت الموجع.

في الصباح، تسرب ضوء باهت من كوة ضيقة قرب السقف، كاشفا تلك الهياكل العظمية، التي لا يغطيها سوى طبقة رقيقة من الجلد مكسوة بخرق ممزقة، ورؤوسا تكللت بشعر شعث، ووجوهًا ذابلة بلحى طويلة نافرة، ليس لها من علامات الحياة إلا دوران عيون متعبة في محاجر حددتها حواجب متهدلة. كانوا يجلسون مقرفصين على حصران متهتكة، أو مرتفقين على مخدات ضاعت ألوانها، وتفتقت عن حشوات قطن اسوّد لونه، أو متكئين على أسمال أغطية بالية. كانت وجوههم متشابهة كتشابه جماجم الموتى. كانوا خمسة رجال يتطلعون إليه بدهشة واستغراب، وكأنه كائن غريب هبط عليهم فجأة. انتظر بلا جدوى مجيء من يخرجه.

سأله أحد المسجونين في ذلك السرداب بصوت مبحوح: « عافيتك تبعد عنك تهمة السرقة، وهدوؤك يدل على أن لك ظهرا في الدولة تستند عليه، وتنتظر منه الإسراع في نجدتك، ولست من أقارب الخليفة لأنني أستطيع تمييزهم عن بعد. من أنت؟ وما هي تهمتك؟» .

دقق عبد القهار النظر في السائل، الذي كان يجلس قبالته، مقرفصا لم تغطِ خرقته صدره وفخذيه ورجليه، متعجبا من حفاظه على حسن الملاحظة في هذا المكان التعيس البعيد عن الدنيا، ومستفزا من جرأته في الزعم بمعرفته بأقارب أمير المؤمنين، فأجابه بنبرة لم تنم عن رغبة في مواصلة الحوار: «لست متهما بشيء، وأنا مرافق للوزير وكاتم أسراره، وجيء بي إلى هذا المكان اللعين نتيجة اشتباه لا يلبث أن يصحح، فقد توهمت السيدة زوجة مولاي الخليفة أنني كنت أتجسس على مجلسه».

أطلق الرجل ضحكة ذاوية، سرعان ما اختنق بعدها بنوبة من السعال. قال: «لا أود يا ولدي أن أخيب أملك، فالعدالة لم تعد تجد لها موطنا في هذه البلاد بعد أن غصت بالظلم والفساد. إن من يدخل هذه الحفرة، يبقى فيها إلى الأبد وتنقطع أخباره، أو يخرج متلويا من سم زعاف، ليبصر النور لحظة قبل أن يلفظ أنفاسه، حتى لو كان خليفة أو ابن خليفة».

أغاظته كلماته وأحس مدى حقد القائل على الخليفة، فسأله عن هويته باستصغار واضح، فأجاب رجل من الركن المعتم القريب من الزاوية المخصصة لقضاء الحاجة، بصوت يصاحبه فحيح: «إنه السيد الخفاجي يا هذا».

ارتسم أمامه وجه أمل وتذكر رجاءها في ذلك اليوم الممطر أن ينقذ الوزير أباها. تذكر تفاصيل ما حدث بعد ذلك. ذهب إلى دار الوزير، وسارع مع

بعض الخدم والحراس في إنقاذ ما أمكنهم من الكتب الثمينة النادرة. كانت أم طالب، زوجة الوزير، تخوض في المياه معهم، وتتلمس الأرض الغارقة، بحثا عن كتاب أو أوراق، غير أنها لم تلبث طويلا حتى أطلقت صرخة استغاثة. حين وصلها مع الآخرين، كانت قد لفظت أنفاسها تحت حائط حجرة المكتبة المنهار عليها. عندما أخبر الوزير بما حدث، أذهله الخبر ولم يستطع استيعابه لأول وهلة. قال الوزير بعينين دامعتين إن أم طالب كانت أعز إنسان إلى قلبه حتى بعد زواجه مرتين بعدها، كانت ملاذه عندما تثقله الهموم وتساوره الشكوك في نوايا الآخرين، كانت عيناها دوما تهمسان بحب يحفظ روحه، ينعشها، وكانت كلماتها تعويذة السلامة، وحينما كان يضع رأسه على ذراعها، ينام بعمق فثمة ملاك يحرسه، وعندما يستيقظ، يراها أمامه تتطلع إليه بحنو وولع. ودّ الوزير ابن العلقمي أن يصرخ، أن يجهش بالبكاء، لكنه لم يرد لهيبته أن تتزعزع أمام مرافقه وأمام بعض الجنود الواقفين حوله، فاكتفى بمسح دموعه المترقرقة متظاهرا برباطة الجأش. تمتم بصوت تخنقه العبرة: «رحمك الله يا أم طالب». تذكر عبد القهار أن الوزير كلفه بإبلاغ ابنة الخفاجي بسلامة أبيها ومن معه. كانت تلك فرصة ينتظرها ليرى من جديد الفتاة التي خفق لها قلبه كما لم يخفق من قبل.أسرع إلى قصر الفردوس، وطلب من إحدى الجواري أن تخبر الأميرة أمل بأن هنالك من يحمل لها رسالة مهمة. حين رأته ابتسمت مرحبة. رآها أجمل بكثير من المرة الأولى التي التقاها فيها. بسيطة في ثيابها، شامخة بكبريائها. تنهدت عميقا عندما علمت أن أباها وعمها بخير. سألته عن اسمه، عن أحوال بغداد خارج حريم دار الخلافة، فحدثها عن مشاهداته لأحوال الناس وهم يواجهون مياه الفيضان التي سلبتهم كل ما يمكن أن يطفو وأخذته بعيدا. تمايلت ضاحكة. تلفت حوله بحثا عما أضحكها، فلم ير شيئا. قالت محاولة حبس ضحكتها: «أرجو أن تنتظرني. سأعود حالا».

رجعت وفي يدها إبريق. قالت باسمة: «وجهك مبقع بالطين.. دعني أصب الماء على يديك لتغسله». تلمَّس وجهه ضاحكا. أراد أخذ الإبريق، لكنها أصرت أن تتولى صب الماء. حين ابتعد عنها، ظلت واقفة تودعه بنظراتها والإبريق يتدلى من يدها.

لعل الرجل الجالس أمامه ظنه لشروده لم يسمع بذلك الاسم، فقال متحسرا: « أنا المعروف بالخفاجي، محمد بن أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله».

أردف موضحا أكثر: « عم مولاك الخليفة».

أشار الخفاجي إلى الرجل الجالس في الركن المعتم: « ذاك أخي أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله».

أضاف باذلا جهده في كظم غضبه: « ربما كنت أنا الخليفة الآن، لولا ما حدث بعد أن لفظ أخي المستنصر أنفاسه، فقد اعتقلني أعوان الأمير إقبال الشرابي، لعنه الله، والدويدار الصغير، سامحه الله، لينصبوا ابن أخي، عبد الله، خليفة على المسلمين..».

قاطعه أحد السجناء وهو يسحب خرقته ليغطي أسفل جسده: « سيدي الخفاجي معروف بمراسه الشديد، وشهامته التي لا حدود لها، وشجاعته الفائقة، بينما كان ابن أخيه عبد الله هينا لينا، ضعيف الرأي، فكان القبض على سيدنا الخفاجي فرصة ليستقل الشرابي والدويدار بأحوال الملك».

تابع الخفاجي كلامه: « لم يكتفيا بذلك، بل أشاعا أنني هربت إلى البادية. منذ خمس عشرة سنة وأنا رهين هذه الحفرة اللعينة، يزورني شخص واحد بين الحين والحين ليطمئن عليّ ، أما أفراد عائلتي الآخرون فسجناء في دار الشجرة».

سأله عبد القهار محاولا الاعتذار عما بدر منه من لهجة غير لائقة: «ومن هم، يا سيدي، هؤلاء الرجال الذين معك هنا؟».

حك صدره العاري قائلا: « كلهم من المغضوب عليهم من معارضي مولاك الخليفة».

ظل مرافق الوزير يحدث زملاءه الجدد ساعات عما دار خارج حفرة السجن من أحداث، وما يهدد بغداد من خطر، وحدثهم عن محلة الشماسية، وعن أمه، وعن الخادمة الأرمينية ماريا التي غيرت اسمها إلى مريم، والتي كانت ذات يوم جارية فائقة الجمال، تنحني أمامها رؤوس علية القوم التي أثقلها السكر، وعندما هرمت، وجدت نفسها في الشارع تستجدي المارة. أجابهم عن كل ما ودوا معرفته.

انتعشت آماله في الخلاص من تلك الورطة مرتين في ذلك النهار، عندما سمع صدى خطوات تهبط السلم على عجل ثم صرير الباب الخشبي السميك، لكن الحراس لم يسألوا عنه، أو ينادوا باسمه، وإنما ناولوا السجناء أرغفة الخبز اليابسة وصفيحة من الماء. لم تنقطع آماله حتى حين أطبق على الحفرة ظلام دامس.

لم يعرف كم مضى من الليل عندما سمع الخفاجي يسأله: « هل تعتقد أن المستعصم ينوي حقا الدفاع عن بغداد؟».

ردّ واثقا: «أعتقد ذلك، فبغداد تعني الخلافة، والخلافة تعني حياة مولاي المستعصم».

عاد يسأله بعد لحظات: «هل ترى المستعصم، مولاك، قادرا على الدفاع عن البلاد؟».

أجاب المرافق محاولا إقناع نفسه قبل محدثه: « الخليفة إمام كل المسلمين، وكلمة منه تدعو للجهاد تعد فرضا».

ناوله الخفاجي كسرة خبز، قال متهكما: « المستعصم لا يختلف كثيرا عمن سبقوه من الخلفاء. تصرف أجدادي وكأن بلاد المسلمين ملك صرف للعائلة، فوهبوا الأقاليم إلى الولاة ليورِّثوها لأولادهم من بعدهم، وتركوا أمور البلاد لوزرائهم».

بصق على الأرض بجانبه، أضاف، وقد وجد فرصة للتنفيس عما في صدره، أو أن وجود سجين جديد كانت فرصة ليعيد أقواله: « يقال إن جدي المأمون صرّح يوما أن من السهل عليه حكم الشرق والغرب، من أن يدير رقعة شطرنج مساحتها قدمان مربعان. هل تصدق ذلك؟ هراء! لقد كذب المأمون، فهو لم يستطع حتى توحيد أهل عاصمته بغداد الذين أمسوا أذلة أمام جبروت المرتزقة الأعاجم. أي إمام هذا الذي تتمرد عليه بلاد المسلمين؟ أظن أنك لا تريد مواجهة الحقيقة المحزنة، فالخليفة، يا عبد القهار، كما سمعت منك، لا يحكم سوى بغداد ومدن قريبة منها، فالشام تحت حكم الأيوبيين، والديار المصرية في فوضى بعد مقتل الملك المعز أيبك التركماني وشجرة الدر، والكرك والشوبك يحكمها فتح الدين عمر بن الملك العادل، وحماة تحت حكم ناصر الدين محمد بن محمود، واليمن استقر أمرها بيد شمس الدين يوسف بن عمر، والروم بيد السلاطين السلاجقة، وحتى الموصل القريبة تحكم فيها بدر الدين لؤلؤ الأتابكي. لقد ورث ابن أخي هذا الوضع المزري، لكن عيبه أنه عاجز عن تصحيح الأوضاع، وإعادة هيبة الدولة. لقد خُدع الخلفاء بما رماه الولاة إليهم من هدايا ليست أكثر من قنان وجوارٍ وفيلة، واعتقدوا أن لهم الكلمة العليا لمجرد أن أسماءهم تتردد

في خطب صلاة الجمعة في مساجد بعض الممالك. يا له من مسكين، مولاك الخليفة!».

كان الرجل يفور غضبا، فشعر عبد القهار بقلة حيلته في الدفاع عن الخليفة، الذي كان يراه رمز وحدة هذه الأمة التي تشتتت أقاليمها وتقاتل قادتها، فسأله ليخفف من همومه: «ما الذي فعله الخلفاء، في رأيك؟ ما الذي بدر منهم؟».

أجابه منتفضا: « الظلم. هل يشك أحد في ذلك؟ جعلتني سنوات محنتي هذه أنقب الذاكرة عما رأيته وسمعته وقرأته من تاريخ أجدادي، فكانت الحصيلة أنني بت أشعر بوطأة ما اقترفوه بحق الناس الأبرياء. كانوا أبشع من بني أمية. من الصعب عليّ الفخر بتاريخ حافل بمواسم قتل المعارضين، وقمع الفقراء، واستباحة المدن، ومصادرة الثروات، ونهب أموال الضعفاء. تمادى الخلفاء في غيهم، وبالغوا في ترفهم وتبذيرهم لأموال خلق الله، فما خلّفه الرشيد لا يعد ولا يحصى، وخلّف المكتفي مائة ألف ألف دينار. الفقراء ينامون في العراء، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، يعضهم الجوع ويأكلهم المرض، بينما الخلفاء سادرون في غيهم، يبنون القصور بآلاف آلاف الدنانير، ويبذرون الأموال في بناء سقوف من ذهب أو ينصبون أشجارا من فضة. بربك، هل هؤلاء هم أبناء عم النبي المصطفى، وخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؟ ليت الأمر اقتصر عليهم، فقد تركوا لوزرائهم سرقة أموال الناس، فمن أين جاءت ثروات البرامكة الذين عُد ما تبرعوا به من سرقات كرمًا لا حدود له؟ لقد بلغت واردات يحيى، الذي اشترى لواحدة من نسائه يوما آنية من الجوهر بسبعة آلاف ألف درهم، وابنه جعفر ، في السنة الواحدة، عشرين ألف ألف دينار. وصل الأمر إلى الجواري والمغنين أيضا. إنه تاريخ مليء بالفضائح لا يسر أحدا».

تنحنح قليلا موحيا أن حديثه لم ينتهِ بعد، فقال بعد قليل: « إن الانتماء إلى قريش، أو القرابة من الرسول، لا تمنح الحق في التحكم برقاب الناس، ولو كان كل بني هاشم منزَّهين عن الخطأ، لوجب الترحم على أبي لهب. كان من أجدادي، وللأسف، حفنة من طغاة وسرّاق ثروات وقتلة لا يخيفهم دين، ولا تردعهم قربى، فنكلوا حتى بآبائهم وبنيهم».

لم يتفوه مرافق الوزير عبد القهار بشيء، فقد صعقته تلك الكلمات التي سمعها لأول مرة. خفّ توتره قليلا: «حاول أبي، الظاهر بأمر الله، نشر العدالة وسيادة القانون، فلم يمهله المتنفذون في القصر أكثر من ثمانية أشهر ليموت بعدها ميتة غامضة».

تذكر عبد القهار ما كان قد سمعه عن جد الخفاجي، الخليفة الناصر لدين الله، وما يقال عنه إنه أثار أطماع المغول بالبلاد الإسلامية حين أغراهم بالقضاء على أعدائه من الخوارزمية، وعن تقلبات قراراته وتقتيره على عباد الله، وضعفه أمام رغبات زوجاته، فقد نصب الناصر ولده الأكبر أبا نصر محمدا وليا للعهد، لكنه لم يلبث بعد مدة أن عزله، ومنع ذكر اسمه على المنابر، معلنا تولية ابنه الصغير علي ولاية العهد، لكن مشيئة الله اقتضت أن يموت علي في الثانية عشرة من عمره، ولما لم يكن للناصر من ولد آخر، اضطر إلى إعادة أبي نصر الذي أصبح الخليفة وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، حاملا لقب الظاهر بأمر الله. كانت جملته الأولى حين اعتلائه كرسي الحكم مشيرا إلى كبر سنه: « ماذا يكسب من يفتح دكانه بعد العصر؟» ولما دخل إلى خزائن دار الخلافة، قال له أحد موظفي القصر: «كانت هذه الخزائن تمتلئ في أيام آبائك، ولعلها ستعود إلى ما كانت عليه» فقال الظاهر: «ما وُضعت خزائن الخلافة لتمتلئ، بل لتنفق في سبيل الله، فجمع المال شغل التجار».

قال عبد القهار مواسيا: «قيل عن المغفور له والدك إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله، فقد جمع الخشوع لربه، والعدل والإحسان لرعيته، وجدد من العدل ما كان دارسا، وأذكر من الإحسان ما كان منسيا. يقال إنه لما توفي اتفق خسوف القمر في تلك السنة مرتين. وما زال الناس يروون ما قاله الشيخ ابن الأثير، رحمه الله، يوم جاء رسولا من صاحب الموصل للتعزية بوفاة والدكم الظاهر: (ما لليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما؟ وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما؟)».

علق ممتنًّا: « صدقت يا عبد القهّار».

ثم قال متنهدا: « عذرا يا ولدي إن أثقلت عليك بالكلام، لكنها كانت شقشقة أراحتني. نم موكلا أمرك لعين لا تنام».

* * *

انتبه عبد القهار في ظهيرة اليوم التالي على صرير الباب الخشبي، فقفز واقفا، مليئا بمشاعر متباينة تدفقت في لحظة واحدة، لكن صوت الحارس الأجش طلب السيد الخفاجي الذي عدّل من وضع خرقته، ومشط شعره الطويل بأصابع يديه قبل مغادرته حجرة السجن. لم يكن الأمر، كما بدا لمرافق الوزير، مفاجئا للخفاجي وللحاضرين.

عاد الخفاجي بعد أقل من ساعة، متأبطا كيسا من القماش، وحاملا صينية كبيرة، وضعهما وسط الغرفة، وتطلّع إلى عبد القهار مبتسما. كانت الصينية مليئة بأكلة البورانية الشهية، خليط من الرز والباقلاء الخضراء ولحم الضأن والثوم والتوابل، غير أن القلق سد شهية عبد القهار. شق الخفاجي الكيس فتدحرجت منه تفاحات، تناول تفاحتين وتراجع إلى الوراء مخاطبا الرجال الآخرين: «تفضلوا».

قفز الآخرون فرحين، وانغمست أيديهم في الطعام لتتلاحق لقماتهم بشراهة دون أن ينبس أحدهم بحرف واحد. تابع عبد القهار المشهد مدهوشا. جلس الخفاجي بجانبه. ناوله تفاحة، قائلا بصوت خافت: «هذه الصينية هي الهدية التي تقدمها لي زين النساء في كل زيارة تختلس القيام بها. إنها امرأة طاهرة وسط عائلة دنستها الآثام. نكبها الخليفة في الشهر الأول من زواجها بقتل زوجها بتهمة التآمر على الدولة، يا له من ظلم!».

رفع رأسه بعد قليل وكأنه تذكر أمرا: «أخبرتها عنك فوعدتني أن تكلم أخاها في أمرك».

سأله عبد القهار بفضول كبير: «من هي؟».

أجابه مستغربا عدم معرفته بها مع أنه كان يصغي لأخبارها: «إنها زين النساء، بنت أخي، علية بنت أبي جعفر المستنصر».

حين أدرك أن إجابته لم تشبع لهفة عبد القهار وحب فضوله، قهقه موضحا: «بنت أخي علية، أخت مولاك عبد الله المستعصم. خلّف أخي المستنصر، رحمه الله، ثلاثة، شقيقين هما خليفتك المستعصم والأمير أبو القاسم عبد العزيز، وأخت لهما من أم أخرى، وهي علية».

أضاف متحسسا أسنانه بعد قضمه التفاحة: «مات أبو القاسم قبل سنوات طويلة بطريقة غامضة، أما علية فقبل ثلاث سنوات، خطبها عدد من رجال الدولة والولاة، لكنها رفضتهم. إذا أمكن للمستعصم قتل زوجها، فلا يمكنه إجبارها على الزواج ثانية ممن يختاره لها».

ودّ عبد القهار لو أن الخفاجي حدثه عن ابنته الأميرة أمل، عن طفولتها، عن تعلقه بها. تمنى لو كان بمقدوره أن يكشف للخفاجي عمق إعجابه بابنته،

برغبته في الزواج منها. أقر مع نفسه أنها أضغاث أحلام، فمن يكون هو ليقترن بابنة عم المستعصم وحفيدة الظاهر؟ مع أن ذلك كان صعبا، بل مستحيل، لكنه لم يستطع نسيانها حتى في لحظات تلك المحنة. ضحك في سره حين تذكر نادرة سمعها يوما عن رجل في مثل حاله. تقول النادرة إن شابا فقيرا معدما أخبر صديقه الذي يفوقه فقرا برغبته في الزواج من ابنة الخليفة، فرد عليه صاحبه ساخرا أن يرسل والديه إلى القصر لخطبة الفتاة. في اليوم التالي جاء الفقير الحالم فرحا وأخبر صديقه أن نصف المشكلة قد حل، فاندهش الآخر وحثه أن يبين ما تم حله. فقال الأول: استطعت حل نصف المشكلة بعد أن وافق والداي على الخطوبة ولم يبقَ سوى موافقة الخليفة وبنته.

في مساء ذلك اليوم، سمع من ينادي باسمه من وراء الباب الخشبي السميك. كان فرحا وهو يتلمس الجدار حتى وصل الباب على إيقاع أنين من داستهم رجلاه. سمع أزيز الباب، ثم سحبته قبضة قوية من الزنزانة ودفعته خارجها. خاطبه أحدهم، ولعله الحارس، أن يجلب متاعه من الزنزانة. لم يكن يملك أي متاع، غير أنه عاد للحفرة ليودع الخفاجي وأصحابه. لم يَرَ الوجوه لكنه أحس بعواطفهم من احتضانهم له وشدهم على يديه وما تفوهوا به من أمنيات، لم يبخل في الرد عليها بأمنيات أفضل. كان في داخله ممتنًا للخفاجي لما نوره به من حقائق، وإن كانت مؤلمة. اعتقد أن تاريخ العرب قد يكون أفضل مما هو عليه لو كان الخفاجي خليفة بعد أخيه. قاده الحارس نحو السلم الذي تبين بالكاد درجاته التي افترشها ضوء قليل تسرب من فانوس في أعلى فتحة السلم. توقع أن يجد في مقر مأمور السجن مولاه الوزير، لكنه وجد رئيس الديوان السيد الدامغاني بقامته الطويلة يستقبله بابتسامة عريضة، فاستبشر خيرا.

قال الدامغاني وقد اختفت ابتسامته: « لا شك أنك محظوظ في الخروج من هذا السجن المظلم الذي رموك فيه خطأ، بدل أن يذهبوا بك إلى سجن آخر. ما أرجوه أن تكون محظوظا أكثر عندما لا تعود إليه. عليك أن تنسى كل ما شاهدت أو سمعت هنا، وإذا ما نطقت بحرف واحد عن ذلك ستجد نفسك في موقف لا تحسد عليه لكشفك سرا من أسرار الدولة».

تساءل عبد القهار فرحا: «هل يعني هذا أنني حر الآن؟».

تشاغل رئيس ديوان الزمام عن النظر إليه، قال بعد حين: «لا، لكنك على أية حال لن تعود إلى هذا المكان».

هزّ رأسه موافقا. أضاف الدامغاني وهو يسحبه من يده خارجين من بناية السجن: « السيد الوزير ينتظرك عند الباب».

عانقه الوزير فرحا بسلامته. أخبره أنه لم يستطع مفاتحة الخليفة بأمره بسبب نوبات الصداع، وأنه ذهب بنفسه إلى حي الشماسية، وزار أمه، وطمأنها بأن ولدها كُلّف بمهمة وسيغيب بعض الوقت. أخبره أنه مطلوب للحضور في قصر الخلافة.

أضاف ابن العلقمي: « علمت أنك مطلوب للحضور إلى قصر التاج غدا، ويتوقف مصيرك على هذا الحضور. ما عليك سوى الذهاب إلى دارك والاستحمام والاستعداد لمقابلة أحدهم في القصر صباح الغد. كن ثابت القلب ، فالخوف يثير الشك».

* * *

9

تهتز الأرض فجأة ويتعالى دوي هائل يظل يتصاعد بوتيرة سريعة، كأن صخورا كبيرة تتقافز بسرعة، أو كائنات منقرضة تشق قشرة الأرض، لتعيد سيادتها عليها. أجنحة جوارح خرافية تحجب زرقة السماء، تنوء بما تحمله من كرات نارية ضخمة، لم تلبث أن ترخي مخالبها، فتسقط الكرات الملتهبة لتدك المنازل والطرقات والأسواق وتقتل البشر، تندلع الحرائق، ويتناوب الصراخ والأنين. تندفع زواحف عملاقة بجنون نحو أسوار المدينة، مثيرة غبارا عاليا ونافثة نارا يستطيل لهيبها ويتعاظم أثرها. تتوالى صرخات الفزع، وصيحات الاستغاثة، ويختلط الدعاء باللعنات، يدوس الناس المذعورون بعضهم بعضا، يرمون أنفسهم في النهر فتلتقطهم الزواحف، يلوذون بزوايا المدارس والجوامع والصوامع والمعابد وقبور الأولياء، فتلتهمهم النيران، وتسحقهم الحجارة، يتسلقون منائر المساجد وصلبان الكنائس، يقضّون مضاجع الموتى في مدافن الفقراء، لكن لا مناص.

لم ينهزم عبد الله كالآخرين رغم مخاطر الهلاك ووهج النيران التي تلفح وجهه. إنه يتلفت في حيرة، لا يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله، أو ربما ينتظر معجزة ما، يصد صخرة كبيرة، لكنها تحرق يديه، يوشك أن يختنق بالدخان الكثيف، حينذاك يستعد للهروب بحثا عن ملجأ أمين، لكن صوتا جهوريا

حازما يأمره بالوقوف. حين يلتفت، يرى دائرة يطوقها الدخان، يطل منها وجه شيخ يشع مهابة وكبرياء ووقارًا، يخضب الدم لحيته. الشيخ يتطلع إليه بحنوّ وأبوة، يقترب الخليفة من الشيخ أكثر، فيراه مسمرا على جذع نخلة، تقاطعت على جسده أخاديد خلفتها آثار السياط تيبس فيها الدم.

يقول الشيخ بنبرة حزينة، رانيًا إلى سحب الدخان التي تتصاعد ثم تتكور: «حين يحجب الحقد زرقة السماء، تتساقط جموع الناس كأوراق الشجر في فصل الخريف. تسود العتمة حين ترتفع سحب دخان الحرائق، فتفقد القدرة على تمييز الوجوه، وفرز العدو من الصديق. مكتوب على بغداد، المدينة التي أحب، أن تؤرخها الحرائق والنكبات، لكن نبض حياتها يتواصل بقرابين الدماء، تتطهر بالنار، تسجل ماضيها على أنقاض الخرائب. البلاء الأكبر قادم».

يتساءل الخليفة متطلعا بفزع إلى سور الدخان الكثيف الذي يحيطهما: «ماذا تنتظر هنا؟».

تنفرج شفتا الشيخ، وتشيع على وجهه الشاحب ابتسامة عذبة: « سيحضر الجلاد مع زبانيته بعد قليل ليشهد تنفيذ بقية حكم أراده الوزير، واقتنع به السلطان، وأقره الوعَّاظ بقطع رأسي، وحرق بدني بدعوى مواجهة الفتنة والردة، مع أنني أقسمت لهم أنهم كانوا مخطئين، داعيا الله قائلا: «هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك وتقربا إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم، لما ابتُلِيتُ بما ابتُلِيتُ، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد على ما تريد». اعرف يا ولدي حين يحترق النفط على جسدي يتصاعد منه عطر الرياحين، فالنفط واحد من كنوز هذه الأرض الطيبة. سيذرون رمادي في نهر دجلة.

هل تعلم أن ماء دجلة أطيب مياه الأرض؟ ليس لأنه من أنهار الجنة، بل لأن ماءه مصفى برماد الشهداء. إنهم يُسدون لي بهذا معروفا، ويمنحونني امتيازا، يدعونني أتوضأ بالدم، وأغتسل بالنفط، وأصلب على جذع أشرف الشجر، ويذوب رمادي في نهر ترعرعتُ على ضفتيه. ليس هناك من جديد، فلقد أدركت شهادتي حين وعيت الدنيا، واستبصرت صلبي قبل سنوات طويلة، وسيتحقق الموت الذي تمنيت جهادا في العشق. لكن لا بد من التنبيه والإنذار، فلا بقاء إلا للحبيب الأزلي. كلنا ميتون يا ولدي، وما سنوات العمر إلا فرصة لقول الحقيقة والشهادة. ألا تتفق معي في أن قيمة المرء أن يكون حقيقيا مع نفسه ومع الآخرين، حتى لو كلفه ذلك المشقة أو السجن، أو حتى الصلب على جذع نخلة؟ ما أثقل الأمانة على عنقك يا أبا أحمد! لو كنت مكانك لنزعتها.. لقد ورِثْتَ دولة تقطعت أجزاؤها، واستقل ولاتها، لكن عليك مهمة مقدسة..أن تحافظ على البقية، أن تبقي لبغداد ذكريات مجدها وكرامة أهلها.. الطريق شائكة يا عبد الله، والأعداء كثر، فأبصر طريقك جيدا، واستعِدّ للصعاب، أمتك هذه هي أمة محمد.. الحبيب محمد.. إنه سراج من نور الغيب بدأ وعاد، وجاوز السرج وساد. قمر تجلى من بين الأقمار. كوكب برجه في فلك الأسرار. سمّاه الحق أميا لجمع همته، وحرميا لعظم نعمته، ومكيا لتمكنه عند قربته. شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره، وأظهر بدره، طلع بدره من غمامة اليمامة، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة، وأضاء سراجه من معدن الكرامة. بإرشاده أبصرت العيون، وبه عرفت السرائر والضمائر. والحق أنطقه، والدليل أصدقه، والحق أطلقه... اهتدِ يا ولدي بسيرته وتسلح بثباته. انتبه يا عبد الله.. ضاعت الحدود يا ولدي بين الفجور والتقوى، بين الحق والباطل، بين الإيمان والطغيان، بين الأمر بالمعروف وانتهاك الحرمات. صارت الشريعة غطاء لقطع رؤوس

المعارضين، وتكفير المفكرين، واغتيال الكلمة ونهب الثروات. أصبحت الأنساب حصانة لارتكاب المعاصي، وسترا للذنوب، وتخويلا لتوزيع جنات الخلد ونيران الجحيم. حاشا للمعشوق التنكيل بعشاقه».

رويدا رويدا، غاب وجه الشيخ بين الدخان.

* * *

رفع جفنيه بحركة بطيئة، ربما ليجتاز بأمان ذلك الفاصل الزمني الواهي بين الحلم والواقع، أو ليستوعب فرحة النجاة لائذا بعالم الحواس. استرخت عضلات وجهه المحتقن، وتباعد حاجباه اللذان علتهما شعيرات بيضاء لامعة، لكن غمامة كآبة بقيت تظلل ملامحه. تطلع طويلا بنظرات ذاهلة إلى خرزات بعض عناقيد الثريا المتمايلة مع الريح المتسللة من نافذة غرفة النوم المشرعة على نهر دجلة، والتي كانت حافات ستائرها الديباج تخفق محدِثة وشوشة، هاتكة وحشة سكون الليل. مسح بباطن كفه عرقا باردا تفصد على جبينه، مرّر يده المرتعشة على غطاء السرير الحريري الناعم. تنهد مطمئنا. التفت إلى زوجته ليلى الجالسة على السرير تتأمله بحنو. استوى المستعصم جالسا محركا كتفيه على التناوب كأنه ينفض عنهما آثار رحلة مضنية، حدق في عيني زوجته يستنطقها بصمت إن كانت قد سمعت صرخة منه، أو كلمات فلتت أثناء نومه. لكنها بقيت في جلستها تراقبه بوله. أطرق برأسه إلى الأرض، قال بنبرة أثارت فيها قشعريرة وخوفا غامضا: «كان حلما فظيعا.. لا أدري.. ربما كان الحلم تنبيها عن اقتراب الخطر، أو زوبعة وساوس جالت في أعماق نفسي».

قالت ليلى وهي تمسد رأسه الحاسر: « أو ربما داهمك الصداع أثناء قيلولتك».

«لا.. لو كان قد داهمني لاستيقظت صارخا. رأيت نفسي بين نيران الحرائق».

«يقولون يا مولاي، النار في الحلم إنذار عن حرب وعذاب وخسارة وذنوب، وإذا ما كانت نارا لها جلبة ودوي، فذلك يعني فتنة يهلك فيها جمع كبير من الناس. ويقولون أيضا إن من رأى أنه أصابه وهج من نار، فذلك يعني أنه يقع في ألسنة الناس ويغتابونه».

تنفس الخليفة بعمق: « الفتنة محتملة الوقوع دائما.. تاريخنا زاخر بالفتن والاضطرابات والتمرد والكوارث.. أما رضا الناس فخاضع للأهواء والمصالح وتقلب الأمور».

استدرك متسائلا: «وأنتِ؟ هل تؤمنين بالأحلام؟».

ردت بوجه ضاحك: «لا أذكر من أحلامي غير تلك التي أرى فيها الراحلين من أحبتي ومناظر من طفولتي».

قال الخليفة متعكرا: «وإن كنت لا أهتم بتفسير الأحلام، لأنني أرى أن خير مفسر له هو صاحبه، وعليه اكتشاف ذلك في دواخله، لكن هذا الحلم قد راودني مرات في الأيام الأخيرة.. لقد بت أرى وميض الجمر الذي يعقبه ضرام، فالبلاد مهددة الآن بخطر الغزو.. رأيت الحلاج في حلمي.. لكن لماذا ظهر لي الحلاج يا ليلى؟».

نظرت إليه معاتبة: «ما هذا يا أبا أحمد؟ هل تشك في عدالة جدك المقتدر الذي ترك مصير الحلاج بيد وزيره؟».

«لم لا؟ لم يكن ذلك الوزير صالحا؛ لأنه انتهى بقطع عنقه بسبب جمعه الأموال بصورة غير مشروعة».

سألته مترددة: « ووزيرك ابن العلقمي؟».

«لا غبار عليه».

«إذا ماذا تقول دواخلك في تفسير حلمك؟».

قال واضعا رأسه بين يديه، مسندا مرفقيه على ركبتيه: «تجتاحني هواجس أن ثمة شيئا مروعا سيحدث.. كارثة ستحل. لعلها ستكون هذه المرة أكثر هولا مما شهدته عاصمة الدنيا من قبل، وربما يكون أسوأ من فيضان دجلة».

«وما الذي يمنعك من العمل على عدم حدوث الكارثة؟».

رد المستعصم نافضا رأسه: « لأنني لا أعرف كيف ستكون، ومم، لذلك لا أستطيع التكهن بها سوى هذا الهاجس الذي يروعني».

سحبته برفق إلى الفراش ثانية، وراحت تدلك جبينه بلمسات رقيقة، أما هو فقد أغمض عينيه عله يحظى بالنوم مرة أخرى، لكن بلا كوابيس.

* * *

مرافق الوزير، عبد القهار بن ناصر الدين الكندي، لم يغمض له جفن تلك الليلة. ظل نهب هواجس نهشت عقله، خدشت صلابته، طعَّمت مخيلته بصور التعذيب الرهيبة. صار سكون الليل صليل سيوف تدافعت لتقطعه، زئير أسود حير الوحش في دار الخلافة انتظرته كوجبة شهية. اجترت ذاكرته حكايات المعذبين التي يتناقلها الناس. قيل في سراديب قصور الخلافة حجرات ضيقة بأبواب ذات قضبان متقاطعة، تحيط بفسحة دائرية يعلوها عمود خشبي طويل يعلق به المغضوب عليه، فيجلده الزبانية أمام المعتقلين الآخرين. وبجوار تلك الغرف، هنالك حجرات أخرى، تملأ جدرانها آلات

القطع الحادة، والسكاكين الكبيرة المشحوذة، والفؤوس والحبال، وفي وسط الغرفة، جذع شجرة عريض تقطع عليه أيدي من يحكم عليهم الخليفة، أو أحد أفراد أسرته، أو أبناء عمومته، وهنالك تجري أيضا عمليات قطع الألسنة والآذان، وسمل العيون. تذكر أنه سأل يوما أحد أساتذته الشيوخ في المدرسة المستنصرية عن السبب في عدم إحالة القسم الأعظم من المغضوب عليهم إلى المحاكم فيقرر القضاة مصيرهم، أجاب الأستاذ بنبرة حزن وألم: «لا فرق اليوم بين القضاة وزبانية السلطان. أما الحديث عن قضاة مثل يحيى ابن أكثم وأبي يوسف الأنصاري، فقد أصبح جزءا من الأساطير. عندما يتحول الخوف من الله إلى الخوف من السلطان، لا يبقى للعدالة وجود». تذكر عبد القهار قوله للشيخ الذي فوجئ به: «المسألة يا شيخ ليست في عدالة القضاة، بل الحكام الملتزمين بقرارات القضاة واحترام العدالة». ردّ الأستاذ الشيخ غاضبا: «إن كنت تعرف هذا فلم جئت تسألني؟».

لعلها المرة الأولى التي يفكر فيها بجد في مظالم الناس وغياب العدل. كل واحد من الرعية متهم حتى تثبت إدانته. الملك لله ولأمير المؤمنين، وعائلة أمير المؤمنين، وحاشية أمير المؤمنين، ومن ضمنهم الوزير والدويدار والبقية من الحاشية. من حق أي واحد منهم أن يصادر أية بضاعة تعجبه، ويغتصب دارا تروق له، يتزوج من يشاء، ويتخذ العشرات من الخدم والجواري والسرايا، معظم رجال العائلة الحاكمة وحاشيتها ينهبون بيت مال المسلمين في النهار، وفي الليل ينثرون قطع الذهب على رؤوس المغنيات والراقصات والعازفات. أما رجال الشرطة فوظيفتهم ملاحقة من تغيَّب عن صلاة الجماعة، ومن أفطر في رمضان، والقضاة يصدرون أحكاما جائرة بحق من سرق رغيفا، أو دخل بستانا يلتقط فاكهة فِجة أو يعلس تمرا يابسا.

ظل يقطع ساحة الدار جيئة وذهابا. بات يرى على نخيل بستانهم رجالا مصلوبين كلهم نسخة منه. ماذا يريد منه أمير المؤمنين؟ كانت مفردة «أمير» تصفعه كلما هدأ روعه، فصاحب هذه المفردة متحكم في رقاب العباد، يكرم من يشاء، ويقتل من يشاء، مصير الناس متروك لمزاجه. لكن، لماذا يحكم عليه بالموت بتهمة التجسس؟ ومع إدراكه أن كل مخاوفه ينسجها عقله، إلا أنه لم يستبعد أي احتمال. نهض مرات في تلك الليلة، دار في حوش الدار وكأنه يلقي عليه نظرة الوداع الأخير. اقتنصته أمه في لحظات القلق تلك. طمأنها بأنه كان يفكر في مهمة كلفه بها الوزير ابن العلقمي.

في الصباح الباكر، تبعته أمه والعجوز الأرمينية مريم إلى باب الدار، وهما تلهجان بالدعاء له بالتوفيق والسلامة، وأن يحفظه الله والمسيح. ظلتا واقفتين عند الباب متلفعتين بمرطيهما حتى غاب عن بصرهما. كان موعده مع الوزير عند باب النوبي.

أثار قلقه من جديد حاجب باب النوبي، تاج الدين علي بن الدوامي، حين سأله: « لا يأمر أمير المؤمنين بإحضار أحد إلى قصر الخلافة إلا واحد من اثنين، إما أن يكون مسيئا ليعاقبه، أو مجيدا ليكافئه. ما السوء الذي فعلته أو الفعل الذي أجدته؟».

«لا شيء».

«إذًا، عليك بالدعاء ليكون الله معك».

بعد لحظات، وقف الحاجب أمامه، واضعا يديه في جيبي سرواله العريض: « إذا كنت ستقابل الخليفة، فيمكنك أن تضمن سلامتك إن كنت تجيد الغناء، أو تحسن إلقاء النوادر الفكهة، فمولانا أمير المؤمنين يحب سماع

الأغاني والنوادر. قبل أيام قبض رجال شحنة بغداد على قاطع طريق، وعندما أمر مولانا الخليفة بإحضاره والمثول بين يديه، أيقن أن الخليفة حتما سيأمر بقتله، لكن قاطع الطريق اللعين انتهز الفرصة ليروي النوادر تلو النوادر، حتى ضج أمير المؤمنين بالضحك، فأمر بإطلاق سراحه وإعطائه مبلغا من المال. أما إذا كنت ستقابل أبا العباس، ابن الخليفة، فعليك أن تعده برشوة كبيرة، وهو لا يتركك حتى يستلمها. وإذا كنت ستقابل إحدى زوجات مولانا أمير المؤمنين، فحاول إضحاكها بحركات المهرجين».

زادت تلك الحكاية من هلع عبد القهار؛ لأنه أدرك أن مصيره يقرره الحظ والمزاج والرشوة والتهريج وليس العدل والمنطق.

بعد ساعة، جاء رئيس الديوان فخر الدين الدامغاني ليقوده بين أروقة قصر التاج. كانت نظرات الدامغاني إليه محايدة لا تفصح عن شيء. توقف عند باب إحدى الغرف، وطرقه طرقات خفيفة، قبل أن يدير مقبض الباب ويدفع عبد القهار برفق إلى الداخل، ويغلق الباب.

كانت مفاجأة مذهلة لم يتوقعها، وجد نفسه أمام أمير المؤمنين، الخليفة المستعصم بالله وجها لوجه. بهرت عبد القهار رؤية الخليفة عن قرب وفي مكان خاص فأنسته كل مخاوفه. انحنى مسلِّما عليه.

كان الخليفة جالسا على أريكة من دون عمامة أو قباء. سأله الخليفة بعد أن دقق النظر فيه: «قُبض عليك بتهمة خطيرة، لم أصدق ذلك، لكنني أريد أن أعرف لماذا كنت تتنصت على ما كان يدور في قاعة القصر».

أجاب عبد القهار مرتبكا: «كانت المرة الأولى التي أراك فيها يا أمير المؤمنين، والمرة الأولى التي أرى فيها قاعة مثل قاعة القصر وما حوته».

ابتسم المستعصم مطمئنا: «أصدقك. أنت الآن تراني مليا. حدثني عنك ابن العلقمي وامتدحك كثيرا، لكنه لم يكن من نبهني بأمرك، إنها الأميرة شقيقتي علية بنت أبي جعفر المنصور».

نهض الخليفة واقفا، قال بصوت خفيض: «سأكلفك بمهمة سرية، ربما يعرف البعض بهذه المهمة، لكنه لا يعرف من سيكلف بها. إن أي خطأ منك يعرضك للموت. ما سمعته عنك وعن شجاعتك وانضباطك في الجيش، جعلني أختارك لمهمة تخدم بها المسلمين وسلامة بلادك. لم أخترك إلا بعد أن استوثقت أمرك. أريد أن يكون صدرك أوسع لسرك. إن أمناء الأسرار أقل وجودًا من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار؛ لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وقد قيل : من حصَّن سره، فله بتحصينه خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات» .

قال عبد القهار باعتداد وفخر: «أنا حاضر لأية مهمة يا مولاي. أما عن كتمان الأمر، فأعدك يا مولاي بأني لن أكون مثل ذلك الفقيه الذي اطلع على أسرار لا يحتملها العامة، ضاق صدره بها فذهب إلى العراء، وحفر حفرة أودعها دَنًّا، وراح يختلف على هذا الدن يحدثه بما سمع، فيروِّح عن قلبه، ولا مثل الأعمش ، سليمان بن مهران، الذي كان حين يضيق صدره بما فيه، ولم يرد أن يذيعه بين الناس، يقبل على شاته فيحدثها بالأخبار والفقه، بل سأقطع لساني كي لا يذاع سري».

هزّ الخليفة رأسه مرحبا بهذا الوعد، قال مربتا على كتف عبد القهار: «سترافق الوفد بصفتك تاجرا، ومهمتك جمع معلومات عن العدو. ما نفعله هو أسوة بالنبي ﷺ ، وما كان يفعله في غزواته، فكان يرسل العيون

لتأتي له بالأخبار. ما ستذكره من معلومات نعتمد عليها في قرارات نتخذها يتوقف عليها مصير الأمة. أعرف أنك صادق من ثبات قدمك، وقوة قلبك، ووضوح بيانك، لكنني أؤكد عليك أكثر أن تكون صادقا في كل كبيرة وصغيرة، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة.. ولا بأس من تذكيرك بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « من كانت له عند الناس ثلاث وجبت له عليهم ثلاث، من إذا حدثهم صدقهم، وإذا ائتمنوه لم يخنهم، وإذا وعدهم وفى لهم، وجب له عليهم أن تحبه قلوبهم، وتنطق بالثناء عليه ألسنتهم، وتظهر له معونتهم».

أضاف المستعصم: «ابعث رسائلك السرية على عنوان دكان التاجر أبي المحاسن محمد بن بهاء الدين بكر التغلبي، في سوق السلطان، وهو أحد وكلائنا الثقاة. ومخافة أن تقع الرسائل بأيدي الأعداء، خاطبني بأخيك الكبير محمد الصقر. اكتب وكأنك تكتب لأخيك فعلا. اكتب كل شيء تراه وتسمعه، لأرى، فيما بعد، الأشياء بعينيك وقلمك، واكتب ما يخطر في بالك مما ترى في كشفه فائدة. اكتب بحرية تامة وكأنك تكتب لنفسك فقط. كل التفاصيل مهمة، لا تنسَ ذلك. اتبعني».

انحنى عبد القهار: «سمعا وطاعة يا مولاي».

وضع الخليفة عمامته على رأسه وارتدى قباءه وثبّت سيفه في حزامه، ومشى بخطوات سريعة وعبد القهار خلفه، لا يدري إلى أين يأخذه، بعد أن أكمل عليه جميع وصاياه. خرجا من القصر ثم دلفا يسارا، وتوقفا عند سقيفة تضم أبراج الحمام المبنية بهندسة رائعة والمزدانة بألوان زاهية. مدّ المستعصم يده إلى حمامة وراح يتأملها بإمعان وحنو، ثم سحب حمامة أخرى: «هاتان من حماماتي المفضلة. إنهما من الحمام الزاجل. أريدك أن تجد شخصا موثوقا

به وتعطيه بعض المال مما سيعطيك الدامغاني، مقابل أن يبعث رسالتين مع الحمامتين، واحدة بعد الأخرى، إذا عرف أن المغول بدءوا بالزحف علينا».

* * *

صباح التالي، غادرت قافلة وفد المغول أسوار بغداد محملة بصناديق كبيرة حوت نفائس هدايا المستعصم. وغادر مع القافلة رسول الخليفة الشيخ سبط ابن الجوزي ومعه عدد من الأعوان، كان من بينهم عدد من التجار، وضمنهم كان عبد القهار بن ناصر الدين ومتاعه وحمامتان حرص على إخفائهما وسلامتهما. لكن، وعلى مسافة غير بعيدة عن بغداد، تعرضت عصابة من السراق للقافلة، وأهانت أعضاء الوفد المغولي، وبعثرت أحمالهم، غير أن الوزير وحراسه، سارعوا لإنقاذ القافلة، وقد افتضح أمر السراق، فقد تبين أنهم مجموعة من الجنود حرضهم الدويدار.

قرأ ابن العلقمي في ملامح أعضاء الوفد وعيدا بأن تلك الإهانة لن تمر دون انتقام، فقرر أن يرافقهم حتى منتصف الطريق بين بغداد وتكريت.

* * *

في اليوم التالي، عندما عاد الوزير إلى المدينة، رأى الصبيان يتراكضون، والرجال يغادرون المساجد والدكاكين، وأبواب البيوت تغلق. أخبره الحراس أن أبا العباس أحمد بن المستعصم قد تعرض لمحاولة اغتيال، طعنه رجل ملثم عدة طعنات غير قاتلة، وقيل فيما بعد إن إحداها أصابت مذاكيره، وأصابت طعنة أخرى وركه. هرب الفاعل لكن أتباع أبي العباس ادعوا أنه من أهل الكرخ؛ لذلك هاجم جنود الدويدار الصغير الكرخ، ونهبوها واعتقلوا أعدادا كبيرة من أبنائها.

شعر ابن العلقمي بحراجة موقفه، فأهل الكرخ سيتهمونه بالتقاعس عن نصرتهم، وسيعتبره شيوخها خائنا لطائفته. أسرع بجواده إلى قصر التاج، لمقابلة الخليفة الذي كان على علم بما حصل. أخبره المستعصم أنه أرسل أمرا إلى الدويدار بالانسحاب، وأن حالة ابنه مستقرة، ولا تستدعي القلق، والأطباء يعالجون جراحه.

عاد الوزير إلى بيته، فوجد هناك وفدا من أهل الكرخ وأهل الحلة الساكنين في بغداد. أنذروه أنهم لن يترددوا في قتله إذا لم يمنع تكرار ذلك.

ظلت بغداد مهددة باندلاع فتنة طائفية، غير أن الشيوخ من أئمة الجوامع ورؤساء القبائل سارعوا لإخمادها في مهدها. الحسنة الوحيدة التي أسفرت عنها تلك الحادثة الخطيرة أن أبا العباس لم يعد يتجول في الأسواق لابتزاز التجار، واختطاف البنات من حرائر بغداد، بسبب مخاوفه من عملية اغتيال أخرى، وعدم رغبته في إظهار عرجه، فقد كانت الطعنة في وركه الأيمن.

راجت حينها شائعات كثيرة، فواحدة قالت إن الخليفة هو من خطط للاغتيال، بعد أن تمادى ابنه في استهتاره، وقالت أخرى إن أخاه أبا الفضل قد دبرها ليزيحه عن طريقه، وقالت شائعة قوية إن أبناء واحدة من الأسر البغدادية المفجوعة بمقتل أو اغتصاب بناتها على يد ابن الخليفة المدلل قد قاموا بالمحاولة انتقاما منه.

أما المستعصم فرأى في الأمر أكثر من ذلك، فاعتبره إسراف ولده في حماقاته، وعلامة إنذار على أن تذمر الناس قد يصل إلى التمرد.

***

10

الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الفقير لله، التاجر البغدادي عبد القهار بن ناصر الدين الحسين المنصور، إلى أخيه الكبير وسيده أبي أحمد محمد الصقر العراقي، حفظه الله ورعاه من كل مكروه، وأمن داره من كل شر.

أما بعد:

لم أصدق حتى هذه اللحظة أنني أكتب إليك مباشرة من دون وسيط أو رقيب، وأشعر بالغبطة أن سيدي أولاني هذه الثقة الكبيرة. أجد أنها فرصة مواتية أنتهزها لأبوح بما يثقل صدري، ويلجم لساني من الإفصاح به، فالفرصة لن تتكرر. إنها مغامرة أكثر منها فرصة، فربما أودت بي سطوري إلى الهلاك لأنها لن تعجب أخي وتنال رضاه، أو أنها قد تستفز غضبه؛ لأنني حقا أتغافل منذ اللحظة عما هو مسموح أو غير مسموح به من الكلام والتعليق. لا يهمني ما قد أتعرض له من عواقب صراحتي، بقدر ما يهمني أنني حصلت على موافقة الأخ الكبير لقول ما أشاء.

أقولها صريحة لك أيها الأخ الأكبر، إن الكثير من الأمور، أو معظمها محجوبة عنك، وما تراه من أحوال الرعية، تراه بعيون حاشيتك وليس بعينيك، فبينك وبين الرعية أستار دونها أستار، وما تعرفه عنهم مجرد تقارير يكتبها رجال القصر وفقا لمصالحهم، وإرضاء لما تحب. أهل البلاد، يا أخي وسيدي، أنهكتهم الأمراض والفيضان والأوبئة، وأذهلتهم أحكام المصادرة الموقَّعة بأختام الحاشية، وأثقلتهم الضرائب والرسوم والخراج، وأقضت مضاجعهم مداهمات الجنود الليلية، أحيانا بحجة وصول معلومات عن وجود ممنوعات أو التستر على محكوم هارب، أو معارض مطلوب، وأحيانا كثيرة من دون حجة تذكر. وتنتهي تلك الغارات بمصادرة الأشياء الثمينة، وتحطيم الأبواب وتدمير مقتنيات العمر وإثارة رعب النساء والصغار، والقبض على أشخاص أبرياء لا يطلق سراحهم إلا بعد دفع فدية كبيرة. أنا واثق يا سيدي وأخي الكبير أنك بريء من كل ذلك، فالحاشية تحول بينك وبين ما يجري في الخفاء. لم تعد العامة تعبأ بما يسمعونه من تهديدات خارجية؛ لأنهم ضاقوا ذرعا بالظلم والتسلط من قبل المتنفذين في الدولة. سامحني يا سيدي على ذكر ذلك، فأنا أقول ما يدور في خاطري. ولعلك ستصدم حين تعلم أن الكثيرين من المنكوبين من أهل العراق يعلقون آمالا على أي عدو أجنبي لعله يكون أكثر رحمة من حكامهم. أليس هذا مؤشرًا على ما بلغه الناس من يأس وخوف، وما نالوه من ظلم وإجحاف؟

كان السفر بين بغداد والموصل مريحا، ولم تتعرض القافلة لأية مصاعب، وعندما كنا نتوقف في الطريق أو نبات في الخانات، كنت أنتهز الفرصة للحديث مع بعض أعضاء الوفد المغولي الذين كانوا نخبة من أهل المعرفة والخبرة. لم أنل ثقتهم، إلا بعد أن ادعيت أنني مضطهد تعرضت ممتلكاته

للمصادرة ثلاث مرات على أيدي أعوان الخليفة، وسُجنت أكثر من مرة لرفضي دفع رشاوى لأعوان ابن الخليفة الذين يجوبون الأسواق لابتزاز التجار، ولم يفرج عني إلا بعد دفع رشوة أكبر، فأولاني أعضاء الوفد ثقتهم بعد امتحان عسير، كما تجنبت الحديث مع سبط ابن الجوزي أمامهم. سألوني عن أعمالي التجارية، وعن الغاية للذهاب إلى بلاد المغول، فأخبرتهم أن سفرتي هذه هي الأولى إلى بلادهم لأتعاقد على شراء الحرير والورق والبوصلات، وأفكر مستقبلا بحمل بضائع إلى بلادهم كالزجاجيات الملونة، والمصوغات الذهبية، والمنسوجات الصوفية، والأحجار الكريمة، فاطمأنوا لي.

هالني، يا أخي وسيدي، ما اكتشفته فيهم، فهم يمتلكون معلومات مهمة ومفصلة عن بلادنا، وكل ما يجري فيها، حتى محاولة الاغتيال الأثيمة، وما يزعمون من خلافات قائمة بين الوزير ابن العلقمي والدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، أو بين الوزير ونجلكم الكبير أبي العباس، وليس هذا فقط، بل إنهم يعرفون عدد قواتنا ومناطق توزيعها، بينما نحن لا نعرف عنهم إلا اليسير غير ذي فائدة. قلما تصل أخبارهم إلى الأمم، والسبب فيما أعتقد، أنه نادر أن يتمكن منهم جاسوس؛ لأن الغريب لا يتشبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه؛ فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل وتضيق طرق الهرب.

عندما وصلت القافلة إلى الموصل، دعانا صاحبها الأمير بدر الدين لؤلؤ للنزول ضيوفا عنده، غير أن حفاوته بالمغول كانت كبيرة، ولم يلقَ سبط ابن الجوزي مثلها، مع أنه ممثل خليفة المسلمين، فلم يجد غير الخدم ليبدي أمامهم امتعاضه. بعد العشاء، اختلى صاحب الموصل بالوفد المغولي وراء

أبواب مغلقة، وعندما خرجوا، كان الارتياح باديا عليهم. أتمنى يا سيدي أن أكون على خطأ فيما يتعلق بولاء لؤلؤ ونزاهته.

واصلنا طريقنا إلى خراسان، كان الطريق آمنا ما دام الإسماعيليون محاصَرين في قلاعهم. وكلما اقتربنا من حدود دولتهم، كان أعضاء الوفد المغولي يفيضون بالحديث أكثر.

ثمة ملاحظة أتمنى أن لا تغيب عن بال أخي وسيدي، وهي أنني في هذه الرسالة وما سيليها من رسائل، إن شاء الله، أنقل ما أسمعه، وفيه الغث والسمين، الواقع وما يشيعونه من أكاذيب بقصد إثارة الخوف بين الناس، أو أنهم يبالغون في قوتهم وقسوتهم لبث الرعب في نفوس المسلمين.

أخبرني أحدهم أن المغول لا ينسون الثأر ولو بعد سنين طويلة، لهذا لم تغب عن بالهم هزيمتهم بقيادة بجكتاي الصغير قبل اثني عشر عاما أمام أسوار بغداد، بسبب البسالة التي أبداها جيش الخليفة. أخبرني آخر أن السلطان الأعظم منكو، الذي أتصوره مغرورا عديم الحكمة، أوصى أخاه هولاكو قبل توجهه من العاصمة قراقوروم نحو الغرب بجيش عرمرم، أن يبدأ من كوهستان، مقر الإسماعيليين الملاحدة، ويدمر القلاع والأسوار، ثم يتوجه إلى العراق «فإذا بادر الخليفة إلى الطاعة فلا يتعرض له بسوء، أما إذا تكبر وعصى، ولم يوافق لسانه قلبه، فعلى هولاكو أن يلحقه بمن سبقه». سمعت منهم مثل هذا الهراء كثيرا. إنهم يا سيدي يضمرون الشر لبغداد، فقد سمعت منهم أن الخان الأعظم قال لأخيه هولاكو: « ابدأ بغزوك من جيحون إلى أقصى مصر مرورا بالحشاشين والأكراد والأتراك، وأجبر خليفة بغداد على الإذعان».

روى لي أحد الفرس، أثناء توقفنا في إحدى القرى، أن المدن الإسلامية التي تعرضت للغزو، تركها المغول أرضا خرابا، فبدت وكأن هزة أرضية قد

ضربتها، أو نجما سماويا قد هوى عليها. اللهم نجنا من بلائهم واحفظنا من همجيتهم.

علمت أن هؤلاء القوم يهاجمون في مواسم الدفء والربيع، حين تكتسي الأرض بخضرة العشب لتتغذى عليه دوابهم، فلا يحتاجون إلى حمل مؤنة ثقيلة تبطئ حركتهم. لا يقيمون بأرض واحدة أبدا، فمع اقتراب الشتاء ينتقلون الى المناطق الدافئة، وفى الصيف ينتجعون المواقع الباردة في الجبال. خيامهم مصنوعة من قضبان مغطاة باللباد، ونظرا لكونها مستديرة، توضع مع بعضها على صورة لطيفة، فهم يستطيعون جمعها فى حزمة واحدة، يحملونها معهم فى هجراتهم على ضرب من العربة له أربع عجلات. ولديهم أيضا نوع ممتاز من المركبات ذات العجلتين، وهي مغطاة باللباد، تحمي من يستقلونها من البلل. وهذه كلها تجرها الثيران والجمال.

هؤلاء المتوحشون كانوا بعد كل مجزرة، يقيمون احتفالا باحتساء «القمز»، حليب الفرس، المحمض، وهم جالسون على ألواح مشدودة على ظهور سجنائهم. ويقال إن أعدادا كبيرة منهم يموتون من شدة السكر. وأيد وحشيتهم ما قاله لي أحد العلماء المسلمين الذي التقيته في محطة لاستراحة القوافل، وكان ضمن قافلة متوجهة من بلاد فارس إلى العراق، ناسبا أقواله إلى ما كتبه صاحبه ابن الأثير، رحمه الله، قائلا: «حادثة المغول من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها، وعمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يُبْتَلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها. ومن أعظم ما يذكرون فعل بختنصر ببني إسرائيل بالبيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فهذه الحادثة التي استطار شرها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب

استدبرته الريح، فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد شاغرق، ثم منها إلى بخارى وسمرقند، فيملكونها ويبيدون أهلها، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها هلكًا وتخريبًا وقتلا وإبادة، وإلى الري وهمذان إلى حد العراق، ثم يقصدون أذربيجان ونواحيها ويخربونها ويستبيحونها في أقل من سنة، أمر لم يسمع بمثله، ثم ساروا من أذربيجان إلى دربند شروان، فملكوا مدنها وعبروا من عندها إلى بلاد اللان واللكز، فقتلوا وأسروا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم أكثر من الترك عددًا، فقتلوا من وقف، وهرب الباقون، واستولى المغول عليها. ومضت طائفة أخرى غير هؤلاء إلى غزنة وأعمالها وسجستان وكرمان، ففعلوا مثل هؤلاء بل أشد. هذا لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي ملك الدنيا، لم يملكها في هذه السرعة، وإنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا، وإنما رضي بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره، في نحو سنة، ولم يبقَ أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه، ثم إنهم كانوا لا يحتاجون إلى الميرة ومددهم يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر والخيل، يأكلون لحومها لا غير، يقطعون المسافات الطويلة في أيام قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغمض والهجوع، ولا يبالون بالحر والبرد، والسهل والوعر، طعامهم كف شعير، وشربهم من طرف البئر، يكاد أحدهم يتقوت بطرف أذن فرسه، يقطعها ويأكلها نيئة.. ويصبر على ذلك أيامًا عديدة، بل يكتفي هو وفرسه بحشيش الأرض».

قال لي أحد أعضاء الوفد إن مثالهم وقدوتهم هو مؤسس دولتهم جنكيز خان، لعنه الله وأخلده في الجحيم، والذي ولد وفي قبضته قطعة من دم متخثر. كان اسمه تيموجين، وعندما أعلن خانيته أقيم احتفال عظيم،

فجاءه راهب يسمى تكري بتي، ومعناها «صنم الله»، أستغفر الله، وكان هذا يتجول في البراري والجبال، وفي الشتاء القارس حافيا عاريا، يدعي أنه يأتيه فرس أدهم من الغيب فيركبه ويسري به إلى السماء، فيكلمه الخالق هناك ثم يرجع. جاء هذا الراهب وقال للخان : «أمرت من الله تعالى أن آتيك وأنبئك وسائر الناس بأن لا يدعوك تيموجين. ليكن اسمك جنكيز، وأن الله أعطاك كافة أقطار الأرض». ومعنى جنكيز، يا سيدي، قاهر العالم. لقد ارتكب هذا اللعين من المجازر الفظيعة الوحشية ما ينفي عنه انتماءه إلى الجنس البشري. ولعلك يا أخي وسيدي قد علمت بالكثير من أخباره.

ما استخلصته من أحاديثي مع أعضاء الوفد، ومع التجار ومع بعض ضحايا الغزو المغولي، أن حروب هؤلاء المتوحشين تتميز بسرعة انتشارهم، فهم ينتشرون بأعداد كبيرة في زمن قصير جدا، وفق نظام محكم، وتحت قيادة بارعة، واحتياطيات أمنية لم يسبق لها مثيل، وهم مستعدون لتحمل كل الظروف الصعبة القاسية جدا، فقادتهم يدربون جنودهم في الصحراء، ويدربونهم في الجليد، يدربونهم في الليل وفي النهار، وهكذا استطاعوا أن يغزوا مساحات شاسعة من الشرق في سنوات قليلة. ومما يتميزون به أيضا أنهم بلا قلب، فهم يقومون بحروب ومجازر دون أية رحمة أو تأنيب ضمير، إذا دخلوا مدينة دمروها تماما، وقتلوا كل سكانها، فلا يفرقون بين رجل وامرأة، ولا رضيع وشاب، ولا صغير وشيخ، ولا ظالم ومظلوم، ولا أعزل ومحارب، فغايتهم إبادة جماعية ودموية، لا تعرفها حتى وحوش الغابات. وهم أيضا لا يرون في الكون قوما مؤهلين ليكونوا على قدم المساواة معهم؛ لهذا لا يريدون أحدا بجوارهم إلا خاضعًا لهم، والعجيب في أمرهم، أنهم لا يترددون في الادعاء بأنهم ما جاءوا لبلاد غير بلادهم إلا للقضاء على الظلم والفساد ونشر العدل!

التقيت بعدد من أهل بخارى وسمرقند ممن أفلتوا من القتل الجماعي، واستوطنوا بلاد فارس منذ سنين طويلة، فرووا لي حكايات أحزنتني عما ألمَّ بأمة الإسلام هناك. يتذكر أحدهم أن المغول عندما هاجموا مدينة أوترار، وكانت تابعة لحكم السلطان محمد الخوارزمي، أخرجوا أهلها إلى ظاهرها وقتلوهم، وبقي القائد الخوارزمي، غاير خان، في عشرين ألفا من عسكره متفرقين في دروب المدينة، لم يتمكن منهم المغول، وكانوا يخرجون خمسين خمسين يقاتلون ويطعنون في عسكر المغول ثم يقتلون. وظل هذا دأبهم شهرا إلى أن بقي غاير خان ومعه نفران يجالدون من سطح دار السلطنة، وكان قد أذيع بين الناس مرسوم الخان أن لا يقتل غايرخان في الحرب وطلب أن يحمل إليه حيا. وعندما قُتل صاحباه، ظل وحده يقاتل بالآجر الذي كان الجواري يناولنه من الجدار، فلما عجز عن المنازلة، أحاط به المغول وقبضوا عليه وحملوه إلى جنكيز خان فقتله بيده.

هؤلاء الناس الذين التقيتهم لم يلقوا اللوم على المغول فقط، بل أيضا على حظهم العاثر الذي جاء بهم في زمن انصرف فيه حكامهم إلى الترف واللهو واللعب، فقالوا إن جلال الدين بن خوارزم شاه، لما هرب من المغول تبعوه فكان إذا رحل عن بلدة نزلوها بعده، وإذا أصبح في مكان أمسوا هم في المكان يريدون قصده، وهو مع ذلك مواصل لشرب الخمر، عاكف على الدف والزمر، لا ينام إلا سكران، ولا يصبح إلا مخمورًا نشوان، وعسكره في كل يوم يقل، وأمره في كل يوم يزداد اضطرابًا، ورأيه في كل لحظة متقلب، وهو لا يشعر بذلك ولا يلتفت إليه.

وروى آخرون من بقايا أهل بخارى ما حل بمدينتهم من قتل ودمار، فبعد أن دخل الكفار البلد نهبوا وقتلوا من وجدوا فيه، فلما أحاط اللعين

جنكيز خان بالمسلمين الباقين، أمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم، وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ وتمزقوا كل ممزق، واقتسم الكفار النساء أيضا وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغنَ بالأمس. والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل فيهم، ومن لم يرضَ بذلك اختار الموت، فقاتل حتى قُتل. إن عيني تدمعان ويدي ترتجف وأنا أسطر لك هذه المآسي التي تقشعر لها الأبدان. فاعذرني يا سيدي إن توقفت عند هذا.

تقبل من أخيكم الصغير كل التقدير والاحترام.

العشرون من شهر ربيع الأول سنة 655 للهجرة

* * *

11

ظل المستعصم يقظا بعد صلاة الصبح. غادر فراشه وارتدى ملابسه على عجل. كان الفجر قد بزغ على حريم دار الخلافة وعلى المدينة، لكن القصر مازال ملفوفا بالظلام. تلمس الجدار في طريقه إلى الشرفة. استعاد سطور رسالة عبد القهار. أثنى مع نفسه على حكمة اختياره لشاب جمع بين المعرفة والشجاعة والنباهة. لم يغب عن باله ما ذكره عبد القهار، فقد كان يعلم بما يجري في البلاد، لكنه لا يستطيع إدانة الفاعلين، فهم من كبار رجال الدولة، ولكل جماعته، فالدويدار الصغير أيبك الشركسي يتبعه الجند الأتراك وبعض المتطرفين من السنة بسبب عدائه للوزير، والوزير ابن العلقمي يتبعه المتطرفون من الشيعة، وسليمان شاه محسوب على أيبك، والدويدار الكبير الطبرسي محسوب على ابن العلقمي. أما ابنه أبو العباس، فأية عقوبة تناله تثير الشامتين وتزعزع البيت العباسي. ما يقلقه هو الخطر المغولي. ماذا لو أن هؤلاء الوحوش قرروا الهجوم على بغداد؟ لا، لا، ليست بغداد سمرقند أو بخارى. لم لا؟ بغداد بشهرتها وكنوزها أكثر إغراء من تلك المدن الشرقية. ألم يكن جيش الخوارزميين أكبر عدة من جيش بغداد؟ لا، هذه مقارنة ظالمة، فليس مقام سلطان خوارزم مثل مقام خليفة المسلمين جميعا. هنالك فرق آخر تذكره، كان المغول حينذاك بقيادة جنكيز خان الذي كان قائدا محنكا، أما الآن فجيوشهم يقودها أمراء في سن الشباب، قد تتوفر فيهم الشجاعة، لكن

تنقصهم الخبرة والإدارة. هل تحتاج جيوش المغول إذا كانت كثيرة، كأسراب الجراد، إلى الخبرة والإدارة لتحقق غاياتها أمام جيوش أقل عددا وعدة؟ ماذا لو أن سبط ابن الجوزي فشل في مهمته؟ كيف يمكن لهولاكو تجاهل وصية أخيه الخان الأعظم بالهجوم على بغداد إذا رفض الخليفة الإذعان وإعلان الطاعة؟

شعر المستعصم أن ثقلا هائلا يضغط على صدره، يكتم أنفاسه. نزل إلى فناء القصر متشبثا بالحاجز الخشبي الموازي للسلم الحجري. مشى وحيدا في أحد أزقة حريم دار الخلافة. كان الناس يغطون في نوم عميق بعد أن تركوا بيده أمر سلامتهم وحمايتهم. قال لنفسه متحسرا: «لو علموا مبلغ الخطر الذي ينتظرهم لما أغمضوا عيونهم لحظة واحدة». تساءل فجأة: ماذا لو كان مرافق الوزير عبد القهار، ولغاية ما، يبالغ في وصفه، أو يخترع أقوالا ومشاهدات؟ لا، لو كان من الحاشية أو من أقاربه وأبناء عمومته لشك فيه. إنه، كما بدا من كلماته، صادق ومخلص وناصح. ماذا لو فعل هو مثل عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو مثل أبيه المستنصر أو جده الظاهر، يتفقد الرعية تحت شمس النهار أو تحت جناح الليل؟ لا، ليس ذلك بالأمر الهين، فكأنه حينها يقول للناس : تعالوا اقتلوني. لم يكن لعمر وعلي ما يخافانه، لم يملكا القصور والأموال فخافا ضياعها، ولم تكن الدنيا عندهما سوى عفطة عنز. لم يكونا خائفين، مع علمهما أن الأعداء يتربصون بهما وهما بلا أية حماية، بل تمنيا الشهادة، فحصلا عليها وهما يقفان في حضرة الخالق، ولم تكن الأحوال مضطربة في زمن أبيه وجده. إنه ليس أول خليفة يحتجب عن الناس، فقد اضطر الخلفاء قبله إلى الاحتجاب حفاظا على أرواحهم من عمليات الاغتيال التي اشتهر بها الملاحدة الإسماعيلية النزاريون، الذين استطاعوا أن يغتالوا

اثنين من الخلفاء العباسيين بواسطة فدائييهم وهما المسترشد ونجله الراشد، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل اغتالوا أيضا عددا كبيرا من الرؤساء، وحتى القضاة وعلماء السنة، هذا ما عدا الهجمات المتكررة التي كانوا يقومون بها ضد المناطق المجاورة على شكل عصابات، وكانوا يغنمون من ورائها.

دار في خاطره مرة أخرى حديث عبد القهار عن الوضع الداخلي. إن الضابط عبد القهار لم يأتِ بجديد في الحديث عن معاناة الناس، إنه يعرف ذلك من خلال ما بثه من عيون في الأزقة والأسواق، لكن الأمور لا يمكن أن تسير من دون حدوث ظلم ورشاوى وفساد، فليس باستطاعته الإتيان بحاشية أخرى، إلا إذا استطاع أن يعيد صحابة النبي الكريم إلى الحياة. حتى لو فعل هذا المستحيل، فسيجد نفسه وحيدا؛ لأن الصحابة لن يمكثوا معه لحظة واحدة، لأنهم لم يتعودوا العيش في قصور شُيِّدت بأموال المساكين، ولا يرتضون لخليفة خلفاء رسول الله أن يكتنز الأموال، وهناك فقراء يموتون جوعا. هل هو حاكم عادل؟ لم يستطع الإجابة على تساؤله. كان ابن النيّار كثيرا ما يردد عليه في دروسه إن السلطان إمام متبوع، ودين مشروع، فإن ظلم جارت الحكام لظلمه، وإن عدل لم يجر أحد في حكمه، من مكنه الله في أرضه وبلاده وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محله ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة، ويخلص الديانة، ويجمل السريرة، ويحسن السيرة، ويجعل العدل دأبه المعهود، والأجر غرضه المقصود، فالظلم يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب الفقر، ويهلك الأمم.

هل أدى الأمانة وأخلص الديانة؟ أجاب نفسه : نعم، إنه بذل ما في وسعه لتحقيق هذه الغاية. هل جعل العدل دأبه؟ لقد أوكل الأمر لأناس ارتجى فيهم العدل والمروءة، فهل عليه أن يدور في المدينة متخفيا ليرى إن كانوا عادلين أم ظلمة، فيعرض نفسه لخطر مؤكد؟ الله يعلم ما في السرائر.

قادته قدماه إلى دار السلاح، المكان الذي تُحفظ فيه الرؤوس المقطوعة للخارجين على الخلافة. حمل أحد المشاعل ودخل الخزانة. تذكر ما سمعه من أن المكان كان قبل خمسين سنة مليئا بالرؤوس التي صُفت على رفوف مع الجدران، وكل رأس يحكي قصة ثورة أو تمرد أو حرب أو مؤامرة، غير أن سقوط شمعة أشعل حريقا هائلا ترك الخزانة كوما من الرماد، أما الآن فالرؤوس المقطوعة المليئة بالتبن لا تزيد على الثلاثين رأسا. إنها حصيلة قليلة لخمسين سنة، أليس كذلك يا عبد الله؟ ربما لو كانت الرؤوس كثيرة لزادت هيبته، فعامة الناس يمتدحون من أجداده من أوغل في القتل، فعدد من قُطعت رؤوسهم في زمن أجداده المنصور والمتوكل والقاهر والراضي بالله والمستظهر يزيد عشرات المرات عن عدد الرؤوس المصطفة الآن على الرفوف. تبسم حين خطر في باله ما قاله رسول ملكة الهند رضية الدنيا والدين بنت السلطان شمس الدين ايتامش مملوك السلطان شهاب الدين الغوري. قال المبعوث الهندي: « هذه مفاجأة لي. قبل سنوات زرت بلاد الصين، وأتيح لي مشاهدة خزانة السلاح في القصر الإمبراطوري، فوجدت فيه متحفا للأسلحة القديمة والجديدة، فيدرك الزائر قدرتهم على الابتكار والاختراع، وكنت أظن أني سأشاهد مثلها في بغداد فإذا بي أشاهد رؤوسا مقطوعة». ردّ عليه حينها: «إننا أيها الضيف، نرى أن التقدم لا يتم دون قطع الرؤوس التي تعرقل مسيرتنا المظفرة». لم يكن مؤمنا بما قاله، لكنه كان الجواب الوحيد الذي تبادر إلى لسانه.

تنقلت عيناه بين الأوراق الصغيرة الصفراء المثبتة كل واحدة منها قرب الجمجمة أو الرأس، مكتوب عليها الاسم وتاريخ القتل أو الصلب، أو إن كان صاحبها قد قتل غيلة أو صبرا أو في معركة. قلب إحدى الجماجم بين

يديه. راعته النهاية المحتومة. محاجر وتجاويف وعظام هشة. لطالما ردد «المرء يصنع قدره»، فأين سينتهي رأسه؟ هل يجعله قدره رأسا مقطوعا محشوا بالتبن، منطفئ العينين، متيبس الجلد، أم سيكون جمجمة يركلها خف بعير أو حافر حصان أو قدم عابر سبيل؟ لن تكون جمجمته متميزة عن جمجمة خادم أو عبد مخصي، فالنهاية منصفة للجميع.

عند اجتيازه دار المسناة، رأى ضوءا ينبعث من فلقة الباب، فتسلل إلى الداخل. كان الضوء منبعثا من حجرة من خزنة دار الكتب في دار المسناة، كثيرا ما يرتادها ليجلس على مرتبة خاصة به، يقرأ كتابا، أو يثرثر لبعض الوقت مع مسؤول خزنة الكتب في دار الخلافة صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الأرموي، وحين يغادر، يبسط عبد المؤمن ملحفة على المرتبة ليرد عنها الغبار. لطالما افتخر بأن خزنة الكتب هذه أكبر مكتبة في الدنيا، لا تقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة في بلاد الأندلس التي نُهبت بعد سقوط المدينة بيد الإفرنج قبل عشرين عاما. لن يتكرر هذا في بغداد. كان ذلك ما ردده مع نفسه. خزنة الكتب في دار المسناة تحوي في حجراتها، ودهاليزها، وممراتها المليئة بالرفوف، عصارة فكر المسلمين في أكثر من خمسمائة عام. لقد جمعت كتبها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم الشريعة، ومن علوم الطب والفلك والكيمياء ومعرفة الأقاليم والبلدان، والأدب والتاريخ والفلسفة وغيرها. خزنة الكتب هذه بدأت تنمو منذ مئات السنين، من زمن جده هارون الرشيد، وازدهرت في عهد المأمون، فقد كان المأمون يشترط على ملك الروم، في معاهداته معه، بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه، أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية. وظل الخلفاء العباسيون بعدهما يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس، حتى

صارت دارًا للعلم لا تدانيها دار. كان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثًا عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل.

كانت خزنة الكتب تشتمل على عدد ضخم من الغرف، وقد خصصت كل مجموعة من الغرف لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات معينة لكتب الفقه، وحجرات أخرى لكتب الطب، وهناك حجرات ثالثة لكتب الكيمياء ، ورابعة للبحوث ، وهكذا. وفي النهار، تضج الدار بالموظفين القائمين على رعايتها، وبالنسّاخين الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وبالعاملين على السلالم ليناولوا الكتب من أماكنها العالية، وبالمترجمين الذين يترجمون الكتب الأجنبية المكتوبة باليونانية والسريانية والهندية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية، وتضج بالقراء والباحثين. وفي الدار أيضا غرف خاصة للمطالعة، وغرف خاصة للدراسة وحلقات النقاش والندوات العلمية، وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، بل وكانت هناك غرف للإقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من أماكن قصية.

لكن كان هنالك رجل آخر بدلا من الأرموي، وثمة شخص ملتف بالملحفة. دخل الخليفة بحذر ماشيا على مقدم حذائه، فرأى عز الدين أبا حامد عبد الحميد بن هبة الله أبي الحديد، أمين مكتبات بغداد، ينسخ كتابا، والذي ما إن شاهد الخليفة حتى عقدت الدهشة لسانه فظل فاتحا فمه، فأشار إليه الخليفة بالسكوت. تمنى ابن أبي الحديد لو أنه جاء ببعض رقاع لأناس يرجون من الخليفة قضاء حوائجهم لعرضها عليه، فقد حدثه الشيخ صدر الدين بن النيار شيخ الخليفة يوما قائلا: «دخلت مرة إلى خزانة الكتب على عادتي، وفي كمي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج، فطرحت

المنديل وفيه الرقاع في موضعي، ثم قمت لبعض شأني. فلما عدت إلى الخزانة بعد ساعة، حللت الرقاع من المنديل حتى أتأملها وأقدم منها المهم، فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة المستعصم بالله بالإجابة إلى جميع ما فيها، فعلمت أن الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامي فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقَّع على جميعها».

قال ابن أبي الحديد هامسا بعد أن اقترب منه المستعصم: «استأذنت، يا مولاي، الأرموي في نسخ كتاب من خزنتكم، وبعد صلاة الصبح، جاء عبدول المجنون، وتوسل إليّ أن أدعه يقضي ما تبقى من الليل في الغرفة، فنام قريبًا من المرتبة المخصصة لمولانا، واستغرق في النوم، فتقلب حتى تلفف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة، ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند، وكنت مشغولا بالنسخ، فهل أوقظه يا أمير المؤمنين؟».

قال الخليفة بصوت خفيض: « هذا المسكين الذي قد نام حتى تلفف في هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند، متى هجمت عليه حتى يستيقظ ويعلم أني قد شاهدته على هذه الحال، تتفطر مرارته من الخوف، فأيقظه أنت برفق فإني سأخرج إلى البستان ثم أعود».

خرج الخليفة، فأيقظ ابن أبي الحديد عبدول المجنون وأصلح المرتبة، وعاد المستعصم إلى الغرفة ثانية. طلب من ابن أبي الحديد أن يجلس لأنه يريد أن يستشف رأيه في عدد من الأمور. أبدى الخليفة إعجابه بهمة ابن أبي الحديد، الذي أخبره بأنه قد أنجز ستة عشر مجلدا من كتابه الموسوعي «شرح نهج البلاغة». قال الخليفة: «قل لي ابن أبي الحديد، ما الذي يدفعك إلى مثل هذه المثابرة؟ هل هي المكافأة التي تحصل عليها من الوزير ابن العلقمي أم هي رغبة في المزيد من الشهرة؟».

أجاب ابن أبي الحديد وهو يغلق الكتاب المفتوح أمامه باسطا يديه على الطاولة: « لا هذا ولا ذاك يا أمير المؤمنين. إنني وقد تجاوزت السادسة والستين، لا أطمع في مكافأة غير ما يوفر لي لقمة العيش والتفرغ للكتابة، ولا أطمع في المزيد من الشهرة، فما كتبته حتى الآن قد ضمن لي ذلك وإن لم يكن هدفي. الكتابة يا مولاي تجعلني أتعلق بالحياة، تجعلني أواصل السعي إلى الصعود، وإذا ما اعتقد المرء أنه وصل القمة، فليس أمامه غير النزول إلى القاع، كي يستوطن حفرة القبر. فمن لا يريد الموت عليه مواصلة الصعود، ومن يمت على السفح، أفضل له من أن يذهب برجليه إلى حفرته. المرء بعد عمر طويل لن يندم على ما فعله، بل على ما لم يفعله. أنا مؤمن يا مولاي بأن من يقم بعمل فعليه أن يؤديه بأكمل ما يكون، ليس من أجل نيل ثناء الآخرين، وإنما من أجل راحة نفسه. معظم المنجزات حققها أولئك الذين واصلوا المحاولة تلو المحاولة عندما لم يكن هناك أي أمل في النجاح. لا يخفى عليكم يا مولاي أن هنالك ما هو أقوى من الإرادة، وهو الشجاعة على البدء».

أطرق المستعصم برأسه مفكرا، قال بعد لحظات: «وأنا يا ابن أبي الحديد؟ حين توليت الخلافة كنت في القمة، فهل ترى أن سنوات حكمي كلها نزول إلى القاع؟».

أجاب ابن أبي الحديد مستدركا: «لا يا مولاي، إن مهمتك أن تكون في القمة لتساعد الآخرين على الصعود، على الرقي وبناء دولة قوية».

«هل تعتقد أنني نجحت في بناء دولة قوية متماسكة؟».

«نعم يا مولاي ضمن الإمكانات المتاحة أمامكم».

قهقه المستعصم: «بدأت تناور يا ابن أبي الحديد بالتلاعب بالألفاظ. أعرف أن الدولة ليست قوية كما أريد. ما هي برأيك مواصفات الرئيس الجيد، خليفة كان أو ملكا أو أميرا؟».

« أقول يا مولاي ما قاله الحكماء من قبل. أن يكون باب الرئيس مصونًا في وقت الصون، ومفتوحًا في وقت الفتح، وأن يكون مجلسه عامرًا بأفاضل الناس، وخيره واصلًا إلى كل أحد، وإحسانه فائضًا، ووجهه مبسوطًا، وخادمه مؤدبًا، وحاجبه كريمًا طلقًا، وبوابه لطيفًا، ودرهمه مبذولًا، وطعامه مأكولًا، وجاهه معرضًا، وتذكرته مسودة بالصلات والجوائز والصدقات، وأن يكون حازما. أحزم الملوك، يا أمير المؤمنين، من ملك جده هزله، وقهر رأيه هواه، وعبر عن ضميره فعله، ولم يختدعه رضاه عن حظه ولا غضبه عن كيده. وكان يقال: الحازم من الملوك من يبعث العيون على نفسه ويتفقدها حتى لا يكون الناس بعيبه أعلم منه بعيب نفسه. وقالوا: أحزم الملوك من حمل رعيته على التخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه بالرفق والتوصل الحسن والتأني اللطيف؛ لأن الرعية إذا تدارجوا إلى التخلق بأخلاق الملك والتأدب بآدابه، صاروا مستحسنين لصادرات أحواله وأفعاله؛ لأنهم هم يفعلونها ويعتمدونها فلا يصير أحد منهم يذم سيرته، ولا يزري عليه، ومتى كانت طباعهم منافيةً لطباعه وأخلاقهم مضادةً لأخلاقه، أُغروا بالإزراء عليه والذم لأفعاله».

تساءل الخليفة متطلعا في عيني محدثه: «أجبني بلا مداهنة، هل تراني حازما؟».

اضطرب ابن أبي الحديد ووجد نفسه محاصرا ولا بد له من الجواب. قال: «لم أتولَّ أمرا أو مهمة في قصر مولاي أو في منصب ذي صلة بأمير المؤمنين والتعامل معه؛ لذلك لا يمكنني إعطاء الجواب القاطع. لكن ذلك لا يمنعني

من القول إن قوة الإرادة موجودة يا أمير المؤمنين، لكنها لا تتوفر إلا حين تحدد في قلبك وعقلك الهدف الذي تريده، حينذاك لن يهدأ لك بال إلا حين تحصل على بغيتك».

لم يرتح المستعصم للجواب، فتساءل محاولا تغيير مجرى الحديث: « يقال إن قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها من عدل أو جور وجده فيها. أنت من الرعية، فما هي العيوب التي تراها الرعية فيّ؟».

رد ابن أبي الحديد متلجلجا: « حاشا لله أن يكون في أمير المؤمنين عيب».

تضاحك المستعصم ناهضا من مكانه، تطلع في الكتب المرصوصة على جدران الغرفة. سأل من دون أن يلتفت: «خلد المفكرون العباقرة ذكرهم في كتاباتهم، مثلما خلد الأبطال أسماءهم بسيوفهم، لكن أيهما أفضل: السيف أم القلم؟».

وقف ابن أبي الحديد وراء الخليفة ضاما يديه على حزام قبائه: « سئل أحد الحكماء أيهما أفضل الأغنياء أم العلماء؟ قال: بل العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الأغنياء بفضل العلم. والمملكة يا مولاي كما يقول الحكماء الأولون: تحرس بالسيف وتدبر بالقلم، واختلفوا في السيف والقلم أيهما أفضل وأولى بالتقديم، فقوم رأوا أن يكون القلم غالبًا للسيف، واحتجوا على مذهبهم بأن السيف يحفظ القلم فهو يجري معه مجرى الحارس والخادم، وقوم رأوا أن يكون السيف هو الغالب، واحتجوا بأن القلم يخدم السيف لأنه يحصل لأصحاب السيوف أرزاقهم فهو كالخادم له. وقوم قالوا: هما سواء ولا غنًى لأحدهما عن الآخر».

سأل المستعصم ضاحكا: «وأين الخليفة من كل هذا؟».

أجاب ابن أبي الحديد على الفور: «قال الحكماء يا أمير المؤمنين: المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة وتساس بالرياسة، وقالوا: الشجاعة لصاحب الدولة».

ردد المستعصم وهو يسحب كتابا من الرفوف: «أحسنت.. أحسنت يا ابن أبي الحديد».

فتح المستعصم بالله الكتاب متظاهرا بقراءة إحدى الصفحات، لكنه كان يستعيد كلمات ابن أبي الحديد الأخيرة. هل تراه كان يشير إلى اهتمام الخليفة بجمع المال، وأن العدل غائب الآن، وأنه لا يستطيع أن يسوس الأمور بحكمة، وأنه ليس شجاعا كأبيه؟ الناس لا يفرحون بغنى خليفتهم، يا للغرابة! هؤلاء المعترضون، هل سلب من أحد منهم درهما واحدا؟ حتى ذلك الشيخ ابن النيار الذي كاد أن يموت جوعا لولا عطايا الخليفة، لا يزال يردد أن المال حين تتصرف به فهو عبد لك، وعندما تزيد من جمعه يصبح ربا لك. لا جناح عليه، فقد بدت عليه علامات الخرف. أما الشيخ سبط ابن الجوزي، فطالما كرر على مسامعه أن من يدعي أن المال يفعل كل شيء، فهو الذي لا يتردد في فعل أي شيء من أجل جمع المال، وأن المال يجمعه فقط ذلك المتيقن من بقائه حيا إلى الأبد. إنهم يتقوَّلون كثيرا عن أمواله، لكن ما لديه من مال لا يعادل عشر ما كان في زمن جده الناصر ونصف ما كان في زمن أبيه المستنصر، إنه ليس كثيرا، غير أن الحسد يثير الحاشية، والطمع يعمي بصيرة الرعية.

والعدل، كيف يكون؟ لو أنه أطلق سراح عميه الخفاجي وأبي القاسم، فهل سيكفان عن تحريض الناس عليه، والتآمر على عزله؟ لم يجد بدا من سجنهما، ولو كان غيره خليفة لأمر بقطع رأسيهما. حين تجتمع زمرة من

المارقين تخطط للقضاء على الحكم بدعوى المطالبة بإقالة رئيس الشرطة بتهمة الرشوة والفساد، ألا يعد هذا تجاوزًا على السلطة في البلد وعلى قضاته وعلى الخليفة الذي اختارهم بعد تدقيق واختبار؟ لم يكن مخطئا حين أمر بالقبض على تلك الزمرة ورميها في السجن. لعل تسامحه السبب في ذلك، وإلا كيف يتجاسر عدد من الناس والعوائل على التظاهر أمام أبواب دار الخلافة مطالبين بإطلاق سراح المسجونين أو إحالتهم إلى المحاكم؟ أمر الخليفة فوق كل أمر، إنه المسؤول عن تطبيق الشريعة. ألم يكن صاحب فضل في بقاء رؤوس أولئك المعارضين الذين ما زالوا قابعين في السجون يملئون بطونهم بطعام تدفع الخزينة ثمنه، أليس هذا هو السخاء يا ابن أبي الحديد؟ ثم كيف تكون الحكمة في السياسة؟ المعارضون للحكم لا يكتمون امتعاضهم من تركه الحبل على الغارب أمام ولديه، يتهمونهما بأنهما صارا رئيسي عصابات تفرض الإتاوة في الأسواق، وتبتز التجار، وتغتصب النساء ، وتغتال المعارضين، وتسلب القوافل. لو أنه نزل عند رغبة المعارضين وحجز ولديه في القصور، كما كان يفعل الخلفاء من قبله، سيفقد قوة تدعم الحكم وتراقب الرعية وتوقف أعداء النظام عند حدهم. هل ينتظر منه ابن أبي الحديد أن يعلن تنازله عن الحكم ويقول للرعاع: الأمر شورى بينكم فتعالوا واختاروا واحدا منكم ليكون خليفة؟ ما الذي يقصده ابن أبي الحديد بقوله أو بقول غيره : «الشجاعة لصاحب الدولة»؟ إنه شجاع بما يكفي، ولأنه في القمة، فالمخاوف التي تراها العامة كبيرة مذهلة، يراها صغيرة تافهة لا تستحق حتى التفكير بها. يكفيه من الشجاعة أنه ما زال يمسك بعنان الأمور، على الرغم من تهديدات الأعداء في الخارج والمؤامرات في الداخل. لعله حقا فقد بعضا من شجاعته بعد تلك المحاولة لاغتياله. باتت أية حركة مفاجئة تفزعه. صحيح، لم يعد يرى في منامه سوى الكوابيس، وفي النهار يرى الآخرين يتحينون الفرص

لقتله. هل رأى ابن أبي الحديد ذلك في عينيه؟ لماذا قال ما قاله إذن؟ ربما فعل ذلك متعمدا، وربما تذكر مقولة فأدلى بها. تمنى لو استطاع أن يقرأ في عيني ابن أبي الحديد ما سيكتبه في كتابه عنه.

وضع المستعصم الكتاب في مكانه وغادر الغرفة على عجل.

* * *

شق ضياء ذلك الصباح الصيفي بقايا الظلام، وهب نسيم الصبا. أحس المستعصم بالريح الباردة المنعشة تدغدغ جبهته ووجنتيه. قادته قدماه إلى فناء القصر، تلفت حوله فلم ير سوى الحراس وهم منشغلون بتناول إفطارهم، وحين تأكد أن لا أحد رآه، تسلل وراء الأغصان المتشابكة، إلى ذلك المكان الذي كان يرتاده في صباه مع الجارية الجميلة. استغرب وجود وسادة بشرشف بالٍ لكنه نظيف على الدكة الحجرية، خطر في باله أن يكون أحد الحراس قد نام هناك بعد انتهاء نوبته. تمدد على الدكة وغط في النوم. جفل حين شعر أن أحدهم يجره من رجليه. رفع رأسه مضطربا ليرى أمامه عبدول المجنون وعيناه جاحظتان من الغضب. قال المجنون: «عجيب أمرك! كفرت بنبوءتي ثم استوليت على سريري. أليس لديك سرير آخر لتنام عليه؟».

ضحك الخليفة مدركا أن مناقشة المجنون مضيعة للوقت. اعتدل جالسا واضعا عمامته على رأسه، وجلس عبدول إلى جانبه، وهو يردد شعرا، فاستغرب الخليفة أن يحفظ مجنون شعرا، فسأله أن يردد بصوت عالٍ الشعر الذي يتمتم به، فقال عبدول ضاحكا:

بغـدادُ دارٌ لأهـلِ المـالِ واسـعةٌ ... وللصعاليكِ دارُ الضنكِ والضيقِ

ظللتُ أمشـي مضـافًا في أزقتِهـا ... كـأنني مصحـفٌ في بيتِ زنديـقِ

تغيرت سحنة المستعصم، فسأله حانقا: «من حفّظك هذين البيتين؟».

تراجع عبدول إلى الوراء خائفا: «صعاليك بغداد».

«ومن هم صعاليك بغداد أيها المجنون؟».

رد عبدول متلعثما: « إنهم أصدقائي».

صاح الخليفة غاضبا: « ومن هم أصدقاؤك؟».

«صعاليك بغداد».

دقق عبدول النظر في وجه الخليفة الذي استغرق في الضحك، فسأله مستغربا: «لماذا تضحك من دون سبب؟ هل أنت مجنون؟».

ردّ الخليفة متأوها: «ليس بعد. الذاكرة أصبحت عبئا، والتاريخ غول يلاحقني. ما أسعدك يا عبدول!».

قهقه عبدول مربتا على ظهر الخليفة: «أنت الآن تتكلم كالمجانين. أنت أنظف مجنون رأيته، فملابسك نظيفة فاخرة. الغريب أنهم يتهمونني بالجنون، أما أنت فيحترمونك. أنا أعرف السبب. إنهم أكثر جنونا منك. أنا أكثر شعبية منك. الأطفال يركضون وراني، والنساء لا يتحرجن في الابتسام لي، والرجال يلقونني ضاحكين. أما أنت فالجميع يخاف منك. ما يحيرني هو لماذا تكون أنت الخليفة وأنا لا؟ لكن لا، الناس هم المجانين لأنهم يطيعون مجنونا قد يقودهم إلى الهلاك» .

ضحك المستعصم عاليا: «لست مجنونا. عبدول. لو كنت مكاني، ماذا تفعل؟».

رفع عبدول رأسه، تطلع حوله فاتحا فمه ملء شدقيه مادا لسانه. قال بعد لحظات: «أجبر الناس أن يمشوا على أيديهم، هل تعرف لماذا؟ أنت لا تعرف.

حينذاك لن يضرب أحدهم الآخر وسيرون أنفسهم قريبين إلى الأرض وكل ما حولهم كبير وهائل. هل تدري؟ لا أحد يرتكب السرقة حينذاك لأن كل ما سيسرقه سيسقط من جيوبه.. أصدر أمرا أن يمشي الناس إلى الوراء كي لا تغيب عنهم سيئات ما فعلوه» .

سأله الخليفة: «هل هذا كل ما تتمناه؟».

أجاب عبدول متلمظا: «أطلب من الخدم إحضار طبق كبير من الزيرباج. هل ذقتها؟ يقولون إنها أكلة لذيذة، لو أكلتها لن تنسى طعمها أبدا. أنت لست خليفة إذا لم تعرف الزيرباج. كل الفقراء أمثالي يحلمون بالزيرباج. هل تعرف لماذا؟ ها.. لأن فيها قطعا كثيرة صغيرة من لحم سمين، مخلوطة بقليل من الملح والحمص والدارصيني، وممزوجة بالخل، ومعطرة بالزعفران، ومتوجة باللوز، ومرشوشة بماء الورد».

ضحك المستعصم ضحكا لم يضحكه منذ فترة بعيدة: «ويحك يا عبدول، تغنيت بالزيرباج وكأنك تتغنى بحبيبة. أثرت شهيتي أنا أيضا، هيا..».

انقطع عن الكلام حينما سمعا أصواتًا وجلبة عالية غير بعيدة عنهما. طلب من عبدول أن يرافقه ليعرفا سر الضجة، ثم يذهبا إلى أبراج الحمام القريبة من باب الغربة المطلة على نهر دجلة في الجهة الغربية من القصر، ويشاركه في إطلاق أسراب الحمام، لتحلق في الأعالي وتطوف حول المدينة، ويرافقه بعد ذلك إلى القصر ليأمر الطباخين بإعداد الزيرباج له. كانت الشمس قد أشرقت.

بوغت الجنود والحراس وهم يرون الخليفة ظهر بينهم فجأة. أعلمه أحد الحراس بأنهم وجدوا عند باب قصر الخليفة رقعة فيها أشعار، ففتشوا المكان

ولم يعثروا على من وضع الرقعة هناك. أخذ المستعصم الرقعة بعصبية، فقرأ فيها:

قـلْ للخليفةِ مهلا أتـــاكَ مـا لا تحبُّ
ها قد دَهَتْكَ فنونٌ منَ المصائبِ غربُ
فـانهـضْ بـعـزمٍ وإلا غشاكَ ويلٌ وحربُ
كـسرٌ وهـتـكٌ وأسرٌ ضربٌ ونهبٌ وسلبُ

صدمة أخرى وتهديد صريح. كشفت له الرقعة أن المتعلمين يقفون دوما في صف المناوئين، بل يتصدرونه الآن. أغدق عليهم العطاء، لكنهم يطمعون في المزيد، وإذا قصرت يداه عنهم انبروا في ذمه. أصواتهم دائما مسموعة، قصائدهم يدونها الكتاب، وحكاياتهم يتهافت عليها المؤرخون. ليس ذنب الشعراء، فالناس يحفظون قصائد الهجاء أكثر من حفظهم للمديح. من يكون صاحب تلك الأبيات؟ مشكلة بغداد أنها تغص بالشعراء. حاول أن يجعل الكثير منهم يتغنون بأمجاده وبعظمة أجداده، لكن القلة المتسترين عن العيون يهاجمونه بقسوة، والمصيبة أن الناس يحفظون ما قالوه. سيثبت لهؤلاء ولمستمعيهم أن صوت الشعراء الواقفين عند عتبة قصره أكثر دويا.

شعر أن نظرات الجنود مصوبة نحوه تنتظر منه كلمة أو أمرا، قال: «انصرفوا للبحث عنه». التفت إلى عبدول، فرآه يهرول مبتعدا صارخا: «المجانين لا يثقون بأحد. لم أكتب هذه الأبيات.. لم أكتب شيئا».

ركض عبدول نحو البستان، وهرع عدد من الحراس إلى مطاردته، أما المستعصم فمشى سريعا إلى داخل القصر. عندما جلس في مقره، استدعى رئيس الديوان الذي بادر الخليفة قائلا: «مولاي أمير المؤمنين، هل تأمرني

باعتقال جميع الشعراء لنتعرف على خطوطهم، ومن ثم نعرف كاتب تلك الأبيات؟».

قال الخليفة بنبرة حزينة: «لو كنت صادقا معي لكشفت عما قصده كاتب الأبيات من كسر وهتك وأسر وضرب ونهب وسلب. أعرف النتيجة مسبقا، ولو أحضرت القائمين بهذه الأفعال فلن ترى غير رجال الدولة ومسؤوليها الكبار».

زاغت عينا الدامغاني فهز رأسه بالتأييد. أضاف الخليفة: «لو اعتقلت الشعراء سيكون ذلك إجراء غبيًا».

رفع عينيه إلى الأعلى منقبا في ذاكرته: «لا أحب الشعراء، فهم حين يهجون، ينكرون الحقائق والوقائع ويتنكرون للفضل عليهم، وعندما يمدحون، يبلغون حد الكفر. هل نسيت ما قاله البحتري منشدا المتوكل:

وأرى الخلافةَ وهْيَ أعظمُ رتبةٍ ... حقًّا لكم ووراثـةً ما تُنْزَعُ
أعطاكُموها اللّـهُ عنْ علمٍ بكمْ ... واللّـهُ يعطي منْ يشاءُ ويمنعُ

أو ذلك الشاعر الذي استجدى جدي الخليفة المنصور قائلا :

آلَ عـبـاسٍ أنـتـمُ ... سادةُ الناسِ والغررْ
وأولـو الأمـرِ منكمُ ... حكماءٌ على البشـرْ
مـنْ رأى مـؤمـنًـا ... قد عصاكم فقـدْ كفرْ
أنـزلَ اللـهُ ذاكـمُ ... قبلُ في مُحْكَمِ السـورْ

قال الدامغاني بنبرة بطيئة حذرة: «العرب يا مولاي صناعتهم الكلام، فهم يعشقون الشعر ويحبون الاستماع إليه. ما الذي يمنع من كسبهم إلى جانبنا إن كنتم تعارضون اعتقالهم؟».

وجد المستعصم أن اقتراح رئيس الديوان مفيد وعملي: «حسنا، هنالك إجراء مفيد ومثمر. أعد الدعوة للشعراء للمشاركة في مهرجان شعري كبير وخصص له جوائز مالية كبيرة».

تهلل وجه الدامغاني، فتساءل فرحا: «نِعْمَ الفكرة يا مولاي، لكن متى؟ وما هي المناسبة؟».

فكر الخليفة قليلا: «في ربيع العام المقبل.. لنقل الذكرى السنوية السادسة والأربعون لولادتي».

صاح الدامغاني منفعلا: «العمر المديد لمولانا.. العمر المديد. وهل ستكون الجوائز من أموال أمير المؤمنين؟».

ردّ الخليفة بجفاء: «كالعادة من بيت مال المسلمين».

تقدم الدامغاني وقبّل يد الخليفة: «فكرة هائلة يا سيدي. أنا واثق يا مولاي أن مزاجكم سيكون رائقا عندما تسمعون الآن قصيدة في مدحكم».

انتبه المستعصم مدهوشا: «أحسنت يا دامغاني، من هو الشاعر؟».

أجاب الدامغاني فخورا بإنجازه: « إنه يا مولاي الشاعر المعروف المجد ابن النشابي، أسعد بن إبراهيم الأربلي».

جلس المستعصم على كرسيه في صدر القاعة. إنه واثق أن الشعراء يتملقونه، ولم ير شاعرا صادقا إلا من كتب قصائده للغزل أو في فضح الظلم والاستبداد، ومع ذلك يحس أحيانا بحاجته إلى مديحهم، فيشعر بالراحة، ويزداد ثقة بنفسه.

أمر الدامغاني بتهيئة صرر من الدنانير. فغاب رئيس الديوان قليلا ثم عاد راكضا حاملا بين يديه صررا من الدراهم والدنانير. وضعها المستعصم في حضنه وأمر بإحضار الشاعر.

قال الأربلي منشدا:

هل عندَ عطفِكَ عطفٌ ممسِكٌ رمقِي ... أم هَلْ ترقُّ لما ألقاهُ مـنْ أرقِـي
كأنَّ حسـنَكَ دنيانـا فنحـنُ بـه ... ما بينَ وصلِ سعيدٍ أو صدودِ شقِي
وعنـدَ شـعرِكَ تُتلى آيـةُ الغسـقِ ... ومـن مُحَيَّـاكَ تبـدو سـورةُ الفلـقِ

انتشى المستعصم وطرب، فرمى على الشاعر صرة من الدنانير، تركها الأربلي تسقط عند قدميه ليواصل إنشاده:

كأنَّ أرواحَ أهلِ العشـقِ سـائرةٌ ... إلى جمالِكَ بالتقريبِ والعنقِ
تـام كعبـة حسـنٍ خالهـا حجـرٌ ... في الخدِّ أسودُهُ في أبيضٍ يققِ
نـادتْ مـكـبرةً لمـا جـلـيـتَ لها ... سبحانَ مَنْ خلقَ الإنسانَ من علقِ
أرائـدٌ أنـتَ يـا طـرفي لتخبِرَني ... أيُّ الطريقِ إليهِ أسهلُ الطرقِ

رمى الخليفة إليه بصرة أخرى.

وأنتِ يا أضلُعي شبِّي الضرامَ لكي ... يهدي بنارِك ضيف الطيفِ في الغسقِ
فمـا سـرقْتُ بنومـي قـطُّ طـيفَهمُ ... إلا غدا النومُ مقطوعًا على السرقِ
ويا دموعي اسكبي لا تسكبي حذرا ... عليـه إن زارني من موجِـكِ الغَرِقِ
يا ساحرًا فيه جفني ساهـرٌ قلِقٌ ... وبالفراقِ فراقُ النفسِ منْ فرقِ
أخذتَ قلبي بظلمِ الصدِّ فاهدِ له ... ظلمًا عسى الظلمُ من ظلمِ الصدودِ يقِي

صاح الخليفة نشوان وهو يرمي بصرة ثالثة: ظلمنا دنانير يا ابن النشابي.

وانهضْ إلى روضةٍ أبدتْ أزاهِرَها مثلَ المجرةِ من زاهٍ ومتسقِ
أريضه كحلا الطاووس باكرها مر النسيمِ روى عن نشرِها العبقِ
تخالُ في كلِّ قطرٍ من جوانِبها وجهًا يُريكَ صفاتِ الشادنِ اللبقِ
فالأقحوانُ ثغورٌ والشقيقُ بها مثلُ الخدودِ ومنها نرجسُ الحدقِ
والعندليبُ ينادي في جوانِبها هُبُّوا فكمْ سِنةٍ أدتْ إلى أرقِ

رماه الخليفة بصرة رابعة.

كأنَّ أغصانَهُ أضحتْ منابرُهُ وشدُوهُ كخطيبٍ مسقعٍ ذلقِ
لو كانَ يفصحُ عن قولٍ أبانَ لنا مدحَ الخليفة مكتوبًا على الورقِ

نهض الخليفة حاملا ما تبقى من صرر الدنانير ووضعها بين يدي الشاعر قائلا بنشوة غامرة: «أنت العندليب، وقد أبنتَ لنا مدح الخليفة مكتوبًا على الورق».

والتفت إلى الدامغاني آمرا: «اصحبوا الأربلي إلى كل أسواق بغداد لينشد قصيدته فيها. استنسخوا القصيدة وعلقوها على أبواب حريم دار الخلافة».

* * *

12

الرسالة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الفقير لله، التاجر البغدادي عبد القهار بن ناصر الدين الحسين المنصور، إلى أخيه الكبير وسيده أبي أحمد محمد الصقر العراقي، حفظه الله ورعاه من كل مكروه، وأمن داره من كل شر.

أما بعد:

رسالتي هذه، كما أعتقد، بالغة الأهمية لما تتضمنه من معلومات قيمة عن جيوش العدو وتسليحها، راجيا التركيز على هذه المعلومات وإعطاءها انتباها أكثر. ولا أبالغ يا أخي وسيدي، إن قلت إنني عرضت نفسي لخطر الموت أكثر من مرة عند جمعي للمعلومات، من استنطاق أهالي القرى والبلدات التي مررنا بها، أو من خلال الحوارات مع أعضاء الوفد المغولي، أو من الحراس المغول الذين تناوبوا على مرافقة القافلة، وشك فيّ بعضهم وأُخضعت لاستجواب طويل قاسٍ، فلتُّ منه ببراعة.

إن أرضهم الخالية من الأشجار، عرضتهم للإصابة بالصواعق، ومن هنا كان تصميمهم لخوذهم الحديدية المدببة إلى الأعلى، ويرتدون دروعا

من صفائح الحديد مثبتة بملابس سميكة. أما سيوفهم فهي قصيرة، وأحيانا منحنية، وسهامهم رفيعة لكي لا تلائم أقواس الأقوام الأخرى فتستخدم ضدهم. يصنعون أقواسهم من طبقات من القرون والأعصاب، على إطار خشبي ولا يثنى القوس إلا بقوة رجلين. ويتمتع المغول، والحق يقال، بأرقى وأسرع خدمة بريد على الرغم من اتساع بلادهم وامتداد دولتهم.

تتولى النساء شئونهم التجارية، وأحيانا يقاتلن، وإذا قاتلن يقاتلن كرجالهم؛ لأن الرجال للصيد والتصقر وكل ما يتعلق بالحرب، ويتفانين في حب أزواجهن وأداء واجباتهن نحوهم، ونتيجة لكثرة الزوجات، عشر أو عشرين، فذريتهم أكثر من أي شعب آخر، والزوجة الأولى هي صاحبة الامتياز الأعلى، وتعد أكثرهن شرعية.

أما ديانتهم الشمانية فهي سجودهم للشمس، والعياذ بالله، حال طلوعها، ولا يحرِّمون شيئًا، ويأكلون جميع الدواب وبني آدم، ولا يعرفون نكاحًا، بل المرأة الواحدة يأتيها الجماعات، ويثبون وثوب القردة. يؤمنون بإله له طبيعة رفيعة سماوية، يحرقون له البخور، ويرفعون الصلوات. ويعبدون آخر «ناتيجاي» ويحتفظ كل بيت بتمثال له، وهو الرب الذي يرعى لهم شئون حياتهم الدنيوية، ويحفظ لهم أطفالهم وصحتهم. لكنهم ملتزمون جدا بقوانينهم المسماة «اليساق» أو «الياسا» التي هي تعاليم زعيمهم «جنكيز خان»، عليه وعلى ذريته لعنات الله. وإذا ما استجدى أحدهم فقير، أجابه: «اذهب، لعنك الله، لو أن الله أحبك مثلما أحبني، لأعطاك مثلما أعطاني».

ولديهم خير ما فى العالم من صقور وكلاب. ورأيت هنا، حيث تنتشر بعض قطعاتهم، أنهم متشابهون في الهيئة، فهم ضيقو الصدور، ذوو أقدام صغيرة ورؤوس كبيرة، يحلقون رؤوسهم من الخلف ومن الأعلى، ويتركون

شعورهم طويلة على الجانبين. تميز أحدهم من رائحة ملابسه المنتنة قبل أن تتمعن في وجهه؛ لأنهم يحرمون غسل الملابس، وتفوح منهم رائحة حليب الفرس، القمز، الذي يشكل وجبتهم الأساسية وشرابهم المسكر المفضل، لكنهم عند المسير، وحين لا يتوفر لديهم وقت كافٍ لجمع الحليب، يعمدون إلى شق وريد في رقاب خيلهم ويشربون دماءها. في الحقيقة، إنهم يأكلون كل شيء من جزور وكلاب وقطط وجرذان. أما دوابهم التي يركبونها، فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النباتات ولا تعرف الشعير. إنهم يا سيدي وحوش برؤوس بشرية، فقد نقل لي أحد التجار الأرمن ممن التقيتهم في أرومية أن راهبا نصرانيا كان مبعوثا إلى المغول لإقناعهم بالتحول إلى المسيحية، قد رأى بعينيه أن المغول وأثناء حصارهم لإحدى المدن الصينية قبل عشر سنين، وبعد أن نفد طعامهم، بدءوا يأكلون واحدا من كل عشرة من جنودهم!

وأسلحتهم القسي والقضبان (الدبابيس) الحديدية والحراب. والقوس هو سلاحهم الرئيس، ويجيدون استخدامه، ومنذ نعومة أظفارهم يدربون الأطفال عليه. إنه كما رأيته، أكثر تقدما من أقواسنا، ويقال إنه أفضل من الأقواس الصينية المصنوعة من الحديد، وأسرع في الإطلاق من أقواس الصيادين. وأقواس المغول أكثر طواعية على السحب مما يعطي السهم قوة أكبر للاختراق. لا يُصنع القوس المغولي من قطعة واحدة من الخشب، مثلما هو عندنا، بل يصنع من قطعة خشب وأربع قطع من قرون الكبش. أما داخل القوس فيعزز بوتر ويدعم بصمغ السمك (يحصلون على هذا الصمغ من غلي جلد الأسماك وعظامها في الماء، كما يحصلون عليه بشكل أصفى من غشاء المثانة الهوائية). وهم في العادة، يكبرون أذني القوس لزيادة قوة الوتر وقوة السحب، وبذلك يكون القوس جاهزا على امتداد

أيام السنة، فالوتر لا يرتخي، وسحبه يحتاج إلى عضلات رجل قوي، وهم يتمتعون بهذه الخاصية نظرا لكثرة تدريباتهم عليه. أما السهام فتصنع من خيزران مجوف، والذي يساعد على امتصاص صدمة الإطلاق وإبقاء السهم في حالة استقامة أطول، وبالتالي زيادة قوة اختراقه. رأيت أن سهامهم سريعة جدا؛ لهذا اعتمدوا على السرعة العالية أكثر من الوزن في إيقاع إصابات في صفوف خصومهم. ولا أدري إن كان صدقا ما سمعت أم كذبا، بأنهم يعتمدون على سرعتهم في التقدم، فيقطعون مائتي فرسخ في اليوم الواحد. لا يستطيعون فعل ذلك لولا ما لديهم من تلك الخيول القزمة التي تعد جزءا متمما لجيوشهم. الفرس من هذا النوع تكون صغيرة، قوية وصلبة، وتمتاز بسرعة عظيمة وتحمُّل كبير. ويملك كل محارب عدة أمهار إضافية، فما إن تتعب الفرس التي يركبها، حتى يقفز على غيرها.

ويُعرف عنهم قوة التحمل، فالرجال يبقون على صهوات خيولهم ليومين وليلتين دون ترجل، ولا يأكلون إلا اللحم المجفف وشرب اللبن ولمدة شهر كامل، لو دعت الضرورة لذلك. يتميزون أيضا بطاعة الرؤساء ويطيعونهم أكثر من إطاعة العباد لرب العالمين، مع شجاعة فى المعارك، وهم قساة القلوب.

ومن جملة ما لديهم من سلاح متطور راميات الأقواس الميكانيكية المحمولة على عجلات، وتستطيع أن تشد ثلاث أقواس في وقت واحد، وكل قوس ترمي نبالا، طول كل واحدة منه ثلاث أذرع أو أربع. والنبال هذه مريشة بريش الصقور والنسور، ولها رؤوس قوية.

أما عن جيوش المغول ونظام زحفهم، فالقائد يزحف في أية حملة من قوة أفراد لا تقل عن مائة ألف راكب. ضابط لكل عشرة رجال، وآخر لكل مائة، وثالث لكل ألف ، وعشرة آلاف. وتقسيم الجيش ثابت من أيام جنكيز

خان، الذي قسمه إلى أقسام، كل قسم عشرة آلاف نسمة ويسمى «تومانا»، وجعل عليه قائدا يقال له «نويان» أو «نوين»، ثم قسم هذا فجعل لكل ألف منه قائدا يقال له «بيكباش»، وقسم هؤلاء إلى مئات، وجعل قائدا على كل مائة يدعى «يوزباش»، وفرقه إلى عشرات، فجعل على كل عشرة مقدما أو «أونباشي»، وجعل على كل خمسين مقدما. وتنص التعليمات المشددة على منع أن يتصل قائد «التومان» أي «النويان» بآخر مثله وليس له أمر على الغير، كما يجب أن تراعى السلسلة في الآمرية، فالنفر لا يراجع إلا آمره، وهكذا مَن فوقه على مراتبهم. وتلزم القوانين أن لا يقصر فرد في لوازمه من الخيط إلى الإبرة إلى قطع الخام، فكل لوازمه ينبغي أن تكون جاهزة بلا نقص، ومن لا يراعي ذلك يعاقب بأشد العقوبة.

ومن قوانين جنكيز خان أن يأتي القواد من «أونباشي» إلى «النويان» كل سنة لمواجهة الخان الأعظم لتلقي أوامره والإصغاء إلى نصائحه. فمن أقواله التي يحفظها أتباعه: إن من يدير بنجاح قيادة عشرة أفراد، يمكن أن يصير قائدا لجيش عظيم، ومن لم يفعل لا يصلح للقيادة. ويقول أيضا: إن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة مملكة. ومن تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم، تيسر له سوق جيش عظيم. ومن تمكن من نظافة بيته، يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء. والخلاصة يا سيدي، قوانينهم وتعليماتهم تعني التزام النظام والطاعة ولا تقبل التساهل أو التهاون، فالشدة مرعية في تطبيقها والعقوبة على المخالفة صارمة جدا.

عندما يتقدم الجيش، يرسلون كوكبة رجال تتقدمه مسيرة يومين، كما توضع فصائل في الجانبين وفي المؤخرة؛ منعا لهجوم مفاجئ.

إذا كانت المهمة بعيدة، لا يحملون إلا الشيء القليل، وهم مزودون بخيام صغيرة مصنوعة من اللباد. في استطاعتهم الزحف عشرة أيام بغير

تجهيز أطعمة، يعيشون على دم ماشيتهم أو خيولهم، وأحيانا يحتفظون باللبن معهم. وتبلغ حصة كل مقاتل، أو بالأحرى راتبه، كمية كبيرة من اللحم، وزقا من زقاق القمز.

عند بدء المعارك، لا يتقدمون للاشتباك مع الأعداء، بل يظلون يحومون حولهم، ويطلقون السهام من كل جانب المرة بعد المرة، وأحيانا يتظاهرون بالفرار. فيظن الخصم الانتصار، وفجأة يتجدد القتال الحقيقي بعد أن تهيأ المغول للخصم، وهمد الخصم. ويعرف عنهم حسن تدريبهم لخيولهم إلى درجة عالية، وهو ما يحقق لهم الانتصار.

علمت يا أخي وسيدي، أنه عندما توجه هولاكو خان من نواحي قراقورم، عاصمة المغول، نحو الأقطار الغربية الإسلامية قبل خمس سنوات تقريبا، سيّر معه منكو، الخان الأعظم، خمس الجيوش وصحبه أخوه الأصغر سنتاي أوغول، وألف خبير ومدرب للإشراف على إعداد عِدد الحرب، وعدد كبير من صناع المنجنيقات والسهام النارية، وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب. وكان القائم مقام هولاكو في الجيش ولده جومغار، بسبب أن أمه أكبر خواتين أبيه هولاكو، ومن الأمراء الذين رافقوا هذا القائد الذي يتمتع هنا بسمعة مرعبة مخيفة: دقوزخاتون وهي أعظم الخواتين، وأولجاي خاتون، الزوجة الأخرى، والابنان الكبيران آباغا، ويشموت.

بقي على وصولنا إلى مقر القائد هولاكو قرب قلاع الإسماعيليين يومان فقط. أدعو الله أن ينتهي حصار القلاع بالفشل، لا حبا بالملاحدة، لكن خوفا أن يطغى سيل المغول فيغرق بلاد المسلمين بالدماء.

السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة 655 للهجرة

* * *

13

كان فخر الدين الدامغاني، رئيس ديوان الزمام والمسؤول عن الأمن، عارفا بخطورة مهمته في إبلاغ الخليفة بأمر مزعج يزيد من تعكر مزاجه ويفوّر غضبه، لكنه لم يجد من سبيل غير ذلك؛ كيلا يتهم فيما بعد بالتستر على جريمة غير عادية. حتى لو فعلها الخليفة وقرّعه، فهو قد اعتاد على ذلك، وإذا ما أغفل تقريعه، سيظن حينذاك أن الخليفة عقد العزم على الخلاص منه. ما أدهش الدامغاني أن رد فعل الخليفة كان مختلفا، فغاب هدوؤه، وتغيرت سحنته، وارتجفت عضلات وجهه. قال له: «أعد عليّ تفاصيل ما حدث».

قال الدامغاني: «بالأمس، اختفت ابنة التاجر محمد بن إسماعيل اليعقوبي، وهو من محلة الإمام أبي حنيفة النعمان، فسارع أهلها وأبناء عمومتها بالبحث عنها، ووجدوها صباح هذا اليوم جثة طافية في نهر دجلة. ويؤكد أهلها أن شهود عيان قد رأوا ..».

تجهم وجه المستعصم فصرخ غاضبا: «أكمل.. من رأوا؟ أبا العباس؟».

أجاب رئيس الديوان: «لا يا مولاي، رأوا واحدا من القصر يخطفها».

ضرب المستعصم مسند كرسيه بقبضة يده المرتجفة: «من هو ؟».

«إنه يا مولاي، علاء الدين محمد بن هاني، أخو أم مبارك حرم مولانا أمير المؤمنين».

نهض الخليفة واقفا: «قل الذي تزعم أنه أخوها، مدعية أنه لم يعرف أخبارها منذ اختطافها، ولم يكن يعلم أنها استرقت وبيعت في سوق النخاسين، قبل أن تكون سيدة القصر. وماذا بعد؟».

ردّ الدامغاني متهيبا ردة فعل الخليفة: «قال الطبيب الذي فحصها إنها اغتُصبت، قبل قتلها ورميها في النهر».

زمجر المستعصم: «اقبض عليه الآن، واطلب من قاضي القضاة نظام الدين عبد المنعم البندنيجي أن يأتيني في الحال».

داهمت المستعصم نوبة من آلام الشقيقة. فرك جبينه بقوة. وجه اللوم لنفسه، فلو كان حازما بما فيه الكفاية، لما حدثت جريمة كهذه. أدرك الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أنه تهاون في تطبيق العدالة ومحاسبة المقصرين. عليه الآن إصلاح ما فسد من أمور. الإرادة لا تكفي إن لم تصاحبها شجاعة. وما دامت الإرادة موجودة فما تبقى يصبح سهلا. الصعوبة في تطبيق القانون هي الطبقة التي استثنت نفسها من العقوبات. لم يغب عنه ذلك. إنها طبقة القصر والمتنفذين، وفي مقدمة هؤلاء جميعا عائلة الخليفة الكبيرة. زوجته أم مبارك، أصبحت أغنى امرأة مسلمة على الأرض. كان يدري أنها لا تأخذ شيئا من بيت المال أكثر من حصتها، لكنها تقبل الرشاوى لتتوسط في تعيين الولاة والقضاة والشحنة والحجاب، تجبر المُلاك على بيع أراضيهم لها بثمن بخس عبر وكلائها، وتهددهم عن طريق حاجب باب النوبي، ابن عم رئيس ديوان الزمام، وأصبحت هي أيضا متحكمة في السوق من خلال قوافلها التجارية. أما ابنه أبو العباس فأسوأ مثال على استغلال الموقع والمكانة حتى أصبحت ثروته مضرب الأمثال. أقارب الخليفة لم يقصروا في جمع المال وتعيين أقاربهم في مختلف وظائف الدولة المهمة. وهذا ما فعله أيضا الوزير

والدويدار الصغير والدويدار الكبير وقائد الجند وكل المسؤولين. إنه الملوم وليس غيره، فقد ترك الحبل على الغارب، ولم يستيقظ إلا بعد أن شاع الفساد وتدهورت الأمور.

خطر في باله ما قاله عبدول. لعل عبدول احتمى بالجنون ليقول للناس ما يشاء من دون خشية للعقاب واللوم. كان محقا في أقواله، فالناس عليها أن تمشي إلى الوراء كي تبقى عيونها مدة أطول على ضحاياها وخرابها وآثامها. وكان محقا في رؤية الناس وهي تمشي على أيديها، بعد أن تناسوا التواضع وأدمنوا العراك. لا بد أن يسأل عن عبدول وما حلّ به هذه الأيام. سيعيد الأمور إلى نصابها، ولن يجد عبدول بعد الآن رغبة في مشي الناس إلى الوراء، أو على أياديهم. ما زال قادرا على إحداث التغيير، وستكون البداية مع القاتل أيا كان من يحميه.

دخل قاضي القضاة القاعة ممتقع الوجه، سأله الخليفة: « هل سمعت بحكاية ابنة التاجر محمد بن إسماعيل اليعقوبي؟ وهل عرفت من تحوم عليه التهمة؟».

تنهد القاضي بارتياح، فقد ظل طوال الطريق يضرب أخماسا بأسداس عن إحضار الخليفة له، واستعادت ذاكرته ما اقترفه من رشاوى لتعطيل أحكام الشريعة. هزّ القاضي رأسه: «نعم يا مولاي. نعم سمعت وعرفت».

«أمرت بالقبض على الجاني. وسيكون بعد قليل في سجن القصر. ستتولى بنفسك محاكمته». انبسطت أسارير القاضي، فهو يعرف أن إحالة القصر بعض المتهمين إليه معناها إصداره أحكاما خاصة لا تخضع لشريعة ولا لسنة نبوية.

أضاف الخليفة: «أريدك أن تطبق بحقه أحكام الله. وأنت أعرف بوظيفتك. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾

وقال عز وجل:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾. إن أي تساهل في الحكم سيكون وخيما عليك».

اضطرب قاضي القضاة، فقال متوسلا: «عفوا يا مولاي، كل ما أرجوه أن تعفيني من هذه المهمة، وهناك قضاة كثيرون يمكنني إحضارهم أمامك».

نهض الخليفة من كرسيه واتجه نحو البندنيجي حتى وقف قبالته: «ألست قاضي القضاة؟ لم ترغب في التملص من واجبك؟».

ردّ القاضي مطأطئ الرأس: «المتهم يا مولاي أخو حرم مولانا الخليفة، وأخشى أن تهرق أم مبارك دمي».

أمسكه الخليفة من تلابيبه وهزه بقوة: «هل نسيت يا هذا أنني الخليفة، ولا صوت يعلو على صوتي؟ افعل ما أمرتك به وإلا أرقت دمك بسيفي. إذا وجدته مذنبا، سيشنق على باب النوبي».

قال قاضي القضاة بصوت خفيض يحدث نفسه: «ما لي وهذا المنصب؟ صدق رسول الله حين قال: (من جُعل قاضيًا بين الناس فقد ذُبح بغير سكين)».

صاح به الخليفة مستفزا: «ماذا قلت؟».

أجاب متلعثما: «لا شيء يا مولاي، لا شيء».

خرج قاضي القضاة متعثرا. كان ألم الصداع قد وصل ذروته، فصرخ المستعصم آمرا بإحضار عرفة والعازفات.

جاءت عرفة وحيته بانحناءة خفيفة، بهرت الخليفة بحضورها، فتناسى كل همومه وآلامه. ظلت عيناه معلقتين بها، تدوران معها، تدققان النظر في عينيها الخضراوين كعشب البحر، ورموشها الطويلة، وَجْنَتها المحمرة اللامعة كتفاحة تتأرجح أمام أشعة الشمس، فمها الصغير وشفتيها الحمراوين، رقبتها الرخامية، صدرها البلوري، وحلمتي نهديها البارزتين من وراء الغلالة التي تلفهما، خصرها الضيق وجسمها الأهيف. وقبل أن تبدأ العازفات عملهن، دخلت أم مبارك ليلى، زوجة الخليفة، مسرعة من دون خمار تجر وراءها أذيال ثوبها الحريري الطويل. حين رأت عرفة، توقفت دون وعي منها، لكنها بعد لحظة واصلت السير حتى وقفت أمام الخليفة، خاطبته ويدها تشير إلى عرفة والعازفات: «أمير المؤمنين، هل لي أن أكلمك على انفراد؟».

كان واضحا غرضها من الخلوة به لتطلب منه المستحيل، وتفاديا لإضاعة وقت في نقاش غير مجدٍ، قال المستعصم بالله: «لا أعتقد أنك يا عزيزتي ستبوحين بسر، فأنت تريدين مني التدخل لتعطيل العدالة وإيقاف حكم الشريعة. أليس كذلك؟».

شعرت ليلى بالحرج والمهانة، فها هو الخليفة يستهين بها أمام غريمتها اللدّاء، عرفة، فابتلعت الإهانة وقالت متماسكة: «ستلوكنا الألسن لو حوكم أخي وعوقب. ولا أعتقد أن ذلك في صالح مولاي».

ردّ المستعصم متجهما: «وما ذنب فتاة تغتصب وتقتل؟ أليس الخليفة إمام المسلمين والمسؤول عن كل فرد منهم؟ بماذا أواجه ربي يوم الحساب؟ لو كان سرق أو اختلس لخففت عنه الحكم، لكنه اعتدى على فتاة مسلمة، لم ينهه عن اغتصابها وقتلها دين أو ضمير».

أدركت أن موقفها ضعيف أمامه، ولا يبدو عليه التراجع عن قراره. أقرت أن منزلتها عنده قد اهتزت، وإذا كانت حازت على المكانة الأولى في نفسه، غير أنها معرضة للإهمال لوجود هذه المغنية الحسناء. لو أصرت على طلبها، فلن يتردد المستعصم في توجيه كلمات قاسية تحط من مكانتها أمام عرفة وبقية الجواري العازفات. فكرت أن من الصعب إقناعه بوجهة نظرها ما داما منفعلين، وفي ذروة الخلاف، ومن الأفضل لها تأجيل بيان موقفها والتفاهم معه إلى فرصة أخرى تجده فيها هادئا رائق المزاج. ليست هزيمتها سهلة، ولا بد أن ثمة حلولا أخرى لإنقاذ أخيها من موت محتم. أدارت وجهها بحركة عبرت عن زعلها وعدم ارتياحها، وخرجت لا تلوي على شيء.

غنت عرفة فانتشى الخليفة طربا.

توقفت ليلى وراء الباب المغلق، تنفست بعمق، تحسست وجهها. إنها أجمل من عرفة، فما الذي يشد المستعصم إلى المغنية؟ ليس مجرد عذوبة صوتها. لا تستطيع الجزم بشيء، فهي تعرف أن المستعصم ينقاد لمزاجه، ولا أحد يعرف كنه ذلك المزاج، وما يروق له. لم يعد الحوار بينهما، حتى لو كان حوارًا سطحيًا بسيطًا، قائمًا، إلا تبادل عبارات سريعة موجزة، أو مجرد كلمات. كانت تعرف تماما أن تبادل الحوار بين الزوجين يعد من أقصر الطرق إلى قلبيهما، فالكلمات البسيطة كانت تشعرها بأنها موضع اهتمام، وتمنع تسرب الملل، فوجود الحوار، مهما كان بسيطًا، يساعد على وجود إحساس بالدفء والترابط والحنان في الحياة الزوجية. في السنوات الأخيرة، تحولت العلاقة بينهما إلى علاقة وظيفية يؤديانها دون أي شعور بالمتعة، فأدركت أنها على وشك أن تفقد مكانتها. لكن هيهات، لن يستطيع المستعصم بسهولة أن

يركنها جانبا. تكاد شكوكها الآن أن تصل إلى مرحلة اليقين، فالمستعصم لم يكن هدف تلك المحاولة، بل هي للخلاص منها. ما هذه الأفكار السوداء؟ هل دهتها الغيرة حتى باتت تفكر في الانتقام من الخليفة نفسه؟ كان عليها أن تفكر في التخلص من المغنية عرفة، وحينها لن يكون هنالك منافس لها في قلب المستعصم، أليس كذلك؟ هزت رأسها بالإيجاب والتصميم.

* * *

لم يكن الصباح التالي كغيره من صباحات بغداد. تناقل الناس بفرح وفضول خبرا طغى على كل الأخبار. كان الخبر مفاجأة مذهلة لأهل المدينة، فهي المرة الأولى التي يشنق فيها علانية وعلى باب النوبي واحد من عائلة القصر، فتراكض الأهالي فرحين مستبشرين بعهد جديد لا يفرق في العقاب بين أمير وفقير. وعند باب النوبي، تدافعوا بالمناكب، ليلقوا نظرة الازدراء والاحتقار على المجرم وهو متدل من حبل معلق بالدعامة الرخامية التي تعلو الباب، وقد غُطي رأسه بكيس من قماش أسود. دعا الجميع للخليفة بطول العمر والعافية لاقتصاصه من المجرم علاء الدين محمد بن هاني. كانت فرحة البعض شماتة أيضا بزوجة الخليفة، التي يتحكم وكلاؤها بسعر الحنطة والشعير في أسواق بغداد.

لم يبق أحد إلا وحضر عند باب النوبي، حتى الخليفة حضر مبرقعا ولدقائق قليلة كي يتوثق من الأمر بنفسه. وعند العصر، جاء الوزير ابن العلقمي الذي لم ير مبررا لبقاء جثة المجرم معلقة، فطلب من الناس المغادرة، ثم أمر الحراس بإنزال الجثة التي سقطت قريبا من قدمي الوزير. أمرهم أن يفكوا الحبل من رقبة المعدوم، وعندما رفعوا الحبل، سحب معه الكيس الأسود. كانت المفاجأة التي صعقت الوزير وجعلته يتراجع إلى الوراء مترنحا، أن

الجثة لم تكن لأخي حرم الخليفة، علاء الدين محمد بن هاني ، بل هي جثة المجنون عبدول.

تكتم ابن العلقمي على اكتشافه الخطير؛ لأنه أقنع نفسه أن لا فائدة من فضح الأمر، فلن يعود عبدول إلى الحياة، ولن يكف أبناء العائلة الحاكمة عن تهورهم، وإذا ما فعل وكشف الفضيحة، فالخليفة سيصاب بصدمة قوية، وربما دفعه الغضب إلى الأمر بقتل عدد من الأشخاص، أما عصمة الدين والدنيا ليلى، فستضمر له حقدا لا يشفيه إلا أن تراه مقطعا بالسيوف. أعاد الوزير الكيس على وجه عبدول. انفرد بأحد الحراس، ومنحه صرة من الدراهم مقابل إخباره بما حصل. أخبره الحارس أن اتفاقا تم التوصل إليه بين عصمة الدين والدنيا، وبين قاضي القضاة نظام الدين عبد المنعم البندنيجي وشحنة بغداد، يتضمن استبدال علاء الدين بالمجنون عبدول الذي كان معتقلا بلا تهمة محددة.

وقف الوزير عند جثمان عبدول قارئا الفاتحة، ثم أمر الحراس بدفنه في مقبرة الرصافة، مهددا بمصير أكثر سوادا من ذلك الكيس لكل من يفشي الخبر حتى لعائلته. في الحقيقة، لم يكونوا بحاجة إلى هذا الوعيد، فجميعهم يعرفون سطوة زوجة الخليفة وقساوة شحنة بغداد قطب الدين سنجر البكلكي.

بعد أيام قليلة، التقى الوزير بقاضي القضاة، وأفهمه بكلمات ملغزة أنه على علم بجريمة كبرى شارك فيها القاضي، وترحم على عبدول الذي شنقته أموال السحت الحرام.

* * *

14

الرسالة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الفقير لله، التاجر البغدادي عبد القهار بن ناصر الدين الحسين المنصور، إلى أخيه الكبير وسيده أبي أحمد محمد الصقر العراقي، حفظه الله ورعاه من كل مكروه، وأمن داره من كل شر.

أما بعد:

أورد لكم أخبارا لا أدري إن كانت مسرة أم محزنة، لكنني أرى أنها محزنة أكثر مما هي مفرحة. وصلتنا الأخبار ونحن في الطريق أن قلعة «الموت» الحصينة قد سقطت في التاسع عشر من ربيع الثاني، وأن مقدم الإسماعيلية خواند ركن الدين خورشاه بن خواند علاء الدين، الذي قتله المغول قبل سنتين، كان قد نزل عند نصيحة الخواجة نصير الدين الطوسي- كان الطوسي في خدمة علاء الدين محمد بن الحسن الإسماعيلي، وقد حُبس فيما بعد وأطلق المغول سراحه فاتخذه هولاكو مرافقا له- من أن الناس لا يستطيعون الحرب مع خورشاه، وأن عليه إطاعة هولاكو والانقياد له، وهكذا سلَّم خورشاه

قلاعه ونفسه وأصحابه، لكن ذلك لم يحل دون قتله وقتل أصحابه. ويقال إن نيران الحرائق ما زالت تضيء السفوح والوديان أثناء الليل، وما زال الصراخ يُسمع صداه من بعيد.

تقع «ألموت» على قمة أحد الجبال في شمال بلاد فارس، وتبعد مسيرة يومين عن بحر الخزر. بنيت القلعة من صخور حمراء ورمادية اللون، وتتألف من قسمين شرقي وغربي، وكل قسم يتألف من قلعة سفلى وقلعة عليا، ولا شك أن اختيار النزاريين الإسماعيلية الملاحدة لهذا الموقع سببه حرصهم على الحذر الشديد والعزلة التامة. وعرفت هنا أن الجرأة التي كانوا يتمتعون بها سببها تناولهم مادة الحشيش المخدرة.

سمعت من الهاربين من المغول، أن خبر قضاء المغول على طائفة الإسماعيلية كان له وقع حسن عَمَّ أهالي المناطق المجاورة لقلاع الإسماعيلية، على الرغم مما عانوه من وحشية المغول وتدميرهم؛ وذلك لأن الإسماعيلية كانت تبث الرعب والفزع في النفوس، وأشاعت المفاسد والمنكرات، وأذاعت الأفكار المنحرفة، وكان يخشى بأسها الملوك والسلاطين. فهذه الطائفة احترفت اغتيال الحكام والسلاطين، واستطاع مؤسسها الحقيقي، الحسن بن الصباح، أن يبرز كشبح مخيف للحكام بعد اغتيال الخواجة نظام الملك، بوصفه أول اغتيال خطير قام به الإسماعيليون، وكان نظام الملك قد وقف بجد لقطع دابرهم وبالغ في التجهيز لاجتثاثهم، وأصبحت هذه الخطوة التي اتخذها الحسن عبرة للأمراء كي يتفادوا الاصطدام بهم. أخبروني أن أعمال الملاحدة الإجرامية لم تقتصر على اغتيال الحكام والرؤساء، وإنما امتدت أيضا إلى العلماء والفقهاء الذين كانوا يفضحون حقيقة الإسماعيلية، كالفخر الرازي الذي هددوه بالقتل، فتراجع بعد التهديد، ولم يتعرض لهم

بسوء، واغتيل أبو جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، وكان يدرّس في الري، كما اغتيل القاضي أبو العلا النيسابوري في أصفهان. وشملت حملة الاغتيالات أيضًا القاضي أبا سعد بن نصر الهروي الذي لقي مصيره في همدان سنة ٥١٩م، وغيرهم ممن أفتوا بجواز قتل الإسماعيليين وحكموا عليهم بالإلحاد. وليس هذا فقط يا سيدي، بل إنهم تعاونوا مع الصليبيين للقضاء على ممالك المسلمين، ويقال إنهم استنجدوا بالصليبيين ليردوا عنهم هجوم المغول، لكن الصليبيين لم يأبهوا بهم ما داموا قد وجدوا في المغول حليفا أكثر قوة.

شرح لي أحد الهاربين الذي أعلن توبته من أفكار الإسماعيلية، أن عقيدتهم الزاخرة بالشر تقول: إن العالم قديم، والزمان غير متناهٍ، والمعاد روحاني، وأوّلوا الجنة والنار، وما فيهما، تأويلات روحانية، فقالوا على هذا الأساس إن القيامة تحين إذا وصل الخلق إلى الله، وظهرت بواطن الخلائق وحقائقها، ورفعت أعمال الطاعة، والدنيا كلها عمل لا حساب، والآخرة كلها حساب لا عمل. وقالوا إن معرفة الله لا تتحقق عن طريق العقل والنظر فقط. يُضفون على الإمام، من ذرية الحسن الصباح، صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله، ويخصونه بعلم الباطن، ويدفعون له خُمس ما يكسبون. يؤمنون بالتقية والسرية ويطبقونها في الفترات التي تشتد الأحداث عليهم. والإمام هو محور الدعوة الإسماعيلية، ومحور العقيدة يدور حول شخصيته. وأن الأرض لا تخلو من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور، فإن كان الإمام ظاهرًا جاز أن يكون حجته مستورًا، وإن كان الإمام مستورًا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين. كما يقولون بالتناسخ، والإمام عندهم وارث الأنبياء جميعًا ووارث كل من سبقه من الأئمة. ينكرون صفات الله أو يكادون لأن

الله في نظرهم فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق.

وهذه الأخبار محزنة؛ لأنها تعني أن هؤلاء المغول الغزاة لا تعصى عليهم قلاع ولا توقفهم جيوش، وبسقوط الإسماعيلية سقط حاجز قوي أمام الغزاة، لكنهم سيندحرون لو أعماهم الطمع وقادتهم الحماقة إلى إعلان الحرب على إمام المسلمين وخليفتهم الأعظم، حفظه الله ورعاه.

العشرون من شهر ربيع الثاني سنة 655 للهجرة الشريفة

* * *

15

شاءت محاسن الصدف أن يلتقي عبد القهار بن ناصر الدين بالتاجر محمد ابن حسين العلوي، الذي ظل صديقا له منذ كانا صبيين في محلة الشماسية، وكان الصديق العلوي ضمن قافلة متجهة إلى بغداد، فسلمه رسالة إلى التاجر أبي المحاسن محمد بن بهاء الدين بكر التغلبي، وطلب منه أن يتحايل في إيصال الرسالة الثانية إلى الأميرة أمل بنت الخفاجي.

* * *

الرسالة الأخيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الفقير لله، التاجر البغدادي عبد القهار بن ناصر الدين الحسين المنصور، إلى أخيه الكبير وسيده أبي أحمد محمد الصقر العراقي، حفظه الله ورعاه من كل مكروه، وأمن داره من كل شر.

أما بعد:

بعد أيام نرجع قافلين إلى بغداد. لأهمية هذه الرسالة تعمدت إرسالها على وجه السرعة لتكونوا على علم واطلاع واستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات.

تغير خط مسير قافلتنا من تبريز وصولا للقلاع التي شهدت السقوط المريع للإسماعيلية، إلى مدينة همذان التي وصلناها ظهر يوم أمس، حيث اتخذ القائد هولاكوخان مقر قيادته. تعج المدينة بالمقاتلين من المغول ومن أقوام أخرى، وترتفع في أنحاء المدينة آلات الحصار الضخمة وراجمات الصخور والمنجنيق، فكأن المدينة خلية نحل. وتعج أيضا بوفود كثيرة جاءت من مختلف البلدان، ترفع التهنئة لهولاكو بانتصاره، وتقدم فروض الطاعة، وتضع أمام قدميه هدايا حكامها الثمينة كسبا لرضاه. أسكنونا في دار متواضعة، بينما كانت بقية الوفود في دور ضخمة، وسمعت أن ذلك كان بأمر من زوجة هولاكو، دقوزخاتون، الحاقدة على المسلمين. عندما اتجهنا إلى مقر القائد، استقبلنا المغول بفتور على العكس من حفاوتهم بالوفود الأخرى. كنا في آخر صف الوفود القادمة.

كان منظر هولاكو يبعث الكراهية فيه، ليس من زي الحرب الذي يرتديه، ولا من عينيه اللتين يتطاير الشرر منهما، ولا في تَخَضُّع من حوله، بل من سُمْعته كقاتل متوحش. أهل المدينة لا يتحدثون إلا عن طرقه الغريبة في الانتقام، كان يحرق أعداءه أو يجوعهم ثم يطعمهم أجزاء من أبدانهم، أو يشد الواحد منهم إلى ثورين، فتبعدهما السياط فينقسم المسكين إلى شطرين، وبلغني أن آخر ضحاياه كان حاكم إحدى المدن الذي رفض الاستسلام لقوات هولاكو التي حاصرت المدينة، وعندما نجح المغول في دخولها، أمر السفاح بإحضار ذلك الحاكم حيا، ثم أمر أن يوضع في كيس من الجلد ويخيط عليه، وتركه في الشمس بلا ماء أو طعام لأيام حتى هلك. هذا السفاح في أواخر الثلاثينيات من عمره، يضع على رأسه خوذة حديدية بيضاء، في قمتها قطعة عليها حروف صينية، وفوق القطعة كرة حديدية صغيرة، ويحيط بأسفل الخوذة

حافة مائلة إلى الأمام، تنسدل من ورائها قطعة من قماش أحمر تغطي مؤخرة الرأس والرقبة. له حاجبان قصيران مرتفعان، أما عيناه فمتباعدتان ضيقتان ممدوتان بالطول، وأنفه قصير صغير، وشارباه المقطوعان تحت الأنف يمتدان إلى حنكه لينتهيا بلحية ذات نهايتين مدببتين، وعلى رقبته قلادة من الفضة. يبدو سريع الغضب، قليل الصبر، متقلب المزاج، ينظر إلى الوافدين من وراء أرنبة أنفه استصغارا لهم. إذا ضحك، أطلق ضحكة عالية هستيرية ترتج لها جوانب القاعة. سرني رجل من أهل مراغه قال إن هولاكو مصاب بمرض الصرع، لا شفاه الله، وأنه عندما يكون وحده، لا يلهو بمسبحة مثل باقي الناس، بل يقطع بالسيف رؤوس دمى كانت توضع أمامه بالعشرات، إذا لم يكن بالقرب منه سجناء. ويقال أيضا إن شراهته لا حد لها في الجنس والطعام، ويحاول دائما تقليد جده جنكيز الذي كانت له أربعمائة زوجة، وأن الفرق شاسع، كما يقول بعض المغول، بينه وبين أخيه قوبلاي المعروف بحسن تعامله وتسامحه.

كان هولاكو يجلس في صدر القاعة، على يمينه قائده كتوبغا، وعلى يساره زوجته دقوزخاتون، ويحيط بهما أبناء الطاغية وبقية القواد. وأمام الجميع طاولات خشبية، وضعت عليها كؤوس فخارية ملأى بشراب القمز.

كان وفد الإفرنج أول من تقدم لتهنئة هولاكو. قال رئيس الوفد وهو يرفع براحتي يديه سيفا ذا مقبض ذهبي: « يسرني أن أمثل الملك لويس التاسع، ملك فرنسا المعظم وأحد أبطال الحملات الصليبية».

انفجر هولاكو في ضحكة عالية صاخبة: « تقصد الملك الذي أسره المسلمون ثم أفرجوا عنه بفدية، أليس كذلك؟».

نهض السفاح من مكانه، تناول السيف وسحبه من غمده، بينما انكمش المبعوث الإفرنجي محرجا. قال هولاكو متأملا نصل السيف اللامع: «سمعت أن أخي الخان الأعظم قد بعث وفدا لتعزية ملككم بمناسبة وفاة والدته الملكة».

رد المبعوث متراجعا إلى الوراء قليلا: « نعم يا سيدي.. وبسبب وفاة الملكة قرر مولاي الملك مغادرة قبرص والعودة إلى فرنسا».

ضحك هولاكو مترنحا موجها السيف نحو محدثه: «الآن عرفت لماذا انهزمتم أمام المسلمين.. ملك يترك ساحة المعركة لوفاة أمه؟ يا للسخرية!».

تقدم بعد ذلك مبعوث بابا روما، الراهب جون دي بولانو كاربيني قائلا: « لعلي أكثر العاملين في حضرة الفاتيكان حظا، فقد زرت بلادكم ثلاث مرات. كانت رحلتي الأولى حين أمرني البابا الراحل أوسنت الرابع، وعن طريق بولندا وروسيا وصلت إلى بلادكم قاطعا ثلاثة آلاف ميل خلال ثلاثة أشهر، وتُوِّجت تلك الرحلة المتعبة بلقاء الخان الأعظم كيوك..».

قاطعه القائد المغولي متجهما: « أذكر ذلك. كانت غايتك أيها الراهب نقل رسالة بابا روما التي دعا فيها المغول إلى ترك ديانتهم واعتناق المسيحية.. إن ديننا بسيط لا تعقيد فيه.. إنه يقوم على عبادة الظواهر الطبيعية وتنبؤات الرهبان. إن شعبنا يؤمن بسنن الياسا المبنية على الحياة القبلية والبدوية. لكن ما هي هداياكم؟».

قال كاربيني رافعا يديه إلى الأعلى: «صلوات البابا بأن يكون النصر حليفكم دائما».

قهقه هولاكو مستهزئا: «كيف استطعتم المحافظة على هذه الهدية بعيدا عن أعين اللصوص وقطاع الطرق طوال كل هذه المسافة؟».

أضاف بنبرة متعالية: « نحن لا نحتاج إلى مباركة البابا وصلواته، بعد أن أعلن كبار الرهبان قبل خمسين سنة أن إلهنا العظيم الغ تنگري قد أراد أن يحكم الأرض جدي تيموجين وذريته. لا بد أن رئيسكم البابا يدعونا هذه المرة أيضا إلى اعتناق دينكم».

أشار بيده إلى من حوله ضاحكا: «أمي سورخاخاتاني، الموجودة الآن في قراقورم مسيحية نسطورية، وزوجتي هذه، السيدة دقوزخاتون، مسيحية، وصهري كتوبغا مسيحي أيضا، وفي قصر الخان الأعظم مستشارون مسيحيون أيضا، فماذا تريدون أكثر من هذا؟ ما يفعله أخي وما أفعله أنا لا علاقة له بدين الشمان الذي أدين به، ولا بدين المسيحية الذي تعتنقونه، ولا يخضع لمشيئة البابا ولا لملك الإفرنج.. قد تلتقي المصالح لكننا نعمل بإرادتنا».

قال كاربيني الذي حظي بنظرات تأييد من زوجة هولاكو دقوز خاتون: « لا أنكر هذا يا سيدي خاصة بعد أن تقدمت جيوشكم لتكتسح شرق أوربا قبل أن تتراجع إلى الشرق».

نهض هولاكو من مكانه صارخا بغضب جفل معه الراهب: « اسمع يا هذا، لم تتراجع جيوشنا في حينها بسبب مقاومة عرقلت طريقها أو صعوبات واجهتها، بل كان موت الخان الأعظم وضرورة حضور القادة الكبار اجتماع القوريلتاي لانتخاب الخان الأعظم الجديد، أخي منكو، هو ما استدعى انسحابها».

قال الراهب مستدركا: «هو كما تقول أيها القائد المظفر. إضافة إلى صلوات البابا وتبريكاته، كلفني قداسته أن أبلغكم أننا مستعدون لوضع كل إمكانياتنا لدعم فتوحاتكم العظيمة وإسقاطكم لممالك المسلمين».

هدأت سورة غضب السفاح، فرد هادئا: « لكن غاياتنا تختلف عن غاياتكم.. أنتم تريدون السيطرة على الأراضي المقدسة ونحن نريد الهيمنة على العالم».

«النتيجة واحدة أيها القائد الكبير.. القضاء على عدونا المشترك.. ممالك المسلمين».

قال هولاكو وهو يميل برأسه ليرانا: «همي الآن التقدم نحو الغرب».

ردّ الراهب كاربيني فرحا: « سيتحقق لك النصر، سيتحقق لك ذلك أيها القائد، فأنت حفيد جنكيز خان، وأبوك تولوي الشهير، وأخوك الخان الأعظم منكو، وأخوك الآخر قوبلاي الذي تتقدم جيوشه منتصرة في بلاد الصين».

همس الشيخ سبط ابن الجوزي في أذني: «إذا كان تعامله هكذا مع مناصريه، فكيف سيكون تعامله معنا؟».

آلمني مشهد الموقف الذليل لمبعوث الأيوبيين الذي انحنى ليقبل يدي هولاكو قبل أن يركع أمام قدميه. يا سبحان الله! هل هذا حقا مبعوث سليل صلاح الدين الأيوبي؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. وتقدم ملك أرمينية، هيتون، الذي أهدى هولاكو نعلا عليها صورة الملك لتدوسها قدم هولاكو كلما انتعلها، قائلا في منتهى الإذلال: «آمل يا مولاي أن تكون صورتي التي تحت نعلك شفيعا لي وتجعلني مفتخرا بلطفك». فرق عليه هولاكو، وبتوسط دقوز خاتون التي أشادت بالملك الأرميني وحسن تدينه، أعلن الطاغية رضاه عنه.

عندما جاء دورنا، تقدم رئيس وفد مولانا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، أستاذ الدار الشيخ محيي الدين بن يوسف أبي الفرج ابن الجوزى، انحنى انحناءة

قليلة ثم بدأ بتقديم الهدايا التي حملها مقاتلون مغول ووضعوها أمام الطاغية. نظر إليها هولاكو ممتعضا، ثم نظر شزرا إلى سبط ابن الجوزي، قائلا: «ما هذه؟ هل هذه كل هداياكم إلى فاتح بلدان الغرب وحفيد قاهر العالم؟ الممالك الفقيرة أرسلت أضعاف ما أرسله خليفتكم المعروف بخزائنه وأمواله».

لم يعلق سبط ابن الجوزي على أقوال الطاغية، وقدم تهاني الخليفة المستعصم إلى هولاكو على احتلاله لقلاع الإسماعيلية الحشاشين، لكن هولاكو قاطعه بجفاء: «دعك من هذا النفاق. قل لي ما رد مولاك خليفة بغداد؟».

سلمه سبط ابن الجوزي الرسالة الجوابية، فناولها هولاكو بدوره إلى أحد معاونيه وكان رجلا معمما، لا أشك أنه مسلم، وبدا عليه أنه من أهل فارس أو من هرات ليقرأها: «**بسم الله الرحمن الرحيم.. من خليفة المسلمين عبد الله المستعصم بالله إلى القائد هولاكو بن تولوي. أما بعد: كان بودنا أن نشارككم الحرب ضد الفئة الباغية الإسماعيلية، لكننا، وكما تعلمون، محاطون بأعداء يتربصون بنا الدوائر، وإذا ما علموا بأن قواتنا قد غادرت بغداد، فلن يضيعوا ساعة حتى يتقدموا لاجتياح بلادنا، ومن هنا كان لنا العذر.**

نتمنى أن لا يغيب عن بالكم أبدا أن الخليفة في بغداد ليس مثل أي ملك أو حاكم؛ لأنه ولي أمر المسلمين على كل الأرض وإمامهم، وكلمته مسموعة وأمره مستجاب، لكنه لا يميل إلى إشعال الحرب؛ كي لا تقع خسائر ومآسي لأبناء أمته، ويود أن يمد يد الصداقة إليكم. والسلام على من اتبع الهدى».

تناول هولاكو بعصبية الرسالة، ورماها في وجه الشيخ سبط ابن الجوزي، صارخا: «كنت أتوقع هذا. هل يظنني خليفتك أبله لأصدق دعواه؟ ثم ما هذه الهدايا التي بعثتموها مع وفدنا؟ إنها لا شيء مقارنة بالكنوز التي يحتفظ بها هذا المستعصم. كيف أمنتم على حياتكم أن تأتوا إليّ برسالة يستهين فيها صاحبكم بي، وتخرجون سالمين من قبضتي؟».

مال الرجل المعمم على هولاكو وهمس في أذنه بضع كلمات، قال هولاكو بعد ذلك: « لولا تدخل مستشاري، لأريتكم من يكون هولاكو. ستبقون هنا مدة يومين وبعدها سنسلمكم ردنا. انصرفوا الآن».

تعرفت خلال تجوالي في مدينة همذان على رجل من أهل المدينة، ما إن عرف أنني من أهل العراق حتى بدأ يحدثني بلغة عربية سليمة لا لكنة فيها، وتبين أنه من أهل الموصل وسكن مع الفرس منذ سنوات بعيدة. وبعد أن تأكدت من موالاته لسيدنا أمير المؤمنين، سلمته (الأمانة) على أن يبعثها في الوقت المناسب، وقد رفض، على الرغم من إلحاحي الشديد، قبول أي درهم معتبرا ذلك مهمة في سبيل الله والمسلمين، فتأكد لي صدقه.

كان لا بد لي في ليلتي الأخيرة في همذان، أن أحصل على مزيد من المعلومات عن نوايا المغول وخطوتهم التالية، فدعوت المسؤول المغولي المكلف بمرافقة وفدنا ومراقبته، إلى جلسة أغريته فيها بالنبيذ المعتق، وبعد أن سكر، باح لي بما دار في مقر هولاكو بعد مغادرتنا له. أخبرني أن القائد السفاح استشار أركان حكومته وأعيان بطانته فيما عزم عليه من التوجه إلى بغداد، فأبدى بعضهم نصيحته بالتريث، ودعا البعض إلى الزحف بلا تأخير، واقترح البعض الآخر دعوة الخليفة مجددا إلى الطاعة. ثم طلب هولاكوخان المنجم العربي المسلم حسام الدين، الذي كان مرافقا له بأمر من الخان الأعظم منكو، ليختار وقت النزول والركوب، وأمره أن يوافيه بكل ما يبدو له في النجوم دون مداهنة، ولما كان هذا المنجم من المقربين عنده، فقد كانت له جرأة على الكلام. قال المنجم: «ليس ميمونا الزحف بالجيش إلى بغداد وقصد أسرة الخلافة بسوء، إذ إن كل ملك قصد بغداد والعباسيين، لم يستمتع بالملك والعمر، وإذا لم يصغِ الخان الى كلامي وذهب الى هناك، ستحدث كوارث ليس بمستطاع الخان مواجهتها».

وعندما سأله القائد المغولي عن تلك الكوارث، قال حسام الدين: « لو عزم مولاي على مهاجمة بغداد، فستنفق الخيول ويمرض الجنود، وإذا ما تعرض الخليفة للأذى، تحتجب الشمس، ويمتنع المطر، وتهب ريح صرصر، ولا ينبت النبات في الأرض، وينهار العالم بالزلزال، ويموت قائد عظيم في تلك السنة».

فكر هولاكو قليلا ثم أمر المنجم بكتابة شهادة بصحة هذا الكلام، فكتبها المسكين. بعد ذلك سأله هولاكو أن يحدد موعدا لأول تلك الكوارث، فاضطرب حسام الدين وقال: «في وقت مبكر من صباح الغد ستنفق بعض الخيول. لم يهدأ للسفاح بال إلا بعد أن استدعى الخواجة نصير الدين الطوسي واستشاره، ولعل الخواجة ظن أن الأمر على سبيل الاختبار، فقال: «يا سيدي القائد، في رأيي لن تقع أية واقعة من هذه الأحداث». فقال هولاكو: «إذن ماذا يكون؟» قال الخواجة: «إن القائد هولاكوخان سيحل محل الخليفة».

هاج هولاكو غاضبا وأمر بإحضار المنجم حسام الدين ليدافع عن توقعاته أمام الخواجة. أعاد المنجم طرح توقعاته، فرد الخواجة بالقول: « لقد استُشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق آراء الجمهور وأهل الإسلام، ولم يحدث فساد قط. ولو قيل: إن للعباسيين مكرمة خاصة بهم، فإن طاهرا جاء من خراسان بأمر المأمون، وقتل أخاه محمد الأمين، وقتل ابن المتوكل أباه بالاتفاق مع الأمراء، كذلك قتل الأمراء والغلمان المنتصر والمعتز، وقُتل عدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص، فلم تختل الأمور. قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولده الحسين، ولم تحتجب الشمس، ولا اهتزت الأرض. كان من عقيدة أهل الجاهلية قبل الإسلام أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم، فكُسفت الشمس في عهد النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه

ابنه إبراهيم، فقال الناس: كُسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب النبي ﷺ قائلا : (إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ منْ آياتِ اللَّـهِ لا ينكسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ)».

علمت أن هولاكو لما علم بعدم نفوق الخيل، أمر بقتل حسام الدين، فذهب إلى ربه شهيدا. وعرفت، يا سيدي، أن ذلك المستشار هو الخواجة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، فوجدته عندما التقيت به في اليوم التالي، حسن الصورة، سمحًا، كريمًا جوادًا، حليمًا، حسن العشرة، غزير الفضائل، جليل القد، داهية، وهو ضليع في الفلسفة والرياضيات والأرصاد، ومتفقه في الدين. أوصانا بالحذر ما دمنا بين ظهرانَيْ المغول وفي عقر دارهم، وأن نتجنب أي حوار قد يثير المغول علينا؛ لأنهم قوم لا يجيدون لغة الحوار، بل القتل وسفك الدماء.

الطوسي هذا رجل عالم متبحر، لم يكن شديد الميل إلى المغول، لكنه ومن خلال حديثه معنا، يعتقد أن المغول قوة كبيرة ومن الممكن توظيفها مستقبلا في خدمة الإسلام؛ لأنه يزعم أن لكلمته صداها في نفس الطاغية هولاكو، ولعله يوما سيقنعه باعتناق دين الإسلام وبالتالي حماية المسلمين، وأبدى هذا العالم أسفه لمقتل المنجم المسلم. ولا أدري إن كانت كلماته صادقة، أو أنها تطمين لنا، أو قالها خشية عيون هولاكو المبثوثة حولنا. لم أسترسل في الحديث معه، لا خوفا من الوشاية بي، لكنه، مهما صدق في نواياه، يبقى واحدا من أعوان هولاكو السفاح. أعتقد يا أخي أنك تشاركني الرأي في أن أي مسلم يتعاون مع قتلة المسلمين لا يستحق التقدير والثقة، مهما برع في العلوم وتفقه في الدين.

سيدي وأخي الكبير :

لا أعتقد أنهم سيحمّلون الشيخ سبط ابن الجوزي رسالة ودية، وإنما رسالة تحذير ووعيد. إنهم، فيما يبدو، قد اتخذوا قرارهم منذ زمن بعيد بالهجوم على بغداد، ولن تثنيهم عن خطتهم هدايا أو صداقة، لكنهم لا يدرون أنهم يدفعون بذلك أنفسهم إلى التهلكة، وما يدرون أن مولانا أمير المؤمنين محروس بملائكة الله وبأرواح المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأنه لو عقد للحرب لواء فإن الأرض تهتز من وقع حوافر جحافله.

ما إن خرجت من مقر السفاح هولاكو، حتى تجمهر حولي عدد كبير من جنودهم، وددت لو خنقتهم بيديّ، فقد سألوني وبوقاحة إن كانت بغداد غنية بالكنوز حقا، وإن كانت نساؤها جميلات، ممشوقات، نظيفات، مضمخات بالعطر. أصبح الهجوم على ديارنا حلم هؤلاء المتوحشين.

حفظ الله بغداد، جنة الأرض، ونصر خليفتها المؤمن المجاهد، والموت والعار لكل من تسول له نفسه العدوان عليه وعلى جمعه المؤمن.

السادس والعشرون من ربيع الثاني سنة 655 للهجرة النبوية الشريفة

* * *

رسالة خاصة

أميرتي الغالية أمل

لم أكن بحاجة إلى الابتعاد عنك لأكتشف عمق حاجتي إليك؛ لأنني أدركت هذا منذ اللحظة التي التقت فيها نظراتنا، فرأيت فيك تجسيدا لأحلامي وغاية في دنياي. ما زالت شفتاي ترددان اسمك مثلما تبتهلان بدعاء أو تبوحان بأمنيات. صورتك لا تفارق مخيلتي، وأنت تعومين وسط هالة من أضواء باهرة، أراك أمامي في الهضاب والوديان والتلال التي تجتازها قافلتنا. في الليل، أنت حلمي الدائم، وعندما أستيقظ، أراك أمامي، أراك كما رأيتك آخر مرة، تتهادين بردائك الحريري وإزارك الخرساني وقميصك المعنبر بأكمامه المفتوحة، وسروالك الأبيض المذيَّل بزخرفة طالما خطتها يداي على التراب حين تتوقف القافلة للراحة، وخمارك النيسابوري، الذي ما إن يرتفع حتى يشرق وجهك بابتسامة تحمل براءة طفل وطمأنينة ملاك، ونبرات صوتك أنغام عود لم يدركها إسحاق الموصلي. خصلات شعرك المخملي المنفلتة من عصابتك تؤطر محياك البهي. ما زالت يدي تحتفظ بملمس أصابعك الحريري. حتى حين ترفعين حاجبيك دهشة أو تعجبا أو دلالا، أو حين تضحكين، فتبعثين في نفوس من حولك الأمل وتزرعين الفرح. اعذري يا أميرتي تلجلجي وارتباكي حين أكون أمامك، ليس بسبب عدم قدرتي على التقاط المفردات المعبرة تماما، بل إن الحب، يا أمل، لا يوصف بالمفردات المعروفة. أية كلمات يمكنها أن تصف رقة قلبك ونبل عواطفك وفيض حبك في كل كلمة حلوة تقولينها، أو نظرة تصوبها عيناك الـحَوْراوان، أو حركة تقومين بها؟

أصارحك بأنني غير قادر على تصور حياتي من دونك. لم تكن لقاءاتنا المختلسة كثيرة جدا، لكنها كانت كافية لتشدني إليك على الرغم من ضباب المستقبل المجهول، وتحكم القصر بمصيرنا.

أنت هبة من السماء، فما أسعدني بك! ولولاك، ما كنت قادرا على خوض مغامرة خطيرة كالتي أخوضها الآن، فأنت تعويذتي المباركة التي تجعلني لا أهاب الأخطار وأشعر بالأمان. لا أطمع بمنحة أو منصب أو جائزة، لكنني أبذل كل جهدي للنجاح كي يلقى طلبي ليدك القبول.

كنت فيما مضى مجرد حالم بأيام سعيدة، فرأيتك، ومنذ اللحظة الأولى، رقص قلبي على أوتار صوتك الرخيم، وأحسست برائحتك تتوغل في مسامات جلدي، فشعرت أنني في تلك اللحظة فقط بدأت التنفس، ومنذ ذلك الحين لم يعد بمقدوري العيش دونك.

رأيت دموعك في لقائنا الأخير، فصممت على مواجهة كل الأخطار، لا رغبة في الحياة، بل لكي لا أراك تبكين ثانية. حبك يا أميرتي هو الدفء والملاك الذي يحرسني.

أملي ودنياي :

أوضاع البلد مثيرة للقلق والحيرة، فالبلاد الآن أشبه بسفينة انشغل بحارتها بالعراك فيما بينهم تاركين الأمواج تتحكم في مسيرها. يوم تخطت قدماي أعتاب دور المسؤولين في الدولة، بدأت أرى الحقيقة المفجعة لدولة كنت أراها الأولى في عدالة الحكم وقوته، والأولى في تطبيق الشريعة ومواجهة الفساد، والأولى بين الدول في كفاءة حكامها وإخلاصهم. هالني ما اكتشفت وراعني ما صادفت.

البلاد تغرق في المشاكل، وأولو الأمر لاهون بجمع الأموال والاستحواذ على المناصب، أما الناس المساكين فقد بُحَّت أصواتهم من الشكوى والاحتجاج والاستنكار، وتكاثرت أعدادهم في السجون والمعتقلات، واضطر الكثيرون إلى طرق الأبواب، فلما أضناهم الجوع، انضموا لعصابات النهب والتسليب، ومهاجمة القوافل التجارية وسرقة مخازن التجار وكسر أقفال الدكاكين في الأسواق.

كل هذا والخليفة لا يدري، فالبطانة الفاسدة تردد بين يديه ما يحب أن يسمع: البلد بخير، والأمن مستتب، ولا جواسيس للأعداء ولا صوت لأبواق عملائهم، وميزان العدل لا يميل بل متوازن تماما، والقضاء نزيه، والرشوة والمحسوبية معدومتان، والجيش سور للوطن، جاهز للذود عن البلاد، والرعية بأحسن حال، وتتغنى بفضائل الخليفة، وتدعو ليل نهار أن يحفظه الله من كل مكروه، وأن يخزي معارضيه. ولا ينقص الناس إلا أن تتسع جوانب قصر الخلافة لهم ليقدموا ولاءهم المطلق لإمامهم وخليفتهم وحامل رايتهم الذي يقودهم من نصر إلى نصر، مع أن الخليفة يعرف أكثر من غيره أنه لم يخض حربا ولم يحقق نصرا.

الجميع يحفرون ثقوبا في هيكل السفينة. لكن ما عساي أن أفعل، أيتها الغالية، وأنا ضابط صغير لا حول له ولا قوة، حتى أن إشارة صغيرة من يد زوجة الخليفة، ألقتني في سرداب مظلم حيث يقبع أبوك وعمك؟

كل معلومة أكتشفها في طريقي عن قوة العدو وضعفنا، عن تضامن العدو وانشقاقاتنا، عن جيوش الآخرين وضخامة عدتهم، مقارنة بقلة جيوشنا وفقر تسليحها، تعذبني وتجعلني أتصور بغداد مخنوقة بدخان كثيف.

إن استطعتِ فغادري بغداد الآن، وقبل فوات الأوان، ولا تصدقي شعاراتهم بالثبات والصمود، فالقائمون على الأمور يفكرون بسبل نجاتهم

قبل التفكير في إنقاذ البلاد، والوحيد الذي يفكر في البقاء هو الخليفة، لا حبا ببغداد، بل تمسكا بكرسي السلطة، أو ربما كان وجوده مقرونًا بالعراق، فلا حياة له إذا غربت الشمس عن ملكه.

أعرف أيتها الأميرة النبيلة أن الوطن هو المكان الوحيد الذي يسمح للمرء أن يعيش محتفظا بذكرياته، ويسمح له أن يحلم بسلام. أيقنت، من خلال رحلاتي على قلتها، بأن العودة للوطن بعد فراق، تشبه تماما عودة البحَّار إلى الشاطئ، فهل هناك مكان أكثر أمنا له من الشاطئ؟

الوطن يا عزيزتي هو حيث يكون هوى القلب. لكن العاصفة الهوجاء على وشك أن تجتاح الوطن، فلا بد من البحث عن مكان آمن بانتظار هدوء العاصفة كي يستعيد الأبناء وطنهم بعدها. أعرف أنك ستواجهين غربة قاتلة، لكنك مجبرة عليها.

أوصيك بالدعاء من أجل سلامة الوطن.

أحبك، ومن عظم حبي لك بت أخشى عليك، فلم تعد بغداد مدينة السلام والأمن والطمأنينة. بغداد الحبيبة أضحت في خطر من هبوب إعصار مدمر، أما القائمون على أمرها فقد أغمضوا عيونهم عن رؤية الإعصار الذي غطى الآفاق.

الثاني والعشرون من ربيع الثاني سنة 655 للهجرة النبوية الشريفة

* * *

16

ظل المستعصم محتجبا في غرفته، ولم يسمح لأحد بمقابلته، وتردد في القصر أن الخليفة قرر الاعتكاف بعد أن اجتمع مدة دقائق معدودات مع أحد التجار، وكأنه قد اجتمع بمنجم أخبره بموعد موته.

قرأ المستعصم رسالة عبد القهار الأخيرة مرات ومرات حتى حفظ كل مفردة فيها. كانت المعلومات وافية ومرعبة في آنٍ. اكتشف أن مرسلها لم يكن ناجحا في تخفيف رعبها، فلجأ إلى لغة الأمنيات وليس الواقع المر حين تحدث عن إمكانات البلاد في مواجهة عدو شرس كهولاكو، وهو الأمر الذي لطالما تحاشى المستعصم التدقيق في تفاصيله. ربما خاف الضابط الصغير أن ينعته الخليفة بالجبن والعمل على تخريب معنوياته.

ماذا عساه أن يفعل؟ لن تلبث الأخبار أن تنتشر مثيرة الفزع بين الناس، فيهرع القادة إليه بحثا عن حل، فكأنما لديه خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين ليخترع المعجزات.

لو أمر بإعادة تشكيل الجيش كما كان في بداية حكم أبيه، فعليه أن يوزع الرواتب، ويدفع أثمان تجهيزاتهم وطعامهم ومخيماتهم، وبالتالي لن يبقى في خزينته درهم واحد. إذا كان الخطر يتهدد الجميع، حيواتهم وممتلكاتهم، فلماذا عليه وحده دفع كل التكاليف؟

الرعية؟ لقد نتفت الضرائب لحاهم، ومنعت عنهم الثياب الجديدة، وحُصدت مزارعهم، وصودرت ممتلكاتهم، حتى أثاث دورهم. لو علم أن في مقدورهم أن يدفعوا ضريبة جديدة لأجبرهم عليها. لعلهم يخبئون بعض المال. إذا ما أعلن عن ضريبة جديدة سينتفض الناس، وستكون الخسائر أكبر من مردود الضريبة.

الحاشية؟ لن يستطيع إجبارهم على الدفع أو التبرع؛ لأن ما يبقيهم إلى جانبه، أمانهم على أموالهم. إنهم يطمعون إلى المزيد من الثروات. عندما كان صغيرا كانت ردة فعله إزاء أية مشكلة تواجهه هي البكاء، وحتى لو بكى الآن فلن تحل المعضلة: كيف سيواجه العدوان؟ لم تعد الشعارات الرنانة مجزية، ولن تجد الوعود آذانا صاغية، ولا مكان لحدوث معجزات، فالله لا يعين قوما لا يعينون أنفسهم.

اجتر أحداث آخر كابوس رآه الليلة الماضية. جاءه شيخ جليل قال إنه عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أخبره أنه قرأ طالعه وما سيحدث في المستقبل القريب. قال الشيخ: «سيغير النهران لونهما فيتموجان بالدم، وتخيم على بغداد سحب دخان أسود لا يلبث أن يتساقط قطرات من سخام يلون رخام القصور، والأبواب المصنوعة من خشب البلوط، وجثث الضحايا العراة المكدسة في الدروب، ويصبغ وجوه النساء والأطفال وأيديهم المرفوعة إلى السماء. أما أنت يا عبد الله، فتحلم أن طيورا أبابيل سترمي الأعداء بحجارة من سجيل، أو أن ينزل عليهم وباء لا خلاص منه. أدمنت على الأحلام حتى ظننتها حقيقة، يا لك من مسكين! مسكون بالخوف ليل نهار، تخاف من زوال حكمك، وتخاف من الموت. الحق، إنك تخاف من كل شيء، من كل من حولك، تخاف حتى من نفسك خشية تفضح مخاوفك.

لا تبات ليلة إلا وراودك هاجس أن أحدهم في الصباح سيهاجم القصر بعصابته، ويسمل عينيك، أو يخنقك بالوسادة، أو يقطعك بالسيف وأنت على فراشك، وفي النهار، تفزعك كل حركة ولو كانت وثبة قط أو تحفز كلب. تردد أمام الآخرين أن الموت كالولادة شيء طبيعي، لم يكن قصدك أن تقنعهم، بل لتزيل مخاوفك. الحياة ليست أن تأكل وتشرب وتنام، بل أن تعيش في ذاكرة الآخرين، وهذا ما يضمن لك حياة أبدية. تهرب من مخاوفك إلى أحلام اليقظة، مثلما تهرب من آلام صداعك بسماع الغناء والطرب. فكر في هذه الجموع اللائذة ببردة رسول الله التي تضعها على كتفك من دون جدارة واستحقاق. افعل شيئا يا عبد الله قبل فوات الأوان».

شعر المستعصم بتزايد نبضات قلبه وراح يسمعها كقرع طبول. تفصد جبينه عرقا، واصطكت ركبتاه، حين مد يده أمامه رآها ترتجف. أحس بجفاف حلقه وضيق تنفسه.

أمر بإحضار الطبيب. وقف الطبيب أمامه مضطربا مرتبكا، فسأله الخليفة عما به، فأجاب متلعثما: «لا شيء يا مولاي. ربما ما سمعت من الناس جعلني مرتبكا قليلا.. إنهم.. الناس.. يقولون إن المغول سيهاجمون بغداد».

رد الخليفة متصنعا الثبات والهدوء: «دعك من هذه الأراجيف. لن يجرؤ أحد على العدوان على بغداد، والمستعصم بالله فيها».

تساءل الطبيب بعد فحصه لسيده: «هل يمر أمير المؤمنين بأزمة؟».

بماذا سيجيب هذا السؤال الأبله؟ هل يتحايل عليه الطبيب بأنه صدق دعواه بعدم جرأة أحد بمهاجمة بغداد، فيسأله إن كان يمر بأزمة؟ هل يخبره بأنه لم يعد واثقا من نفسه ومن قدرته على اتخاذ القرار الصائب؟ هل بقيت له فسحة ليفكر بقرار ما؟

لم يجب الخليفة، فقال الطبيب: «إنها يا مولاي أعراض سرعان ما تزول. كل ما هناك أن مزاج مولانا متكدر قليلا. كل ما يمكنني النصح به هو أن تبتعد قليلا عن هموم الحكم».

هز المستعصم رأسه موافقا. حين غادر الطبيب، أمر الخليفة بإحضار عرفة ومعها العازفات. وعندما أطلت، بادرها بابتسامة عريضة، قائلا: «عرفة، هل تعلمين بأنك من أهل الجنة؟».

ردت متضاحكة محركة شعرها الطويل إلى الجانبين: «بشرك الله يا مولاي، ولكن كيف عرفت؟».

أجاب الخليفة: «يقول سيد المرسلين: من فرج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. وأنت يا عرفة تفرجين في كل يوم كربتي وتخففين ألمي وتجعلينني أحلق على أنغام صوتك في عالم من السلام والطمأنينة والراحة».

سألته بغنج: «ماذا يجب مولاي أن أغنيه؟».

رد المستعصم بفرح طفولي: «غني ما يدور في بالك الآن».

قالت متمايلة: « ما قاله العباس بن الأحنف في ذات الخال؟».

قفز من مقعده فاتحا ذراعيه: « كأنك في قلبي يا عرفة، لعلي أنا العباس وأنت فوز..

أَلا لَيتَ ذَاتَ الخالِ تَلقَى مِنَ الهَوَى ... عُشَيْرَ الَّذي أَلقَى فَيَلتَئِمُ الشعبُ

إِذا رَضِيَتْ لَم يَهنِنِي ذَلِكَ الرِّضَا ... لِعِلمي بِهِ أَن سَوفَ يَتبَعُهُ العَتبُ

أكملت عرفة بصوت أخّاذ:

وَأَبكِي إِذا ما أَذنَبَت خَوفَ صَدِّها وَأَسأَلُها مَرضاتَها وَلَها الذَّنبُ
وَلَو أَنَّ لِي تِسعينَ قَلبًا تَشاغَلَت جَميعًا فَلَم يَفرُغْ إِلى غَيرِها قَلبُ
وَلَم أَرَ مَن لا يَعرِفُ الحُبَّ غَيرَها وَلَم أَرَ مِثلي حَشوُ أَثوابِهِ الحُبُّ
وِصالُكُمُ صَرمٌ وَحُبُّكُمُ قِلًى وَعَطفُكُمُ صَدٌّ وَسِلمُكُمُ حَربُ
فَهَجري لَكُم عَتبٌ وَوَصلي لَكُم أَذًى فَلا هَجرُكُم هَجرٌ وَلا حُبُّكُم حُبُّ
تَرَى الرَّجلَ تَسعَى بي إِلى مَن أُحِبُّهُ وَما الرَّجلُ إِلا حَيثُ يَسعَى بِهَا القَلبُ

وقف الخليفة صائحا بنشوة طاغية: «غني يا عرفة لأنسى متاعب الحكم وهموم الرعية .. غني يا عرفة قبل أن أن يحدث الكسوف وتنعدم الرؤية».

* * *

تهافت الناس في اليوم التالي على شراء الحبوب وتكديسها في بيوتهم، فزادت الأسعار ارتفاعا، وبدأ البعض في حفر سراديب وملاجئ للاختباء بها عند مهاجمة العدو للمدينة، بينما اتجه الميسورون في قوافل طويلة إلى الموصل والبصرة والكوفة وبلاد الشام، فكانت تلك فرصة لقطاع الطرق من الجنود المسرَّحين لمهاجمة القوافل ونهبها، فأحجم التجار الآخرون عن المغادرة.

لم تتوقع شمس أن يعلن زوجها الدويدار الصغير عن عدم ممانعته لسفرها إلى أبيها في الموصل. كان ذلك مفاجأة حيرتها. إنها الفرصة التي انتظرتها زمنا طويلا، لكنها هذه المرة بقيت حائرة. الأمير مجاهد الدين زوجها، رضيت بذلك أم لم ترض، فهل من المعقول أن تتخلى عنه في وقت الشدة بينما عاشت في كنفه وقت الخير؟ أهل بغداد، من الخليفة إلى أصغر

فرد في الرعية، يعرفونها كواحدة من سيدات بغداد اللبيبات المحتشمات، أما لو ذهبت إلى الموصل فلن تكون سوى ابنة بدر الدين لؤلؤ الكثير الأولاد والبنات. أبوها في الثمانين من عمره، وقد يموت بين لحظة وأخرى، فيتولى أخوها من أم أخرى الحكم، وربما نكل بها. لم تعد تبغض الدويدار كثيرا كما كانت من قبل. اكتشفت أنها كانت تنظر إليه باستعلاء، وفوق ذلك وشت به إلى الوزير. لا بد لها من البقاء على الأقل لتريح ضميرها.

قالت بإصرار: «لن أغادر بغداد حتى لو جاء المغول».

كان الرد مفرحا للدويدار، لكنه مقلق أيضا، فالبلد هزتها الأراجيف والمخاوف وليس هناك ما يسكن ذعر الناس، فالبلد مهددة بأخطار من الصعب تجاوزها من دون تقديم تضحيات كثيرة وكبيرة. كان يهمه أن تبتعد شمس إلى حين يزول الخطر وتستتب الأمور.

قرر مع نفسه أن عليه إجبارها على الرحيل، إن لم يستطع إقناعها. وقف أمامها تماما ليناقشها في ضرورة السفر إلى الموصل، لكن طرقات على الباب أخرست ما أراد قوله. كان عند الباب أحد جنوده، أخبره أن وفد الخليفة وصل بغداد عائدا من همذان. قال الجندي إن سبط ابن الجوزي كان حزينا ولم يرد على تحيات الناس وأسئلتهم عند مروره بهم.

قال الدويدار الصغير لشمس: «عاد الوفد من هولاكو. يبدو أن الأخبار مخيبة. سأذهب للقصر، أما أنت فعليك البقاء في الدار والتزام الحذر».

* * *

ربما كان الوزير ابن العلقمي أكثر المسؤولين ترقبا لوصول الوفد، ليس لمعرفة رد المغول على رسالة الخليفة، فهو متأكد أنهم قد عزموا على إخضاع

بغداد وخليفتها لطاعتهم، وأن مقاومتهم أمر خارج قدرات بغداد وجيشها، وإنما ليسمع مبررات مرافقه في إخفاء أمر سفره عنه، وهو الذي وضع فيه كل ثقته وعامله معاملة الأب لولده. مهما كانت المبررات فهو قد ارتكب خطأ ولا بد أن يلام عليه. وما إن سمع بوصول الوفد، حتى أسرع إلى القصر.

وصل الوزير قصر التاج ليرى أمامه الدويدار الصغير الأمير مجاهد الدين. الوزير والدويدار الكبير علاء الدين وقاضي القضاة وسليمان شاه قائد الجند التركمان، قد وصلوا لتوهم باب قاعة القصر. أخبرهم رئيس ديوان الزمام الدامغاني أنه لا يستطيع السماح لهم بالدخول ، فمولاه أمر أن لا يعكر أحد صفو مجلسه. لم يجادله مجاهد الدين، بل دفع الباب بقوة ودخل القاعة. انقطع الغناء والعزف ووقف الخليفة مبهوتا. تساءل مستنكرا: «ماذا هناك؟ ماذا حدث؟».

أجاب الدويدار مجاهد الدين: «وصل يا مولاي وفدكم إلى طاغية المغول».

جلس الخليفة هازا يده باستهزاء: «وهل كنت تتوقع من أعضاء الوفد أن يبقوا هناك إلى الأبد؟».

قال الدويدار الصغير: «الناس جميعا يا مولاي تريد معرفة ما يحمله الوفد في جعبته».

فكر الخليفة في الأمر وأدرك حراجة موقفه، قال: «سأجتمع مع سبط ابن الجوزي حال وصوله القصر ثم أجتمع معكم بعد ساعتين».

* * *

ظلت أمل ومنذ اللحظة التي وصلتها رسالة عبد القهار بن ناصر الدين، متوترة قلقة، تأكلها المخاوف مما سيحدث، وتغشاها صور الدمار التي تتراءى لها، فتبعث فيها الذعر والحزن على المدينة وأهلها. لم تفكر في نجاتها كما اقترح حبيبها، وإنما بأبيها وعمها. لو حدث المكروه، ربما يستطيع الناس الهرب أو الاختباء، ولكن كيف ينجو من كان مقيدا بسلاسل حديدية ثقيلة، وهو من لا يتردد الأعداء في قتله نظرا لمكانته وما سمعوا عنه؟ أدركت أن عليها محاولة إنقاذ أبيها وعمها وإخفائهما عن أعين الناس، ومن ثم ترتيب هروبهما. عندما فكرت في ذلك بعمق، راحت تكتشف تدريجيا المصاعب تلو المصاعب، فأيقنت أن العملية ليست سهلة، بل غاية في الصعوبة ومحفوفة بالمخاطر. عودة عبد القهار قد تتأخر، وهي لا تريد أن تعيش بقية حياتها محاصرة بالندم وتأنيب الضمير لأنها لم تحاول القيام بتلك المهمة قبل أن تتدهور الأمور. أمضت معظم حياتها سجينة داخل أسوار الحريم، محرومة من حنان أبيها الذي تراه كل عام مرة واحدة بصحبة بنت عمها. قبل سنوات أربع، ماتت أمها كمدا لأنها جادلت الخادمة بدور، فقرعتها بشدة زوجة الخليفة، وجرحت رأسها بآنية فخارية رمتها عليها. ما قتلها السجن ولا عذبها الحرمان، لكنها لم تحتمل أن تهان كرامتها.

هُرعت الأميرة أمل إلى بنت عمها، وحين اختلت بها، بادرتها مرددة على مسامعها توقعات عبد القهار، فدهشت علية لهذه المعلومات، وحين سألت ابنة عمها عن مصدر معلوماتها، لم تذكر أمل اسم عبد القهار، بل اكتفت بأنها عرفت ذلك من أحد أعضاء الوفد عندما كانوا في طريقهم لمقابلة الخليفة. أخبرتها أمل أن أباها وعمها سيكونان في خطر لو بقيا في السجن، فطمأنتها علية بأنها ستفعل اللازم حينذاك، لكن «أمل» لم تقتنع، أو أنها كانت تريد

ضمان ذلك قبل أن يحل الخطر، فسألت ابنة عمها أن تساعدها في ترتيب هروب السجينين.

راجعت علية الأمر مع نفسها، قالت: «إننا بحاجة إلى رجل قوي أمين ليساعدنا، وبدونه لا يمكننا المغامرة بذلك».

ردت أمل على الفور: «الرجل الذي تقصدين موجود، لكنه ما زال خارج المدينة».

تضاحكت علية مازحة: «عرفت من يكون بالنسبة لك من عينيك اللتين شعتا فرحا حين ذكرتِه، سننتظره».

* * *

اختلى المستعصم بسبط ابن الجوزي الذي بان عليه التعب والإرهاق. أدرك أن عبد القهار، على الرغم من قلة خبرته وصغر سنه، كان في رسائله أكثر دقة من معلومات سبط ابن الجوزي الشيخ الخبير وقراءته لما قد يستجد. لكن المستعصم لم يندم على إرساله سبط ابن الجوزي، فهو شجاع، حكيم، مخلص، حليم، وإن لم يكن قوي الملاحظة، سريع البديهة.

استغرب سبط ابن الجوزي أن الخليفة كان يعرف عن أخبار المغول أكثر مما يعرفه هو، ولو كان مرافق الوزير قد سبقه في الوصول لما استغرب الأمر. وقعت عينا المستعصم على ما في الرسالة فجمدت حركته، ولم يعد يصغي لما كان يقوله أستاذ الدار من أن هولاكو لا يهمه أمر غير المال والهدايا، والفرق شاسع بينه وبين الخليفة، فهولاكو كافر ملحد، أما المستعصم فهو إمام المسلمين، وبالتالي فالله ينصر الخليفة ويهزم الملحد. شرح سبط ابن الجوزي بالتفصيل طريقة صلاة المغول عند طلوع الشمس، وتطرق إلى

تعاليم «الياسا» واستهتار هولاكو، وتوقعاته بحدوث مصادمات بين المغول والصليبيين؛ لأنه لم يحترم مبعوثيهم.

طلب الإذن بالانصراف والخليفة غاطّ في شروده، وصل إلى الباب ولم يلتفت إليه، فخرج خائبا مغلقا الباب وراءه.

بقي الخليفة وحده ورسالة هولاكو تتدلى من يده الرخوة. كل كلمة كانت ضربة فأس على الرأس. زاغت عيناه ويبس فمه، وتفصد جبينه عرقا. هذه المرة لا تنعش معنوياته قصيدة مدح، أو غناء عرفة، أو رياء رجال القصر. يريد المغولي هولاكو جره إلى خوض معركة غير متكافئة، يريد سحبه عنوة من نعيم قصره إلى ساحة حرب لا يسقط غبارها إلا بعد أن ترشه الدماء.

ما الذي يريده هذا القائد الشاب الجلف؟ السيطرة على ما تبقى من دولة كانت عظيمة ذات يوم؟ لم يتبقَّ من دولة بني العباس سوى بغداد والكوفة والبصرة والأحواز، وما تبقى إمارات صغيرة، تمن على الخليفة أنها تذكر اسمه في صلاة الجمعة، مقابل أن يعلن عن مباركته لحكامها وأمرائها.

سرت في جسمه رعشة، إنه يرتجف. أهي أعراض مرض جديد غير الشقيقة؟ إنه الخوف مما تحمله الأيام المقبلة. ماذا دهاه؟ حتى الكلمات التي يحاول ترتيبها لإلقائها على مسامع رجاله، ما إن يلتقطها حتى تغيب عنه.

كان عليه أن يستعد لمواجهة رجال القصر. إنه حائر، لا يدري هل يحثهم على القتال أم يقنعهم بالسلام وتفادي الحرب. غاص في تفكير مرير.

أخيرا، وجد نفسه أنه بات غير قادر على الأمرين. الحرب تتطلب نفقات باهظة، وقد لا تكفي خزائنه أو ما تبقى في بيت المال، والسلم يتطلب تنازلات هائلة ونفقات أيضا كهدايا لا تنقطع. لو لم يبقَ من خيار سوى الحرب، هل

يستطيع جيش بغداد بأعداده صد هجمات جيوش المغول الجرارة؟ بالتأكيد لا. ماذا إذن؟

هل يستسلم استسلام الخانع الذليل؟ لمَ يستسلم؟ من أجل أن يعيش بقية عمره في ذلة ومهانة؟ ربما يستطيع ذات يوم استعادة قوته واستعادة ملكه. من يضمن ذلك؟ لم يترك له السفاح المغولي فرصة للاختيار، للبحث عن بدائل.

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه وحيد يائس أعزل، وخوفه هذه المرة أشد وأمر وأدهى. الخوف هذه المرة يفتك بروحه، يسقط صموده، يعقد لسانه. عليه أن يكون قويا أمام رجاله، لكنه الآن خائر العزيمة. ضرب صدره بجمع كفه قائلا بصوت واهن: «أنا الملوم.. أنا الملوم».

وضع المستعصم وجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء.

* * *

17

تطلع المستعصم في وجوه رجاله وكبار قادته، فرآها حزينة كئيبة عبوسة. أومأ برأسه إلى الدامغاني، ففتح الأخير رسالة مطوية، وبدأ يقرأ:

«من القائد هولاكو خان إلى الخليفة المستعصم بالله.. أما بعد :

كان ردك مخيبا لنا، ولا بد أنك كنت في عجلة من أمرك فلم تتمعن في الرد جيدا، والأدهى من ذلك تمسكك بحجج واهية لتبرير تقصيرك.

كلما استنجدتُ بك اعتذرتَ، ولم تبعث لنا مددا، مع أنك من عائلة قديمة وسلالة نبيلة. أما سمعت بأننا، منذ ظهور جنكيز خان إلى يومنا هذا، قد أصبنا العالم ما أصبناه بجيشنا المغولي، وألحقنا بالأسرة الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكية وغيرهم ما ألحقنا، مع ما كانوا عليه من الكبرياء والعظمة والمقدرة؟ أما رأيت ما نالهم الآن من الذل والهوان؟

علمنا أن بغداد لم تكن يوما مسدودة على الأمراء الفاتحين، بل كانت مفتوحة الأبواب لهم. فكيف تريدها أن تكون مغلقة في وجوهنا، وموصودة عنا، مع ما لنا من الحول والسلطة والعظمة؟!

إننا نحذرك مغبة المناوأة والعداء وأن تتقي الحرب وإلا تُضرب.

عليك الآن أن تهدم القلاع وتطم الخنادق، وتسلم البلدة والممالك إلى أحد أولادي، وتتوجه لملاقاتنا، وإذا صعب عليك المجيء، فأرسل إلينا الوزير

وسليمان شاه والدويدار الصغير، ليأخذوا العهد منا ويوصلوه إليك بلا زيادة أو نقصان.

وإذا لم تفعل ذلك، ولم تراعِ ما انطوى عليه هذا الكتاب، فتأهب للقتال واستعد للنضال وجهز جيشكَ وعيّن جبهة القتال، فإنا متهيئون للكفاح، مستأنسون به.

فإذا جهزتُ العساكر، وغضبت عليك، فاعلم أنك لا تنجو مني ولو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض، وعند ذلك أقول لك: إلى أين المصير؟ أفي السماء أم في غور الأرض؟ لا يسطع القمر والشمس بازغة، وحذار أن تضرب المسمار بقبضة يدك، وتحسب أن الشمس شمعة تضيء في وضح النهار، أو تقدم على مجازفة سرعان ما تندم عليها.

وعلى كل حال، ما مضى فات، وما فات لا يعود. فإذا أردت أن تبقى رئيسا لأسرتك القديمة النبيلة، فاسمع نصيحتي، وإلا فسنرى ما يريد الخالق بنا وبكم».

تراجع الدامغاني إلى مكانه، وساد صمت ثقيل على القاعة، وحبس الحاضرون، الجالسون على مقاعد مرصوفة على يمين القاعة ويسارها، أنفاسهم بانتظار ما يقوله الخليفة وأمير المؤمنين وإمام المسلمين.

انتاب المستعصم إحساس بأنه مراقَب من آلاف آلاف العيون، من كل المسلمين على امتداد القرون، من زمن الرسول الأعظم، من أجداده، من العرب والمسلمين الأحياء، ومن الأجيال القادمة الذين يتطلعون الآن إليه، وإلى قراره الحاسم. وما ينطق به الآن سيبقى عبر التاريخ فخرا أو عارا. إن ما سيقوله الآن سيظل محفورا في كتب التاريخ وذاكرة الأجيال.

قال بنبرة قوية: « منذ اللحظة التي توليت فيها الخلافة وأنا جد حريص على تجنب الاستبداد في رأيي ومعتقداتي، لا خشية من رد فعل، بل خوفًا من الله. لم أُكره الناس على أمر اعتقدت بصوابه وآمنت به، كما فعل المأمون حين طلب من الفقهاء أن يؤمنوا معه بأن القرآن مخلوق، فمن لم يستجب له أمر بقطع رزقه، وحبسه، ومنهم من مات في حبسه. ولم أفعل ما فعله المعتصم في امتحان الفقهاء بمحنة خلق القرآن، فجلد الإمام ابن حنبل حتى تقطع جلده، وزاد في الشدة من بعده ابنه الواثق، فقتل الفقيه أحمد بن نصر الخزاعي بيده وصلبه. لم أحكم بالموت على من عكر صفو مزاجي، كما فعل الأمين حين جلس يصطبح في بستان قصره، وهو محاصر من قبل جيش أخيه المأمون، فدعا جارية لتغنيه، فغنته بشعر تشاءم منه، فرماها بكأس شرابه، وأمر أن تلقى في حظيرة السباع. لم أسأل محدثي يوما عن أمر فأجابني بما لا يسرني فأمرت بقتله، كما فعل المتوكل بابن السكيت شيخ عصره في النحو واللغة. كنت دائما مفتوح الصدر لآرائكم.

أيها السادة، أمرنا شورى، فأنا في هذه اللحظة التاريخية، أضع مصيرنا ومصير بغداد بين أيديكم، ولنتفق على قرار فيه مصلحة الأمة جميعا».

أحس بشيء من الراحة بعد أن جعل الآخرين يشاركونه في حمل المسؤولية الثقيلة. لم يكن يفعل ذلك من قبل. وما الضير من فعله الآن؟

كان أبو العباس نجل الخليفة الأكبر يتصدر الجالسين على يمين القاعة، فيما يتصدر أخوه الأوسط، أبو الفضل، الجالسين على جهة اليسار. نهض أبو العباس واقفا مرتجفا من الغضب: «هذا كتاب في غاية الوقاحة والاستهتار. لنرد عليه يا أمير المؤمنين برد أعنف، ولنقل له إن كان مستأنسا بالكفاح، فنحن متلهفون للشهادة».

نهض الدويدار الصغير من مقعده متحمسا: « لم يتح لنا هذا المغولي خيارا آخر غير الحرب، فلنستعد لها، ولنجمع الجيوش مثلما فعل والدكم الراحل المستنصر بالله عليه الرحمة».

تساءل الخليفة وعيناه تستعرضان وجوه الحاضرين: «هل تعتقدون أننا قادرون على إعداد جيوش تضاهي أو توازي جيوش العدو عدة وعددًا؟» .

قام الدويدار الكبير علاء الدين ممسدا لحيته الرمادية: «يا أمير المؤمنين، نحن نتفوق عليهم بالإيمان..».

قاطعه المستعصم قائلا: «هم أيضا عندهم إيمان بدينهم وبهدفهم في السيطرة على العالم».

هب سبط ابن الجوزي واقفا: «استنتاجي يا أمير المؤمنين أن المغول قوم يتحكم بهم الجشع والطمع في ثروات الأقوام الأخرى، وأرى أن الإيمان لا يكفي. الواجب إعداد الأمة بكل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها، فيدخل في ذلك عَدَد المقاتِلَة، والواجب أن يستعد كل مكلَّف للقتال؛ لأنه قد يكون فرض عين في بعض الأحوال. إن الله أمرنا أن نعد ما نستطيع من قوة لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة أو مصالحها، أو على أفراد منها، أو متاع لها حتى في غير بلادها؛ لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها. إن العدو إذا علم استعداد المسلمين لقتاله، خافهم ولم يجرؤ عليهم، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم، فيكون الغزو بأيديهم، يغزون الأعداء متى أرادوا، وكان الحال أوفق لهم، وأيضا إذا رهبوهم تجنبوا إعانة الأعداء عليهم».

نظر الخليفة إلى وزيره يطالبه بإبداء رأيه، فقال الوزير متمهلا: « حقا يا مولاي، استكثر المستنصر، يرحمه الله، من الجند جدا، لكنه مع ذلك كان

يصانع المغول ويهادنهم ويرضيهم، وبتلك المصانعة حصل والدكم على ما كان يريد، فاتقى شرهم. الكلمات الرنانة يا مولاي لا تدفع عدوا ولا تحفظ سورا. علينا الآن البحث عن حل عملي للخروج من هذه المحنة، وليس طرح أحلام وأمنيات. علينا مواجهة حقيقة أن عدونا كثير الجيوش، والملوك الموالين والتابعين وما يمتلكونه من قوة ومال، وضعوا كل ذلك في خدمة هولاكو وتحت تصرفه. لقد قيل: لا يرد بأس العدو القاهر مثل التذلل والخضوع، كما أن النبات الرطب يسلم من الريح العاصفة بلينه لأنه يميل معها كيف مالت. أرى يا أمير المؤمنين أن نهادنهم ونبعث لهم الهدايا».

قال الخليفة مجاهدا أن تكون نبرته هادئة قدر الإمكان: «بعثنا لهم الكثير، ومع هذا يطالبوننا الآن بأكثر من ذلك. هل تريد أن أقرأ عليك الرسالة مرة أخرى؟».

ردّ الوزير مدافعا عن نفسه: «سمعتها جيدا يا مولاي، لكنني أرى أن مواجهة المغول مغامرة خطرة، فقواتهم كبيرة ومدربة تدريبا عاليا ولديهم كل ما يحتاجونه من عدة الحرب».

قفز أبو العباس من مكانه ناظرا إلى الوزير باشمئزاز، وحاول أن يقول شيئا، لكنه رأى أباه قد استغرق في التفكير، فانتظره أن ينتبه ليستأذن منه في الكلام، غير أن الخليفة رفع رأسه قائلا: «تعرفون جميعا شدة تعلقي بالحمام، وفيكم هنا من يعيب عليّ ذلك بين الناس. ذكرني قول الوزير ابن العلقمي بحكاية عن الحمام رواها الجاحظ. يقال إن مَلِكَين طلب أحدُهما مُلْكَ صاحبِهِ، وكان المطلوبُ أكثرَ مالا وأقلَّ رجالًا، وأخصب بلادًا، وكانت بينهما مسافةٌ من الأرضِ بعيدة، تماما مثل ما بيننا وبين أرض المغول، فلما بلغَه ذلك دعا خاصَّته فشاوَرَهُمْ في أمْره وشَكا إليهم خوفَه على مُلكه،

مثل اجتماعنا هذا، فقال له بعضهم: دامتْ لك أيُّها الملكُ السلامةُ، ووُقيتَ المكروه، إنَّ الذي تاقَتْ له نفسك قد يُحتالُ له باليَسيرِ من الطمع، وليسَ مِنْ شأنِ العاقلِ التَّغريرُ، وليس بعد المُناجَزَة بقيّة، والمناجزُ لا يدري لمن تكون الغَلَبة، والتمسُّك بالثقةِ خيرٌ من الإقدام على الغَرر، وقال بعضهم: دامَ لك العزُّ، ومُدّ لك في البقاء، ليسَ في الذُّلِّ دَرَكٌ، ولا في الرِّضا بالضيم بقيَّة، فالرَّأيُ اتخاذ الحُصون وإذكاءُ العُيونِ، والاستعدادُ للقتال؛ فإنّ الموتَ في عزٍّ خيرٌ من الحياة في ذل. وقال بعضهم: وُقِيتَ وكُفِيت، وأُعطيتَ فَضْلَ المزيد، الرَّأيُ طلب المصاهرة له والخِطْبة إليه؛ فإنّ الصهرَ سببُ أُلفةٍ تقعُ به الحُرْمةُ، وتثبت بِهِ المودَّة، وَيُحِلُّ به صاحبُهُ المحلَّ الأدنى، ومنْ حلَّ من صاحبه هذا المحلَّ لم يخلُه مما عَراه، ولم يمتنع من مناوأة من ناواه، فالتمس خِلطَتهُ؛ فإنّه ليسَ بَعْدَ الخِلطةِ عداوةٌ، ولا مَع الشِّركة مبايَنة. فقال لهم الملك: كلٌّ قد أشارَ برأيٍ، ولكلٍّ مدَّة، وأنا ناظِرٌ في قولِكم، وبالله العِصمة، وبشكره تتمُّ النعمة، وأظهَرَ الخِطبة إلى الملكِ الذي فَوقَه، وأرسل رُسلًا، وأهدى هدايا، وأمَرَهُم بمصانعةِ جميع مَن يَصِل إليه، ودسَّ رجالًا من ثقاتِه، وأمَرهُم باتِّخاذ الحمام في بلاده وتَوطينِهنَّ، واتخذ أيضًا عندَ نفسه مِثلهنَّ، فرفَّعهن من غايَةٍ إلى غاية، فجعلَ هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم، وجعل مَن عندَ الملكِ يرسلون من بلاد الملك، وأمرهمْ بمكاتَبتِه بخبرِ كلِّ يوم، وتعليقِ الكتُب في أصولِ أجنحة الحمام، فصار لا يخفى عليه شيءٌ من أمره، وأطمعَه الملك في التزويج واستفردَهُ وطاولَه، وتَابعَ بين الهدايا، ودسَّ لحرسِه رجالًا يلاطفونَهمْ حتى صاروا يبيتون بأبوابه معهم، فلمَّا كتبَ أصحابهُ إليه بغِرَّتهم، وصل الخبر إليه من يومِه، فسار إليه في جندٍ قد انتخبهم، حتى إذا كان على ليلةٍ أو بَعْض ليلة، أخذ بمجامع الطُّرُق، ثم بيَّتَهُمْ ووثَبَ أصحابهُ من داخِل المدينةِ وهو وجنده من

خارج، ففَتحوا الأبوابَ وقَتَلوا المَلِك، وأصبَحَ قد غَلَبَ على تلك المدينة، وعلى تلك المملكة، فَعظُمَ شأنُه، وأعظَمتْه الملوك، وذُكِر فيهم بالحزْم والكَيْد. وإنما كان سبب ذلك كلّه الحمام».

سحب نفسا طويلا، وأضاف: «أنا لم أبعث حماما، بل بعثت رجلا شجاعا، عبد القهار الكندي، مرافق الوزير، فجاءني بأخبار مفصلة عن المغول، ولو كنت أملك القوة اللازمة ولنا رجال في دار العدو لهجمت من يومي هذا».

اكتشف الوزير في تلك اللحظة، المهمة التي غاب عبد القهار من أجلها، من دون حتى أن يستأذنه. قال أبو العباس الذي كان واقفا: «نعم الرأي يا أبتِ، لكنني لم أفهم ما قاله الوزير، هل يدعونا إلى رفع الرايات البيضاء وتسليم بغداد إلى العدو؟ رأي الوزير يعبر عما في دواخله ، عن رغبة الشيعة في زوال حكم بني العباس».

قهقه المستعصم بسخرية مريرة: «عندما يهدد العدو البلاد، فالجميع معرضون للخطر، ولا فرق في هذا بين شيعة أو غير شيعة. عندما يخل أحدهم بالنظام، فلا يصح أن نعمم فعلته على قومه وطائفته. إذا كنت تتهم أهل الكرخ بمعاداة النظام، هل تعتقد أن أهل الرصافة جميعا مخلصون لنا؟ طبعا لا. أعرف أنك متحامل بعض الشيء على أبناء الأمة من الشيعة، مع أننا حتى اللحظة لم نعرف بالضبط الجهة التي حاولت اغتيالك، ولا أراك في هذا تختلف عن حكاية شيخ دُعي بالشيخ الإباضي الذي جرى أمامه يومًا شيءٌ من ذِكرِ التشيُّع والشِّيعة، فأنكر ذلك واشتدَّ غضبُه عليهم، فسأله أحدهم: وما أنكَرت من التشيُّع ومن ذكر الشِّيعة؟ قال: أنكرتُ منه مكان الشِّين التي في أوّل الكلمة؛ لأني لم أجد الشِّين في أوّل كلمةٍ قطُّ إلاَّ وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشرٌّ، وشيطان، وشغب، وشحّ، وشمال، وشجَن،

وشيب، وشين، وشراسة، وشَكّ، وشوكة، وشرك، وشاني، وشتْم، وشتيم، وشنعة، وشَناعة، وشأمة».

ضحك الحاضرون، ووجد أبو العباس نفسه في وضع حرج، فجلس في مكانه متحاشيا نظرات أبيه.

قال ابن العلقمي الذي كظم غيظه على ما قاله نجل الخليفة: «لدينا خيارات تحفظ بغداد من الدمار والخراب. إننا يا مولاي، مهما أعددنا من قوة، فلن نصل بها إلى ربع عدد قوات العدو. لقد فعلها خلفاء من قبلكم، فقبلوا على مضض هيمنة السلاجقة والبويهيين، واستطاعوا بذلك حفظ الدولة والخلافة، فذهب السلاجقة والبويهيون وبقي كرسي الخلافة سالما. وعلينا الآن، وليس في أيدينا حل آخر، إرضاء هذا الملك الجبار هولاكو بالاعتراف به سلطانا، ونبذل له ولخواصه الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والتحف والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال و..».

توقف الوزير عن الكلام فاشرأبت الرؤوس تتطلع إليه، فأدرك الخليفة أن وزيره متردد في تبيان بقية اقتراحاته، فأشار إليه أن يواصل الكلام.

قال الوزير وهو يبلع ريقه: « كما قلت علينا أن نصانع العدو، أن نبذل الأموال والنفائس في استرضاء هولاكو، وأقترح على مولانا أن يعتذر إليه، وأن يذكر اسمه معه في الخطبة، وأن ينقش اسمه على النقود،وحينذاك يطمئن إلى نوايانا ولن يهاجم بغداد».

امتقع وجه الخليفة، وأحس بنفسه يهوي في قاع لا قرار له، فتساءل بصوت مختنق: «إننا لو رضينا بكل هذا الإذلال والمهانة، هل تعتقد يا ابن العلقمي أن هولاكوخان يتخلى عن الهجوم على بغداد؟».

رد الوزير محرجا: «أعتقد ذلك يا مولاي».

كاد المستعصم في لحظة الذهول واليأس هذه أن يعلن موافقته على اقتراح الوزير لولا هَبَّة أبي العباس والدويدار الصغير وسليمان شاه واقفين بوجوه تغلي بالغضب والتحدي. كان ذلك صفعة أعادته إلى رشده، وأفاقته على حقيقة طالما تناساها. هؤلاء الرجال لن يتوانوا عن خلعه أو سمل عينيه أو قتله، وسترى العامة أنهم على حق؛ لأن تنازله للمغول يعني دفع الناس إلى وضع رقابهم على خشبة المجزرة، أن يصبحوا عبيدا أرقاء؛ لأن الخليفة لم يفكر إلا بضمان بقائه حيا، وإن كان في وضع مُذِلّ لا يرتضيه أحد. لن يكون أول خليفة يقتل. قد يموت في أية لحظة، يتوقف قلبه، يصيبه مرض عضال، يخترق صدره سهم، أو تطعنه سكين، أو تميته قطرات من سم زعاف، أو تخنقه وسادة، أو تسقطه طاس حمام. بأي وجه يلقى ربه وقد خاطر بأرواح الأبرياء؟ ما الذي ستقوله الأجيال القادمة عنه؟ كان أبوه على حق في قوله إن المواقف الجيدة تضمن للمرء حياة أبدية في أذهان الناس. الوزير ينظر إلى الأمور بعينين غشاهما الخوف فلا يريان المستقبل، أما هو فها هي آلاف آلاف العيون من الماضي والحاضر والآتي تتطلع إليه، إلى قراره في هذه اللحظة لتحكم عليه حكما أبديا. حقا، المرء يصنع قدره.

انتابه شعور بالرضا، سرعان ما تحول إلى فرح، اكتسح عروقه ودواخله. إنها المرة الأولى التي نزع فيها شرنقة الخوف. أصبح يرى الأمور بوضوح أكثر، بقدرة أكبر. لم يعد هنالك ضباب يخيم على ذهنه. كان يعرف أن الآخرين لاحظوا ارتياحه، لكنهم ربما فسروه على أنه نهاية نوبة من آلام الشقيقة.

غادر سليمان شاه مكانه، ووقف وسط القاعة مواجها الخليفة: «ما قاله الوزير مبالغة لا محل لها، فأمير المؤمنين قادر على حشد جيش يفوق العدو عددا».

كان الخليفة شارد البال، وحين انتبه تساءل بغير حماس: «كيف هذا يا سليمان؟».

رد سليمان شاه متوترا: «الخطر ليس على العراق وحده، بل على كل ممالك المسلمين القائمة الآن، في الموصل جيش كبير ولا أعتقد أن الأمير بدر الدين لؤلؤ سيبخل بالمساعدة، وفي ممالك الأيوبيين في الشام جيوش جرارة، وتحت إمرة المماليك في مصر جيوش مدربة أثبتت قوتها وشجاعة فرسانها في المعارك الطاحنة مع الصليبيين، فيدعو مولانا أمير المؤمنين هؤلاء الملوك والأمراء إلى التحالف لمواجهة العدو المشترك».

قال الوزير ابن العلقمي: « علينا يا أمير المؤمنين أن لا نبني آمالا على مساعدة الآخرين لنا، فالأيوبيون في الشام والمماليك في مصر يشغلهم الصراع فيما بينهم، وتمنعهم المشكلات المشتعلة بينهم من النهوض لمساعدتنا، ولن يتحرك الترك والفرس لمساندتنا بعد أن استبد بهم الخوف والرعب من المغول».

لحسم النقاش حول هذه المسألة، قال الخليفة: «الاعتماد على الآخرين كليا مبعثه الكسل أو العجز، مثل التاجر الذي يعتمد على الآخرين، فلا بد أن تخسر تجارته وتنتهب أمواله. لكن الاستعانة بالآخرين أمر لا بأس به، غير أن علينا أن نحسب معها أسوأ الاحتمالات».

مد رأسه إلى الأمام حتى ظهر وجهه كله من تحت المظلة: «وأنت، يا قاضي القضاة، ما رأيك؟» .

نهض القاضي من مكانه مرتبكا، متلفتا حوله، وحين التقت عيناه بعيني الوزير، أدار وجهه سريعا. داهمته فكرة أن الآخرين، عدا الخليفة، يعرفون

تواطؤه مع زوجة الخليفة في شنق عبدول المجنون بدلا من أخيها. إنه الآن بين فريقين، الأول يناصر الحرب مع المغول، والثاني يريد تجنبها مهما كانت التضحيات، ولو أنه انحاز لفريق، فالفريق الآخر سيكشف جريمته. سأله الخليفة مدهوشا: «ما بك؟ لماذا لا تتكلم؟».

انتبه قاضي القضاة كالملسوع، فقال متلعثما: «نعم يا أمير المؤمنين، نعم، أقول ما قاله السادة الحضور».

انفجر المستعصم في ضحكة عالية، قال بعدها محاولا التقاط أنفاسه: «هذا يعني أنك تؤيد رأيين متناقضين؟».

اهتز الحاضرون بالضحك. ودّ عبد المنعم البندنيجي لو أن الأرض ابتلعته لكان ذلك أفضل من هذا الموقف الذي أصبح فيه عرضة للسخرية. قال ماسحا جبينه: «ما أردت قوله أنني مع كل حل يؤمِّن للبلاد السلامة والأمن والكرامة».

ردّ عليه الخليفة مشيرا إليه بالجلوس: «تلك هي المشكلة يا عبد المنعم، أين هو هذا الحل الذي يؤمن السلامة والكرامة في آنٍ؟».

أطرق برأسه مفكرا، وظلت أعين الحاضرين شاخصة نحوه تنتظر قراره. قال: «هنالك أسئلة لا يستطيع أحد منكم إعطاء أجوبة قاطعة عنها، هل يريد المغول أموالنا بالتهديد أم احتلال أرضنا بالقوة والحرب؟ هل نحن قادرون على التوصل إلى موقف موحد؟ هل يتخلى ملوك وأمراء العرب والمسلمين عن نظرتهم الضيقة ومصالحهم الخاصة ليفكروا أبعد من حدود بلادهم؟ هل لدينا القدرة على استغلال الوقت والتجهز لمواجهة العدو؟».

فرك جبينه، تطلع إلى الحاضرين. عاودته تلك الرؤية وتحذير الحلاج، ونبوءة ابن النيّار. تساءل بنبرة ساخرة: «يريد هولاكوخان حضور الوزير والدويدار مجاهد الدين وسليمان شاه، فهل ستذهبون؟».

رفع الوزير يده قائلا: «أنا حاضر لأية مهمة يكلفني بها أمير المؤمنين».

أما الدويدار وسليمان شاه فلم يجيبا بشيء. لم يكن ذلك مفاجئا للخليفة فلم يظهر عليه رد فعل، فقال: «حسنا، سنبعث بالهدايا إلى القائد المغولي مع رسول يحمل رسالة منا».

انبسطت أسارير الوزير، فرأيه قد تغلب على رأي الدويدار الصغير وأبي العباس وسليمان شاه الذين بدت الخيبة على وجوههم، أما ملامح أبي الفضل وسبط ابن الجوزي وقاضي القضاة فبدت محايدة.

أضاف المستعصم: « وفي الوقت نفسه، نجهز أنفسنا للدفاع عن بغداد وطلب العون من الممالك الإسلامية».

لاح الارتياح على وجوه المؤيدين لفكرة الحرب والدفاع، فتعالت أصواتهم بشعارات حماسية وابتهالات بالنصر المؤزر والدعاء للخليفة بالخير والعمر المديد، لكنه أشار بيده داعيا إلى الهدوء، فسكت الجميع. تساءل: «كم يستغرق إعداد الجيش؟».

رد الوزير: «بين شهر وشهرين».

قال الخليفة: « لنجعلها شهرين، وكم تبلغ نفقات إعداد جيش قوي؟».

أجاب الدويدار الصغير: «بين مائة ومائة وخمسين ألف دينار».

أما سليمان شاه فرأى أن النفقات بحدود المائتين وخمسين ألف، وقدّرها الوزير بثلاثمائة ألف دينار. كان المستعصم واثقا من أن حسابهم لا يستند على شيء سوى تقدير الرواتب، وأدرك أن عليه أن يسايرهم في ذلك، متمنيا أن يضع حدا لمزاعمهم بأن ما ينقصهم هو المال لإعداد جيش قوي. أعلن بشكل فاجأ الجميع: «سأضع غدا خمسمائة ألف دينار عند الدامغاني لتكون في تصرفكم لهذه الغاية المقدسة».

تململ الحاضرون تهيؤًا للمغادرة، فبادرهم الخليفة: «هل نسيتم أنني ذكرت كتابة رسالة للمغول؟ ما قاله بعض الإخوة فيه الصواب، نعم، إن الضعف يُغري الأقوى بالتعدّي على الضعفاء. إن القوي المستعدّ للمقاومة قلّما يُعتدى عليه، وترك الاستعداد يُغري بالعدوان ويُسرع بالاستسلام. إن الاستعداد بالقوة يمنع الحرب من أن يتّقِد أُوارها، ويجعل الأمة المستعدة في منعةٍ من أن تهضَم حقوقها».

ارتسمت على وجوه الجالسين علامات استفهام وتعجب، فلم يسبق لهم قط أن سمعوا المستعصم يتكلم بمثل هذه الثقة العالية بالنفس، وما حيرهم أنهم لم يعرفوا مصدر ثقته هذه.

أومأ للدامغاني أن يحضر ورقة وقلما. أحضر الدامغاني ما أراد، ثم أملى عليه الخليفة الرسالة التالية:

« من الخليفة المستعصم بالله عبد الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين، إلى قائد المغول هولاكوخان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أما بعد: نحن أمة مسالمة، طامحة إلى السلام الذي اشتُقَّ منه اسم ديننا الإسلام. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتجنب الحرب ونستنكر العدوان. ولا بد أنكم قد سمعتم وعرفتم أنه لم يُعرف عن الإسلام أنه أعلن الحرب

على الأمم الأخرى وهو في ذروة دعوته وانتشاره في أزهى عصور سيادته، إلا ما شرعه دفاعًا لدرء الخطر والذود عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء على أحدها، من قبل المولعين بالعدوان، من أعداء الإسلام، أو حروب الدفاع عن المستضعفين الذين يرضخون تحت الظلم والعدوان. أمرنا ديننا باستخدام القوة اضطرارًا وكضرورة قصوى، ونتمنى أن لا نضطر إليها؛ لأننا نحلم بعالم يسوده السلم والإخاء والمحبة.

أما إذا كانت نيتكم العدوان علينا، فاعلم أيها الشاب، يا من يبدأ صفحة حياته الأولى وقد أسكرته السعادة والطالع الحسن طوال عشرة أعوام، والذي لم يبلغ الحلم بعد، أظن أنك تريد أن تذهب بحياتك، وتطلب قصر الأجل، تتخيل أن إقبال الأيام، ومساعدة الظروف تدوم لك، كأنك تحاول السيطرة على العالم، وتحسب أن أمرك قضاء مبرم، وإرادتك حكم محتم، فأراك تطمع بما لا يتيسر. هل تتصور نفسك فوق الناس جميعا، وتعتقد أن أوامرك شبه أوامر الخالق سبحانه، فتطلب إليّ ما لا سبيل إلى الحصول عليه؟

أيخيل إليك أن مهارتك وقوة جيشك سبب في إيقاع أحد النجوم بالأسر؟ أما تعلم أن أهل المشرق والمغرب، من غني وفقير، وشيخ وشاب، ممن يدينون بدين الله، يذعنون لي بالطاعة، وإذا أشرت عليهم أن يجمعوا شملهم، فعلوا واستولوا على إيران، وتوجهوا من هناك إلى توران، فاكتسحوا ممالككم؟ إلا أنني لا أرغب في إيجاد البغضاء، ولا أود أذى الخلق، فلا أحب أن يفتح لسان الورى من هيبة جيوشي ورهبتهم بتحسين أو استياء.

لعلك لا تدري أننا أمة تأبى الضيم، إن العزة وإباء الضيم خلق عظيم فينا، ومركب عزيز، وإباء الضيم أول ما يقع في نفوس الرجال المَوكُولِ إليهم تدبيرُ شؤون الأمة، وتنفيذ آمالها، وتحقيق طموحها، ورسم خططها، وهذا ما

يدفعنا إلى أن نذود عن حياضها، وندافع عن حماها، ولو كان خصمها أعزَّ نفرًا وأقوى جندًا وأكثر نفيرًا.

إن أمتنا تقف موقف الرجولة والاحتفاظ بالكرامة ولو غلب على ظنّها أنها ستُغلب على أمرها، تفعل هذا إيثارًا لحياة العزة على حياة المهانة، وتجافيًا عن خزي وعار تتناقله الأجيال. والحق أقول، على الرغم مما قد نتعرض له من انتكاسات، تظل أمتنا قوية القنى، جليلة الجاه، وفيرة السنا، تزحزح سحائب الظلم والاستعباد، لا تستكين لقوة، ولا ترهب لسطوة. إننا لا نخشى إلا الله، مؤمنين بقوله عز وجل:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

اتبع سواء السبيل وارجع إلى خراسان. أما إذا أصررت على الحرب، فلا يغيب عن بالك أن جيشنا يحجب غبار خيله الشمس، وجنودنا قادرون في اللحظة المناسبة على جعل البحر غائضا ماؤه. والسلام».

وقف سبط ابن الجوزي قائلا بصوت وقور هادئ: «وفقك الله يا أمير المؤمنين. والأمة القوية تُحفظ مهابتها ما دامت صفة القوة ملازمةً لها، وتلكم سنة إلهية من السنن التي تُبنى عليها الحياة، فلا خير في حق لا نفاذ له، ولا يقوم حق ما لم تحُط به قوةٌ تحفظه وتسنده. نعم يا مولاي إن الاستعداد بالقوة يمنع الحرب من أن يتَّقِد أُوارها، ويجعل الأمة المستعدة في منعةٍ من أن تهضَم حقوقها، إعدادٌ واستعدادٌ من أجل اتقاء بأس العدو وهجومه. ولقد جاء هذا الغرض جليًا واضحًا في قول الله عز وجل:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

إنه استعداد ليكون سببًا في منع الحرب قبل أن يكون استعدادًا عند نشوبها وإشعالها. إن الضعف يُغري الأقوى بالتعدّي على الضعفاء. إن القوي المستعدّ للمقاومة قلّما يُعتدى عليه. إن ترك الاستعداد يُغري بالعدوان ويُسرع بالاستسلام، وإن أخطر ما تتعرض له الأمة هو الغفلة عن الخطر المحدق بها، والتقاعس عن إعداد القوة القادرة على الدفاع، قال تعالى:

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ .

وفقك الله يا أمير المؤمنين على سخائك في الصرف على إعداد الجيش وتسليحه، ووعدك الله خيرا، فقال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أما بقية الحاضرين، فلم يخطر في بال أحد منهم قط أن يأمر الخليفة بصرف مبالغ كبيرة أو يملي رسالة كهذه. عقدت الدهشة ألسنتهم فلم يرددوا عبارات المديح والثناء وهتافات النصر. ظلوا يحملقون في الخليفة وكأنهم يرون شخصا آخر. أما المستعصم بالله فكان أكثر استغرابا منهم. كانت تتنازعه مشاعر شتى، لم يعد يخاف شيئا، لكنه أيضا يخشى أن يكون مخطئا في قراره، أو متعجلا في موقفه هذا. كان يتمنى أن لا يتغلب عليه التردد، فيأمر بتغيير محتوى الرسالة. هل دفع بنفسه إلى الهاوية؟ ما بال هؤلاء يتطلعون إليه

مدهوشين؟ ربما كانوا يزايدون أمامه بالإيمان والشجاعة لأنهم توقعوا أن يتخذ موقفا ضعيفا. ليحسم أمره إذن.

نهض المستعصم واقفا: «عليك يا سبط ابن الجوزي أن تتجهز للرحيل رسولا مني إلى هولاكو».

وقف الحاضرون يتطلعون إلى المستعصم بهيبة واحترام وإعجاب.

* * *

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

18

ودّ عبد القهار لو أنه استطاع أن يقطع الطريق من محلة الشماسية إلى حريم دار الخلافة بقفزة واحدة. ضحك على أمانيه الطفولية رغم الخمسة والثلاثين عاما التي بلغها. ظلت أحلام اليقظة تصاحبه، ووجد فيها أحيانا سلوى حين تعترضه عقبات لا قدرة له على تجاوزها. في السجن، كان يتوقع بين الحين والآخر أن يفتح أحدهم الباب ويخرجه ويعتذر إليه. أحيانا كان يسمع صرير الباب، ويسمع أحدهم يناديه، فيقفز فرحا وسط ضحكات الخفاجي وبقية رفاق السجن، فالباب ظل موصدا، ولم يكن هناك من يناديه. لم يخبر أمه أنه كان وسط جنود المغول المتوحشين، ورأى بأم عينيه الجزار هولاكو، ولم يخبرها أن عشرات الآلاف من قوم يأجوج ومأجوج يتحفزون للمسير إلى بغداد وتدميرها. اقترح على أمه وعلى مريم الأرمينية أن يسافرا إلى واسط، لينزلا في دار صديق له هناك، فالطاعون قد انتشر في بلاد فارس، لكن الأم لامته، فحياتها مقرونة بحياة جيرانها ومعارفها والمدينة التي أحبتها، وذكّرته أنها لم تذهب لحج بيت الله الحرام خوفا من أن تموت في الطريق، فتدفن في مكان غير بغداد.

بدت له بغداد منذ أن عاد إليها، مدينة مهمومة مغمومة، فقد خيّمت عليها أجواء الخوف بعدما اختلطت الأقاويل بالمخاوف والشائعات. اكتشف أن

كثيرا من الأنباء لا صحة لها أو حُوِّرت وبولغ فيها بقصد أو بدون قصد. غابت ملامح الفرح التي كانت الوجوه تنطق بها، وانتشرت مفارز الشرطة والحراس على الطرق الرئيسة في المدينة، والاستفسارات مطولة مع الداخلين والخارجين من بغداد.

اختلق عذرا للوقوف عند باب قصر الفردوس، ونفح خادمة بدرهم لتبلغ الأميرة أمل بقدومه. لم تمض لحظة واحدة إلا وأمل أمامه، وكأنها كانت تنتظره وراء الباب. ظلت تتأمله بعينين تشعان فرحا. لم تفكر في القال والقيل في هذا المكان الذي تراقبه عيون الحراس ونساء الخليفة، فسكان قصر الفردوس فيهم عدد من المغضوب عليهم، من عائلات أعمام الخليفة، فمدت له يدها ليحتضنها بين كفيه، فيما ملأت أنفه رائحتها الطيبة. سألته وهي تسحب رأسها إلى الوراء وعيونها نصف مغمضة: «كيف توقعت وجودي، مع أنك اقترحت عليّ ترك بغداد؟».

أجاب مبحرا في عينيها: «توقعت بقاءك، ولم يكن اقتراحي سوى أمنية في أن تكوني بعيدة عن الخطر».

أخبرته أنها لا تفكر في سلامتها في وقت يهدد الخطر الآخرين. كان ما يقلقها هو مصير والدها وعمها، فالأعداء لو دخلوا بغداد لن يكتفوا بقتلهما، وإنما سيمثلون بهما، وأنها اتفقت مع ابنة عمها الأميرة علية أن تخلصاهما من السجن، لكن ذلك تطلب وجود رجل قوي، لكنها مع رغبتها الشديدة هذه لا ترضى بتوريطه في مغامرة قد يفقد حياته معها.

تطلع إليها بابتسامة مطمئنة: «يسعدني القيام بأية مهمة ترضيك».

سألها على حين غرة: «هل تقبلينني زوجا لك؟».

أسدلت أجفانها وأطرقت برأسها إلى الأرض فيما توردت وجنتاها خجلا، وهزت رأسها. فرك يديه فرحا، قال لاهثا وكأنه قد أنهى سباقا في الركض: «أعرف أن الظرف الحالي لا يسمح بذلك، لكنني سألتك ليطمئن قلبي».

ودّ لو حضن وجهها وطبع عليه قبلة طويلة. قال منتشيا: «سيكون لك ما تريدين».

مشى شارد الذهن، فقد تراءت له أحلام اليقظة، فرأى نفسه مع أمل تحت سقف واحد، يركضان في الحقول، ويردد على مسامعها قصائد الغزل وهما جالسان في زورق يتهادى فوق مياه دجلة المذهبة بأشعة شمس الأصيل. وجد نفسه عند باب النوبي، فتذكر أن عليه مقابلة أمير المؤمنين، فعاد مهرولا.

* * *

في تلك الظهيرة الخريفية، كان المستعصم جالسا على كرسي من الصندل المذهبة حافاته في شرفة قصر التاج المطلة على نهر دجلة. كان يتطلع إلى الغيوم المسرعة القادمة من الغرب عابرة سقوف الدور وقمم الأشجار والنخيل المكتظة على حافة النهر العالية في جانب الكرخ. هبت ريح ندية بقطرات خفيفة من المطر. بين الحين والحين، كانت أعمدة ضوء الشمس تمتد عبر فجوات بين الغيوم، فتنعكس على صفحة مياه النهر، وعلى وجوه المتنزهين في زوارقهم المنحدرة مع أمواج النهر الهادئة، وعلى وجه الصيادين المتحفزين لأية حركة من شباك صيدهم. حين أدار رأسه، رأى في الرواق أحد الحراس يميل برأسه إلى عبد القهار، مشيرا إلى الشرفة. ابتسم الخليفة مرحبا، وانحنى عبد القهار محييا. لم يبخل عليه المستعصم بعبارات الثناء، ليس فقط لمعلوماته

المهمة، وإنما لشجاعته أيضا. طلب منه أن يحدثه ببعض التفاصيل، فأجاب عبد القهار بوضوح تام، من دون أن يتلعثم أو يداري في إخفاء بعض المعلومات التي كان واثقا أن الخليفة لا يحب سماعها، لكنه شعر بأنها أمانة وضعها الخليفة نفسه في عنقه بسرد كل الحقائق.

قال المستعصم متأملا صفحة النهر: «ما أروع منظر دجلة! حين تنعكس أشعة الشمس على موجات النهر، تحولها إلى قطع فضية مترقرقة. ما رأيك يا عبد القهار في وصفي هذا؟».

دهش عبد القهار لأن الخليفة، وليس غيره، يسأله عن رأيه، فقال مبهورا: «وصف رائع يا مولاي».

تساءل المستعصم من جديد من دون أن يلتفت: « قبل سبعين سنة، جاء إلى بغداد الرحالة الأندلسي ابن جبير، فوصف دجلة بأنها مثل قلادة من لؤلؤ تتموج بين نهدين، فأي الوصفين أجمل؟» .

أجاب عبد القهاربصوت خفيض: «كلاهما تشبيه رائع يا أمير المؤمنين».

التفت الخليفة إليه مبتسما: «جوابك أكثر روعة، فأنت لم تفضل تشبيهي لأنني الخليفة».

قال عبد القهار مستدركا: «ما قاله طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن رائع أيضا، فقد قال متغنيا ببغداد ودجلتها:

سَقى الله صوبَ الغادياتِ محلةً ... ببغدادَ بين الخُلدِ والكرخِ والجسرِ
هي البلدةُ الحسناءُ خُضت لأهلِها ... بأشياءَ لم يُجْمَعن مذ كنَّ في مصرِ
هواءٌ رقيقٌ في اعتدالٍ وصحةٍ ... وماءٌ له طعمٌ ألذُّ من الخمرِ

ودِجلتُها شـطـانِ قـد نُظما لنا بتاجٍ إلى تاجٍ وقصرٍ إلى قصرِ
ثـراهـا كمسكٍ والمـيـاهُ كفضةٍ وحصباؤها مثلُ اليواقيتِ والدرِّ»

علق المستعصم كالحالم: «أحسنت، كيف فاتني ذكر تلك الأبيات؟ كل شعر في بغداد عندي رائع وجميل».

شرد ذهن الخليفة لحظات، وحين انتبه، نهض من مكانه وبان الجد على ملامحه التي كانت قبل لحظات قصيرة، باسمة منبسطة. وضع يديه على سياج الشرفة: «إن شجاعتك نالت إعجابي واهتمامي؛ لأنك تمتلك معها ما يديمها ويعززها من صدق وأمانة وحسن تدبر. كنت أفكر في الخوف والشجاعة. أنا إنسان مثل الآخرين، وربما أكثر عرضة للخطر منهم. لا أخفي عليك، كنت أخاف، وحين يسري الخوف في نفسك فلا يقتصر على ناحية دون أخرى. لكنني اكتشفت بعد تأملات طويلة، أنه في الأماكن التي تشتد فيها الريح غالبا، لا وجود لجذوع ضعيفة، بل تجد الأشجار ذات جذوع قوية، صلبة. اكتشفت أن أنجع وسيلة للقضاء على الخوف هي أن تُقدم على فعل ما تخاف منه، وحينذاك، تضحك وتتألم لأنك أحجمت عن هذا الفعل من قبل. لا شك أن من يخاف أن يقهر، عليه أن يتوقع الهزيمة. من يخوض الحرب دفاعا عن بلاده، يؤدي واجبه، أيا كانت النتائج. اكتشفت أن القوة التي يحتاجها القائد أو الأمير أو الملك، ليست في زيادة أعداد جيوشه، بل هي أقرب إليه من أصحابه، إنها في داخله. إنها موجودة بالفعل داخل كل واحد منا، وما عليه سوى استنهاضها من تلك الأعماق. قال الحكماء : الجبن هو أن ترى الصواب ولا تفعله».

ظلت عيناه ثابتتين على أمواج النهر. أضاف معتدلا في وقفته: «سيعود سبط ابن الجوزي إلى هولاكو برسالة مني. كنت أود لو أنك ستكون بصحبته، لكنني أحتاجك لمهمة أخرى أكثر أهمية. منذ هذه اللحظة ستكون مرافقي وظلي وحارسي الشخصي. ستكون الوحيد الذي يدخل عليّ من دون إذن، والوحيد المطلع على كل الأمور، والمؤتمن على كل الأسرار».

كان عبد القهار سعيدا بهذه الثقة التي أولاها إياه أكبر رجل في دنيا المسلمين، الخليفة المستعصم بالله، وسعيدا لأن هذا القرب سيسهل عليه مستقبلا التقدم لخطبة أمل. لكن كيف سيكون أمينا وهو يستعد لمغامرة اقتحام السجن وتهريب الخفاجي وأخيه؟ سيعطي الأميرة الحبيبة وعدا قاطعا بحمايتهما، وإذا ما داهم الخطر بغداد، سيكون إخراجهما من السجن مهمته الأولى.

سأله المستعصم بالله مدهوشا من سكوته: «ألا تعجبك هذه الوظيفة؟».

ارتأى عبد القهار أن يطرح على الخليفة أمر تأمين سلامة السجينين عند حدوث هجوم على أسوار بغداد، لكن طرح هذا الأمر الآن يبعث تشاؤم المستعصم ويزيد من حزنه. أجاب بعد انحناءة طويلة: «بلى يا مولاي. ثقتكم الغالية عقدت لساني فلم أستطع التعبير عن سعادتي الكبيرة».

لم تكن ثقة الخليفة التي عقدت لسانه، إنما هي الدهشة باكتشافه أن الخليفة يهتم بمشاعر إنسان بسيط وبما يعجبه أو ما لا يعجبه. همّ المستعصم بمغادرة الشرفة، لكنه توقف فجأة ملتفتا إلى عبد القهار: «أعجبني أسلوبك وصراحتك في كتابة رسائلك وتدوين يومياتك تلك. تحدثت يوما مع ابن أبي الحديد، لكنه لم يأتِ برأي قاطع في الأفضلية بين القلم والسيف، لكنني أرى أن إنجازات القلم تبقى خالدة، بينما ما يصنعه السيف يتغير بتغير الدول

والقوة. أتمنى أن تسجل من يومك هذا كل ما يسترعي انتباهك من أحداث ومشاهدات، فلعلي يوما، بعد أن تنتهي الأزمة مع المغول، أقرأ ما كتبته فأستعيد ذكريات هذه الأيام الحرجة الحافلة بالتحديات..».

سكت المستعصم فجأة، تنهد طويلا. أكمل بعد لحظة: «إذا كُتب لي أن أخرج من الزوبعة سالما. إذا لم يُتَحْ لي يوما أن أقرأها، فسيقرؤها آخرون».

* * *

حين التقى بعبد القهار، كان الوزير غاضبا، فمرافقه قد أخفى عليه أمر المهمة التي ذهب من أجلها إلى مقر قيادة هولاكوخان، مع أنه قدَّر شجاعة عبد القهار وما حققته مغامرته من نتائج. أدار رأسه عنه قائلا: «ما يغضبني هو أنك أخفيت عني الأمر، حتى وإن كانت مهمتك سرية، فأنا صاحب الفضل في عبورك عتبة باب النوبي. أنا الوزير، وسر الخليفة سري، فلا مبرر لكتمانك الأمر عني».

خطا مبتعدا قليلا، أدار وجهه فجأة: «يؤسفني يا عبد القهار أن أعلمك باستغنائي عنك، وعليك العودة إلى وحدتك العسكرية، ولولا نجاحك في مهمتك في مقر المغول لأعدتك جنديا بسيطا».

ردّ عبد القهار متمهلا: «سيدي الوزير، جئتك لأعبر لك عن أسفي لعدم قدرتي على إخبارك بتلك المهمة».

رفع الوزير يده متجهما: « عليك العودة إلى وحدتك حالا».

قال عبد القهار بنبرة هادئة أثارت استغراب ابن العلقمي: «سيدي إنك لم تدعني أوضح لك».

أضاف متجاهلا يد الوزير التي ارتفعت ثانية: «لن أعود إلى وحدتي، لا تمردا على أوامركم، بل لأن مولانا أمير المؤمنين اختارني مرافقا خاصا له».

شعر الوزير أنه تعجل في أقواله، ولو أنه منح الفرصة لمرافقه، أو من كان مرافقه، لتوضيح موقفه، لكان موقفه أفضل، فقد أصبح عبد القهار الآن في منصب مؤثر؛ لأنه سيكون الأذن التي يسمع بها الخليفة، والعين التي يرى بها الأمور من حوله. فكر أن من الممكن للدويدار الصغير، بما يمتلكه من حيلة وقدرة على الإقناع أو الإغراء بالمال، أن يستميل عبد القهار إلى جانبه، وليس من المستبعد أن يقنعه أبو العباس بأن يكون عينه على أبيه. لم يرد أن يزيد عدد المناوئين له، فقال مداريا: «أعرف أنك تستحق أكثر من هذا المنصب، لكنني وددت معاتبتك فأخطأت التعبير».

ردّ عبد القهار باسطا يده لمصافحة ابن العلقمي: «سيظل احترامي قائما لك سيدي الوزير».

* * *

19

جمادى الثانية سنة 655 هجرية

أعتقد أن عدم احتسائي الخمر، في مجالس عامة، أو مع أشخاص آخرين، وعدم تعصبي لمذهب معين، أو طائفة من الطوائف التي تكاثرت وتناسخت في بغداد، جعلني أهلا للثقة. لا أخفي أنه لم يُعرف عن عائلة المنصور التي أنتمي إليها التشدد في الدين أو التدين عامة، فكثيرا، ولا أدري إن كان هذا من باب المدح أو الذم، ما كان يُنسب إلى أعمامي وأخوالي كرمهم البالغ في إقامة الولائم ومجالس الشراب وحفلات الطرب، والوداعة عند السكر، والغناء في أقصى درجات النشوة، وتماديهم في العشق، وإليهم كان يحتكم صناع النبيذ في جودة إنتاجهم. لم يكن ذلك يعيبهم، وكان خالي عبد الرازق المنصور، رحمه الله، يجيب من يدعوه إلى ترك الخمر، مستشهدا بمقطع من كلام للجاحظ حفظه عن ظهر قلب: « أنت تعلم أنك إذا شربته عدلت به طبيعتك، وأصلحت به صفار جسمك، وأظهرت به حمرة لونك، فاستبدلت به من السقم صحة، ومن حلول العجز قوة، ومن الكسل نشاطًا، وإلى اللذة انبساطًا، ومن الغم فرجًا، ومن الجمود تحركًا، ومن الوحشة أنسًا. وهو في الخلوة خير مسامر، وعند الحاجة خير ناصر. يترك الضعيف وهو مثل أسد العرين ، يلان له ولا يلين».

أتذكر هنا حادثة وقعت في سنوات طفولتي، ففي ظهيرة أحد الأيام، وكنت واقفا أمام باب الدار مصغيا لدقات ناقوس دير الرهبان القريب من دارنا، فجاء شيخ بلحية طويلة بيضاء وعمامة كبيرة، يسألني عن خالي عبد الرازق؛ لأنه يحتاجه للمشورة في أمور تجارية، فأخبرته أنه خارج الدار. سألني الشيخ عن المكان الذي يصلي فيه خالي، فوقع نظري على الدير، فأجبته: «يصلي خالي في الدير». فذعر الشيخ ولم يدقق كلام طفل، وراح يهرول صارخا: «أيها الناس، لقد ارتد التاجر عبد الرازق عن دينه». ومنذ ذلك الحين أدركت أنه ليس كل ذي لحية وعمامة عاقلا حكيما.

كان أبي ناصر الدين الحسين بن منصور مثل من سبقوه من آبائه وأجداده، وزّانا في سوق العطش في الشماسية، وشاء حظه العاثر أن اكتشف يوما فرقا كبيرا في أوزان الحنطة المقررة للجنود والحراس، فوجد ذلك كفرا وسرقة لا يمكن السكوت عنها، وكان دافعه الأمانة والواجب. ذهب أبي، رحمه الله، إلى المحتسب شاكيا، لكن المحتسب أمر بضربه وإرساله إلى سجن في بغداد، فقد كانت الحنطة من حاصل مزارعه. وفي فلتة من فلتات الدهر، أمر الخليفة المستنصر بالله بإطلاق سراحه، فتركت العائلة منذ ذلك الحين مهنتها المتوارثة.

فتحت عيني في تلك المحلة مطمئنا أن الناس جميعا أقارب لنا، وأهل بغداد أسرة واحدة باستثناء القتلة واللصوص والعيارين. كنت في صباي أتردد على المساجد والجوامع، وأزور كنيس اليهود ودير الرهبان النصارى، وأدخل بيوت الجيران من غير استئذان، أرتوي من ماء حُبابهم البارد، أهش أشجارهم لألتقط ثمارها، أستريح في ظلال حيطانهم في ظهيرة الصيف، وألجأ إلى شرفاتهم عند سقوط المطر. كنت أطرب لموسيقى النهار، التي تبدأ

مع صياح الديكة في الساحات الندية، وخوار البقر المنتظرة أصابع الحالبات، ومواء القطط الجائعة، ونباح الكلاب السائبة، وصيحات الأمهات المتعبات، وصراخ الأطفال، وزعق الصبيان المشاكسين، وصهيل خيول العابرين المتعبة، ونهيق الحمير المثقلة بالأحمال، ونداءات الباعة الجوالين في الأزقة. عند العصر، أسمع همسات الصبايا وهن يتبادلن الأسرار ويطرحن الأمنيات. وفي الساعات الأولى من المساء، حين تضوع رائحة زهرة رائحة الليل «الشبوي» والزنبق والنرجس، يصدح من البساتين القريبة صوت مغنيات يرافقه قرع الطبول وقهقهات السكارى. في تلك اللحظات كنت أقفز بين نجمة ونجمة، راسما على لوحة السماء أحلاما غريبة، وأحط متعبا على صفحة القمر. أما في أمسيات الشتاء، فكنت أرى نفسي بطل كل الحكايات التي رواها أبي، خاصة حكايات سيف بن ذي يزن الطويلة، والسندباد البحري، والسحرة الملاعين، بينما كانت أمي تحرك مصفية عيدان الفحم أو تنفخ فيها لتتوهج من جديد، فأغفو مع رقصات لهب الشموع والفوانيس والبطل المحاصر الذي لا بد أن يجد حلا في الليلة التالية.

في كل صباح، كنت أشق طريقي إلى المدرسة المستنصرية بين الدور والبساتين قبل أن أعطف إلى شارع الميدان الممتد بين الشماسية وسوق الثلاثاء، راكبا حماري الصغير، حاملا قرطاسي ودواة الكتابة، معبئًا جيوبي بتمر وتفاحة وقطع خبز، متصفحا وجوه الناس في الأزقة والأسواق، متأملا القصور الفارهة على شاطئ النهر وحدائقها الغنّاء، أتوقف أحيانا عند بعض الأطلال لأنها بقايا الماضي، فقد كنت أرى الماضي مجرد قبور وخرائب وأساطير. عند العصر، كنت أشغل نفسي بالعناية بأشجار ونباتات بستاننا الصغير المحيط بدارنا، أو مشاهدة سباقات الخيول وصراع الديكة.

كبرت وعرفت الحب وهويت السفر وطلب المعرفة. تزوجت مبكرا، لكن زواجي الأول لم يدم أكثر من ستة أشهر؛ لأن من تزوجتها نغصت حياتي بمبالغتها في العبادة حتى أهملت أمري، وأخبرتني في صباح أحد الأيام أنها رأت في منامها ملاكا أخبرها أن زوجها من أهل النار وإذا ما انفصلت عنه كتبت لها الجنة، فوجدت ذلك فرصة للخلاص منها. لم أقتنِ جارية، كعادة الكثيرين من أهل بغداد، بل استأجرت خادمة عجوزا أرمينية كانت قد بيعت في شبابها الغض في سوق الرقيق، فتنقلت في قصور الأثرياء راقصة بين موائد الشراب، وحين فارقها الشباب، لفظتها القصور، فجئت بها إلى داري، لا حاجة إليها ولكن عطفا عليها.

أما أبي فقد عمل في التجارة بين بغداد وبين الموصل والري وهمذان ومدن الشام والروم، وازدهرت تجارته وذاع صيته، لكنه وقبل أربع سنوات فقط، اختفى في ظروف غامضة بين مشهد الكاظمين وخرائب مدينة المنصور المدورة، عند عودته من الموصل، واختفت بضاعة قافلته التي وضع كل أمواله فيها. قيل : خطفه الجن، وقيل : أكلته السباع، وقيل : إنه غيّر طريقه في اللحظة الأخيرة إلى مرو، وقيل : هاجمته عصابة يقودها متنفذون في قصر الخلافة. بحثنا عنه كثيرا، وسألنا كل المنجمين وقطاع الطرق وبثثنا العيون، لكننا لم نحظَ بجواب.

أنا مسلم لكني بلا مذهب معين، مع أني درست المذاهب الأربعة كلها في المدرسة المستنصرية، ومع أن هذا يبدو ضربا من الانفلات، لكنني رأيت ما حل بين الناس من حقد وبغضاء بسبب الاختلاف بين المذاهب والتعصب لها.

* * *

حتى هذه اللحظة، وبعد شهرين في خدمة أمير المؤمنين، لا أدري إن كان قبولي بمنصبي هذا نعمة أم نقمة، على الرغم من أنني لم أنسَ كلمات الوزير ابن العلقمي « صاحب السلطان، كما قال الأولون، كراكب الأسد، يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب». إنها نعمة ونقمة في آنٍ. استجدت أحداث اقتنعت فيها أنني كنت على صواب، ربما كنت أول العارفين بمجريات الأمور في الأزمة التي ألقت بظلالها على بغداد وعلى قصر التاج. لعلي ومنذ اليوم الأول في مرافقة إمام المسلمين، لم أندم على موافقتي، فالمستعصم بالله ليس بالحاكم المستبد الأهوج الذي لا يمكن توقع ردود أفعاله ونتائج فوراته العصبية، فالذين عرفوه من خلال احتكاكهم به، وعملهم معه، يجمعون على أنه حليم، كريم، سليم الباطن، متمسك بالدين وحسن الديانة، مبغض للبدعة، بعيد عن التطرف. أما ما يتحدث به الناس عن حفلات الطرب والغناء التي يقيمها في القصر، فلا أراها تنقص من مكانته، فهي حياته الخاصة ولا تسلب أحدا حقا من حقوقه، ولا تظلم واحدا من الرعية. الكثير من الحاشية والناس يفعلون ما هو أسوأ، لكن الخليفة الوحيد الذي يراقب الجميع كل صغيرة وكبيرة منه. والمستعصم ليس أول خليفة يطرب للغناء، فمعظم خلفاء بني العباس فعلوا ذلك، بل تمادوا فيه أكثر مما يحتمل، وهذا ما لم يفعله المستعصم بالله. الفرق كبير، إنه يحب الغناء ويطرب له ويجد فيه تخفيفا لصداع الشقيقة، ولا يقرب الخمر، فتصدر عنه حماقات يتضرر منها الآخرون. وفيما يتعلق بتربية الحمام، فهي هواية ممتعة كما أن فيها فائدة لا تثمن، خاصة حمامه الزاجل.

قبل أسبوعين، وفي الساعة التي بدا فيها شبح الحرب جاثما على العراق، كنت مع الخليفة وهو يتفقد أبراج الحمام. عند تلك الأبراج، رأيته شخصا

آخر، فقد ألقى بكل همومه، وهاله مقامه عند عتبة السقيفة، فبدا سعيدا، بشوشا، مفعما بالحيوية والنشاط، يتنقل أمام الحمام بدهشة طفل ومتعته وخفته. قال لي مزهوًّا: « ما يميز الحمام عن غيره صفات جميلة محبوبة، منها حبُّه للناس، وأنس الناس به، ويتخذه الملك والفقير، الصغير والكبير، النساء والرجال، وهو من الطيور التي في مطلعها اليُمن، ولا تظهر له عورة كالكلب والحمارِ وغيرهما، يشرب الماء بطريقة يستحسنها من يراها، فهو لا يلطع كالكلب ولا يحسو كالديك. عندما يزق الحمام لفَرخه، يجد لذة في تغذية صغاره حين يشاركهم مما في جوفه بعد أن هضمه ليسهل عليهم ابتلاعه. أما طريقة الحمام في الحب فما أشبهها بالبشر، فالذكر يبتدئ الدُّعاء والطرد، وتبتدئ الأنثى بالتأتي والاستدعاء، ثمَّ تمكّن وتمنع، وتجيب وتصدف بوجهها، ويحدث لهما من التغزّل والتفَتّل ومن السّوف والقبَل، ومن المص والرَّشف، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في الفم. ترسل الأنثى جناحيها وكفَّيها على الأرض، وترى الذكر من كسْحه بذنبه، وارتفاعه بصدره، ومن ضربه بجناحه، ومن فرحه ومَرحه. يعجبني الحمام لتميزه بحسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثَبات الحِفظ والذِّكْر، وقوةِ النِّزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه».

أحسست بتأنيب ضمير أني حسدت الخليفة على سعادته تلك، فعند خروجنا من السقيفة، انتبه الخليفة إلى حمامة تحلق عاليا، قادمة نحو القصر. اصفرَّ وجهه فجأة، وراحت يداه تتحركان باضطراب من عمامته إلى تمسيد لحيته، إلى فرك عينيه وتدليك جبهته. ظلت عيناه مشدودتين إلى الحمامة حتى حطت على سياج البرج. أدهشني المنظر وأفزعني بما رأيته من تغير في ملامح المستعصم. احتضنها بكفيه المرتعشتين. استل من تحت جناح الحمامة ورقة

صغيرة، فتحها ببطء قارئا ما فيها بصوت مسموع: «فشلت مهمة سبط ابن الجوزي. أمر هولاكو بتجهيز الجيوش والتأهب».

قال بصوت خفيض، وكأنه يحدث نفسه: «تكتم على الأمر حتى أجد اللحظة المناسبة لإعلام الناس بالخبر. كنت أتمنى أن لا يحدث هذا. لا يتحمل سبط ابن الجوزي وزر فشل مهمته، كنت أعرف أن السلام مع المغول أمر مستحيل ما داموا طامعين في بلادنا، لكنني أملت أن يفكروا بما تتمخض عنه الحرب من خسائر في الأرواح، لكنهم حقا قوم متوحشون لا تساوي عندهم حياة الإنسان شيئا».

رفع رأسه، فاختفى اكتئابه وتهلل وجهه، أضاف بنبرة واثقة متفائلة: «لكن ذلك ليس مفاجئا لنا، فقد صرفت على الجيش أموالا طائلة، ولبيتُ كل طلبات الوزير والدويدار وسليمان شاه، وأُنجزت المهمة، وإن قواتنا الآن على أهبة الاستعداد. أفرحتني الأخبار التي نقلها لي القادة بأن جيشنا طوّر سلاحا يمكنه إحراق أبراج العدو إذا ما تقدمت نحو أسوارنا، واخترعوا سلاحا فتاكا يمكنه أن يكثف حرارة الشمس ويسقطها على أفراد العدو فتقتلهم».

بقيت مبهوتا، جامدا في مكاني، متسائلا في نفسي إن كان المستعصم على ما يرام، فلم أعهده يهذر هكذا. لم يكن شارد البال فأعزو قوله إلى أحلام يقظة حلقت به بعيدا عن واقع مر. سألني وهو يدخل الحمامة في البرج إن كنت أشكو من شيء! لم أجب بشيء. لم أخبره بأنني لم أسمع شيئا عما وصفه بقوات مجهزة مستعدة، بل كان العكس هو الحاصل، فعدد الجنود بدأ بالانخفاض نتيجة عدم صرف رواتبهم لعدة أشهر، ولم أسمع من أحد من ضباط الجيش الذين أعرفهم شيئا عن سلاح جديد، أو حتى عن صيانة أسلحة قديمة.

في الطريق إلى مقره في القاعة المخصصة لاجتماعاته مع كبار المسؤولين، حاولت معرفة ما إذا كان واعيا لما قال: «مولاي، لا بد أن الجيش سيزداد حماسة لو شرفتموه بزيارة لكم، تستعرضون أعداده وتقيّمون استعداده».

ردّ وهو يرفع أذيال ثوبه قبل صعوده درجات بوابة القصر: «إذا ذهبت إليهم مقنَّعا، فلا شك أن ذلك سيخلق انطباعا غير مريح في نفوسهم، وإذا ذهبت من دون قناع، يهيج الضوء عينيّ فأعاني حينها من الصداع. لا تنس أن هنالك أناسا تلك هي مهمتهم. ربما لا تعرف ذلك؛ لأنهم اقترحوا أن يبقى الأمر طي الكتمان ليكون مفاجأة للعدو».

* * *

آليت على نفسي أن أكتشف السر، واكتشافه صار عليّ نقمة قاسية. معرفة السر لم تكن يسيرة، فعلاقتي مع الوزير أصبحت رسمية، هو من شاء ذلك ولست أنا. أصبح يشك فيّ ويحمل كلماتي على ألف محمل. التقيته قبل أسبوعين في دار الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي الذي أقام وليمة كبرى بمناسبة ختان حفيده، أحد أولاد نجله الأكبر فلك الدين محمد. انفرد بي جانبا، وتحدث كثيرا عن الدويدار الصغير وأطماعه وتحركاته المشبوهة وعن قساوته حتى مع أهل بيته، وخاصة زوجته الأميرة شمس. كنت قد سمعت ذلك الكلام منه من قبل، غير أن الجديد في كلامه رغبته المضمرة في أن أكون إلى جانبه ضد الدويدار مجاهد الدين أيبك. كنت محايدا في عباراتي وردود فعلي، وحين يئس، رَبَّتَ على كتفي وتركني. أشد ما يثير استغرابي أن ينجرف رجل نابه، كريم، واسع المعرفة، متحدث، وفي هذا المركز الكبير المرموق، في العداوة إلى حد أن بات مصدر الخطر على الأمة، بالنسبة له، الدويدار وسليمان شاه وليس المغول واحتمال هجومهم.

لم يكن الدويدار الصغير أحسن حالًا من الوزير. بعد شهر من وجودي في القصر، دعاني إلى وليمة عشاء في داره وأخبرني أن هنالك مدعوين رغبوا في التعرف عليّ. عندما وصلت هناك، لم يكن هنالك أحد غيري، فاختلق أعذارا بأنهم قد اعتذروا في اللحظة الأخيرة بسبب حريق شبّ في مخزن حبوب أحدهم. لم يحدثني كثيرا مثل الوزير، بسبب لكنته التركية وتعثره دائما في إيجاد المفردة العربية المناسبة لما يود التعبير عنه. قال إن الوزير يخطط ومنذ فترة طويلة لإحداث انقلاب يستولي فيه العلويون على الحكم ويزيحوا العباسيين، وإن ابن العلقمي كان وراء محاولة اغتيال أبي العباس. لم يطلب مني الدويدار، بطريقة سافرة أو من طرف خفي، الوقوف إلى جانبه ضد الوزير، بل أوحى لي بأن مستقبلي يعتمد على رضاه عني، فالخليفة يعاني من الشقيقة وربما قضت عليه يوما. كنت معه محايدا أيضا، لكنه كظم استياءه مني، وبقيت ابتسامته المجاملة. الغريب أن الوزير والدويدار على طرفي نقيض في كل شيء، إلا العداوة المتبادلة وتجاهل الخطر المغولي.

كنت أحسن حالا مع الاثنين من حالي مع أبي العباس. في الأيام الأولى، اقتضت إحدى المهمات أن أبلغه بقرار المستعصم في مسألة تخصه، فذهبت إليه في مقره في دار الخلافة. كان حرسه الخاص أكثر من حرس أبيه، ومقره أكثر فخامة وأبهة من مقر الخليفة. تهامس الناس في الآونة الأخيرة بحكايات غريبة عن تصرفات نجل الخليفة الأكبر عندما يسرف في الشراب، منها أنه كان يلبس عمامة تشبه عمامة الرشيد المريشة، ويقفز فجأة شاهرا سيفه يضرب به الهواء، صارخا بأنه قتل أحد المتآمرين من الجن، ومنها أنه يأمر المغنيات فجأة بتقليد أصوات الحيوانات، أو يأمر أتباعه أن يبول أحدهم على الآخر، وأنه بعد محاولة الاغتيال، وما أصابه من عطل، كان يستعرض الجاريات وهن

عاريات، ثم يجهش بالبكاء لأنه لم يستطع أن يفعل شيئا. كانت ثيابه بألوان فاقعة تذكرك بأزياء القرّادين والمهرجين في الساحات العامة أيام الأعياد. وقف وراء كرسيه المذهب عدد من جلاوزته المخصيين وبعض مساعديه ممن لم تسود شواربهم بعد. تلقاني ببرود، لا أدري إن كان متعمدا أو أن تلك هي طريقته في التعامل مع الآخرين. كان عليّ التركيز فيما كان يقوله، لكونه ألثغ يجعل الراء غينا، وعلاوة على هذا فهو يمط عبارته، تكبرا وغرورا. كان حذرا في الحديث عن أبيه، لكنه لم يتوانَ في شتم مساعدي الخليفة بكلمات لا تذكر إلا على ألسنة السقطة واللصوص، مما أجد حرجا في ذكرها، وفي مقدمة من شتمهم الوزير ابن العلقمي، مستغربا بقاءه في منصبه كل هذه السنين. ألقى عليّ خطبة طويلة تمنى فيها لو أن الأمور كانت بيده لزحف هذه اللحظة بالجيش إلى قراقورم، عاصمة المغول، ولن يكتفي بحرقها، بل سينبش قبور ملوكها ويرش هياكلهم العظمية بالملح. أخبرني أنه يرفض السلام مع المغول، ولا بد من إرغامهم على دفع الجزية. مع كل عبارة، كان الأعوان الواقفون يكبرون ويصفقون ويهتفون لأبي العباس، وكأنه حقا قد هزم المغول، واحتل عاصمتهم، وأخذ الجزية منهم. قال إنه سيفتك بهولاكوخان، فتوسل به أحد أعوانه أن يُبقي هولاكو على قيد الحياة ليرى بعينيه ما سيحدث لأخيه الخان الأعظم منكو على يد البطل الهمام أبي العباس. كان نجل الخليفة يستشهد بأبيات من الشعر، لا تناسب ما أراد، وفوق ذلك كان ينسبها كيفما اتفق، فحين تحدث عن الاستعداد للمعركة، استشهد بأبيات غزل لامرئ القيس ونسبها إلى المتنبي، وحين تحدث عن الحكمة جاء بأبيات للبحتري في الوصف، مدعيا أنها لأبي تمام! انطلقت صيحات أتباعه في الثناء على بلاغته وحسن منطقه. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن أجد صعوبة في التعامل معهم، زوجة الخليفة الأولى أم مبارك. تعامل الناس مثلما تعامل جواريها، بتعالٍ وغطرسة. وصلت يوما من مصر هدايا لأمير المؤمنين، منها بعض الجواهر الثمينة، فقرر توزيعها على زوجته وأخته وبناته وقريباته، وأرسلني إلى أم مبارك حاملا حصتها. كانت تمشي في جناحها مستفزة قلقة. كانت ترتدي عصابة مكللة بالجواهر أنزلتها على جبينها، مع أنه، كما سمعت، لم تكن في جبينها سمة تشين وجهها، كما يذكر عن علية بنت المهدي التي اخترعت هذه الطريقة، وكان في قدميها خف يصرّ عند المشي، وحين تنتبه إليه ترى عليه شعرا مكتوبا بصفائح الذهب.

قالت وهي ترمقني من طرفي عينيها: «الله والخليفة فقط يعرفان مواهبك الفريدة التي جعلت الخليفة يختارك مرافقا له، مع أنني اقترحت عليه أحد الأمراء لما يتصف به من شجاعة وذكاء ونباهة، وفوق ذلك كله فهو كريم المحتد».

لم أجبها بشيء، ولم أظهر امتعاضا أو احتجاجا، فاستفزها ذلك. أضافت متشنجة: «لا بد أنه اختارك لتقف عند بابه حين ينفرد مع مغنيته، أو أنه يحتاجك لتضرب لها الطبل حين ترقص لمولاك في غرفة نومه».

أحسست بالشفقة عليها، فقد أعمتها الغيرة عن التفكير بالخطر القريب، ولم تعد ترى عدوا يهدد العراق والعرب والمسلمين سوى المغنية عرفة!

لعل أبا الفضل عبد الرحمن، نجل الخليفة الأوسط، كان أكثر اعتدالا من أم مبارك وأخيه أحمد أبي العباس، وأكثر منهما ترويا وتعقلا. كان صريحا في حديثه معي، ودودا، وكدت أن أصارحه بالأكاذيب التي تقدمها الحاشية إلى أبيه، غير أني أحجمت خشية أن يكون ذلك إفشاء للأسرار الخاصة بالخليفة. كان هم عبد الرحمن القيام بالمهمة الموكلة إليه وهي تأمين سلامة أبيه وسكان حريم دار الخلافة.

* * *

بدا الخليفة وكأنه قد انتقل من عالم إلى عالم، ومن دنيا إلى دنيا جديدة، فبدأ ولأول مرة بارتياد أماكن لم يسبق له من قبل أن زارها. لم يعد ينتظر إشارة رئيس حرس القصر بأن رجاله انتشروا والطريق إلى قصر من قصور دار الخلافة آمن وتم تفتيشه بدقة. في الحقيقة، لم يعد ذلك المتوجس شرا، المرتاب بمن حوله. وجدت ذلك تطورا حسنا، فمولاي كان يبدو مكتئبا، متعبا، مثقلا بالهموم، أما الآن فخفت نوبات الصداع، وما عادت عيناه تدوران قلقتين لأي أمر حتى لو كان متعلقا بصرف مبلغ قليل من المال لصيانة جناح في القصر، أو بناء قنطرة في ضواحي المدينة. أخبرني مرة ساخرا من مخاوفه من الظلام عندما كان صغيرا، فقد كانت تتراءى له شخصيات الأساطير التي روتها له مربيته العجوز التي كلما رأته ينكمش مرعوبا، قالت له إنه أقوى من كل أولئك الغول والعفاريت والجن، ناسية أنها نسبت إليهم قدرات خارقة ليس في وسع إنسان امتلاكها».

غير أن ابتسامته اختفت فجأة، قائلا: «الأخطر من الغول والجن والعفاريت هو ذلك الكائن ذو الملامح المألوفة، فليست له قرون، ولا ينفخ نارا، وليست لديه مرآة سحرية، إنه الإنسان. إنه أكثر وحشية وقسوة ورغبة في سفك الدماء. ليس في الكائنات أشد عداوة من الإنسان. يقال: العدو عدوان، عدو ظلمك وعدو ظلمته، فأما العدو الذي ظلمته فلا تثق إليه واحترز منه مهما أمكنك، وأما العدو الذي ظلمك فلا تخفه كل الخوف فإنه ربما استحيا من ظلمك وندم فرجع لك إلى ما تحب منه، وإن أصر على ظلمك انتصف لك منه مَن إليه يلجأ المظلومون».

تحسر قبل أن يضيف: «معظم الذين يحيطونك قد يكونون أكثر خطرا من العدو، وربما نفع العدو وضر الصديق. يروى عن الإسكندر أنه قال:

انتفعت بأعدائي أكثر مما انتفعت بأصدقائي؛ لأن أعدائي كانوا يعيِّرونني ويكشفون لي عيوبي وينبهونني بذلك على الخطأ فأستدركه، وكان أصدقائي يزينون لي الخطأ ويشجعونني عليه».

سكت قليلا، مخرجا زفيرا طويلا: «الصديق أو القريب يعرف نقاط قوتك فيتجنبها، ومواضع ضعفك فيستغلها، ويستهدف الموضع الذي يوجعك أكثر».

كلماته تلك جعلتني شديد الانتباه والحذر حينما يكون أمير المؤمنين مع مساعديه وأعوانه وحتى مع أقاربه من بني العباس.

قبل أسبوع، وبعد أن أفطر من صومه؛ لأنه يصوم شهر رجب، ذهبت معه إلى مكتبة القصر، تلا القرآن بصوت رخيم، ثم طالع صفحات من كتاب، بعد ذلك التفت إليّ مقترحا الخروج إلى المدينة، متنكِّرَيْنِ على أن لا يرافقنا أكثر من حارسين يتبعاننا بمسافة مناسبة. كانت دروب المدينة غارقة في الظلام سوى ما يتسرب من ضياء عبر شقوق أبواب البيوت ونوافذها، والليل هادئ لا يسمع فيه سوى وقع حوافر خيلنا. مررنا ببعض الحراس فوجدناهم نائمين، مع أن الليل كان في أوله، ووجدنا حراسا آخرين جالسين حول نار أوقدوها وراحوا يتسامرون، ومع أننا ألقينا عليهم التحية، لكن أيا منهم لم يتعب نفسه في سؤالنا عن هويتنا ووجهتنا. ظل الخليفة لازما الصمت مكتفيا بالتأوه والحسرات. رأينا من بعيد مستطيلا من الضوء أمام باب مفتوح. كان المكان حماما من حمامات بغداد الكثيرة. دخلنا الحمام وبقي الحارسان عند الباب. لم يتعرف صاحب الحمام على الخليفة الذي ظل متنقبا، مدعيا أنه تاجر وصل توا من رحلة تجارية طويلة، وقد أصابه الزكام. لم يكن هناك غير صاحب الحمام ومدلك وزبال ووقاد وسقّاء. أخبرنا الحمامي متباهيا

أن حمامه مقصد التجار، وزوار المدينة، والطبقة الراقية من أهل بغداد؛ لأنه غاية في النظافة والخدمات، ولأنه الوحيد الذي تبقى مياهه ساخنة ليل نهار. ناولنا رطلين من الصابون، وثلاثًا من الفوط لكل واحد منا، إحداها يتَّزر بها عند دخوله، والأخرى يتزر بها عند خروجه، والثالثة ينشف بها الماء عن جسده. لم أنس حمل سيفي وسيف الخليفة ومفتاح الصندوق الذي احتفظنا بملابسنا فيه. اقترحت على مولاي الخليفة أن نختار إحدى الخلوات تحوُّطا كي نرى من يحاول الاقتراب منا. لم تكن الرؤية سهلة، فالمكان مليء بسحب البخار الكثيف، وبالكاد يرى المرء رفيقه القريب منه. لمحت رجلا دخل الحمام وتمدد على الصخرة المدورة الكبيرة وسط الحمام. بدا لي وكأنه كان يراقبنا، فبقيت مشغولا بمراقبته. دخل رجل آخر متزرًا بفوطة، تبادل بعض الكلمات القصيرة مع الرجل الممدد، وانزوى في الخلوة القريبة منا. أثار الرجلان شكوكي، فهمست لمولاي أن نعجل في الخروج، فثمة ما يثير الريبة في نفسي. عند خروجنا، رأيت مع صاحب الحمام رجلين آخرين لم أرهما من قبل، وما إن ابتعدنا عن الحمام قليلا حتى لحق بنا أربعة فرسان، وكنت أتوقع ذلك، ولم يفطنوا لوجود الحارسين وراءنا، فأمر الخليفة أن نقف ونرى ما يريده أولئك الرجال. حين اقتربوا منا، شهروا سيوفهم، وقال أحدهم: «أخرجا ما عندكما من مال، وإلا قتلناكما. أخبرنا الحمامي أنكما تاجران». خف حماسهم في الهجوم علينا حين رأوا الحارسين وراءهم. شعرت ببعض الطمأنينة، فهم لم يكونوا يبتغون اغتيال الخليفة. اقترب الخليفة من نافذة تسرب ضوء ضعيف من شق فيها رافعا النقاب عن وجهه صائحا فيهم: «ويلكم! هل عرفتم من أنا؟».

لم يتبينوا وجه الخليفة جيدا. استل المستعصم سيفه صائحا بصوت قوي أجفلهم : «أنا أمير المؤمنين المستعصم. عليكم نزع سيوفكم والمسير معنا».

حمل الحراس سيوفهم واتجهنا إلى القصر. وفي حجرة الحراس عند باب النوبي، جرى استجوابهم، وقبل أن يسمعوا تهديدا ووعيدا، سارعوا بالاعتراف بأنهم يراقبون كل الحمامات ليلا، ليهاجموا التجار ويسلبوهم أموالهم. وعندما سألهم الخليفة عن زعيمهم، أجابوا أنهم يتبعون أحد مساعدي نجل الخليفة أبي العباس. ثارت ثائرة المستعصم وامتقع لونه وارتجفت عضلات وجهه. أمر بإحضار الدامغاني فورا، فجاء الدامغاني مهرولا، تسبقه خشخشة ما يحمله من أسلحة. أمره أن يأخذ مفرزة ويعتقل أبا العباس، ويحلق رأسه قبل أن يسجنه في أحد الحمامات الصغيرة في قصر التاج. حاول الدامغاني التملص من مهمة حلق الرأس على الأقل، فقال الخليفة بعد أن أطلق قهقهة ساخرة مرة: «لا عليك، ستجده الآن مخمورا، وعندما يفيق في الصباح، لن يتذكر شيئا مما حدث له في الليل».

في اليوم التالي، شاع في بغداد خبر اعتقال نجل الخليفة، وترددت أقاويل كثيرة، منها أن أبا العباس كان يخطط لمحاولة انقلاب يستولي فيها على الحكم، ومنها أن الخليفة انتبه أخيرا للفساد المستشري في الدولة فقرر معاقبة المفسدين حتى لو كانوا من أبنائه. وقيل أيضا إن المستعصم بالله سيختار وزيرا جديدا وقادة جددًا للجيش ورؤساء جددًا للدواوين. وتحدثت شائعات أخرى عن ميل الخليفة إلى التشيع اقتداء بجده الناصر!

* * *

تعددت لقاءاتي بأمل. كانت ساعات اللقاء منفصلة عن هذا الزمن، وبعيدة جدا عن حريم دار الخلافة وبغداد والأرض كلها. كنا في عالم آخر، على الرغم من اقتصار اللقاءات على الكلام والمناجاة وعبارات الغزل ولمس يديها. لم تكن لقاءاتنا بعيدا عن أعين الناس، فقد شاهدنا بعض خدم القصر

وجواريه، وعدد من أعوان الدويدار، وحراس الوزير. كنت أعتقد أن «أمل» وجدت في رفقة أخت الخليفة كسرا لطوق عزلتها وتخفيفا لهمومها، وأنها وجدت فيها مصدر عون تلتجأ إليه وقت الحاجة، لكن «أمل» أذهلتني بخبر قطع علاقتها بالأمير علية. امتنعت في البدء عن كشف السبب، لكن إلحاحي جعلها تفصح عنه بمرارة وخيبة. أخبرتني أن أخت الخليفة كانت تتحين الفرص لتضمها إلى صدرها بقوة، وتقبلها بلا مناسبة، ووصل الاستهتار بها أن دعتها للنوم معها، فغادرت الغرفة راكضة هلعة، وتبين لها فيما بعد من خلال الأحاديث مع الخادمات، أن الأميرة علية تمارس اللذة مع النساء. لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

20

أواخر شهر رجب المرجب سنة 655 هجرية

لم يكف المستعصم عن الحديث معي عن الجيش الذي سيدحر الغزاة في أول موقعة. كنت أتألم، لكني لم أستطع الاعتراض لعدم امتلاكي دليلا يدين من أضاعوا الأموال بحجة بناء جيش قوي.

لا بد أنهم خدعوا الخليفة، لكن المتضرر ليس الخليفة فقط، إنها الأمة بأسرها، العراق كله، الإسلام كله. لم يعد أمامي سوى المجازفة بحياتي من أجل كشف هذه اللعبة الخطيرة. كان خطئي الكبير هو أن المجازفة لم تكن بحياتي فقط، فالمتآمرون تصرفوا بنذالة، فعاقبوا غيري بسبب جرأتي.

استأذنت أمير المؤمنين بأن لديّ مشاغل خاصة لا بد من إنجازها. اتجهت إلى دار الوزير، الذي بات مستفزا كلما رآني، وكأنني أحمل أمر الخليفة بعزله. وددت منه أن يخبرني بشأن ما تم الاتفاق عليه مع مولاي أمير المؤمنين بشأن إعداد الجيش وتجهيزه. بدا ابن العلقمي مضطربا، قال لي: «أنا أثق بك؛ لهذا سأصارحك القول. كنت متخوفا من أن يزيد الدويدار عدد الجنود الأتراك فيحتل بهم بغداد، ويسقط الخليفة، ويزيحني ويفتك بأهل الكرخ، واقترحت عليه في المقابل تجنيد عدد مساو من المقاتلين العرب؛ لأطمئن على سلامة موقف الجيش، فرفض، وهكذا انتهى الأمر بنا إلى الاتفاق أن يبقى الجيش على حاله».

لم يخطر في بالي قط أن تتحكم عداوة رجلين بمصير أمة بأسرها، وأن تعلو مصالحهما على مصلحة الإسلام. كان الوزير يتطلع في عيني مباشرة، وكأنه قرأ ما يدور في بالي، فتساءل بنبرة محذرة: «هل تنوي إخبار الخليفة بما عرفت؟».

قلت جازما: «نعم، سيدي الوزير. الأمانة والإخلاص تقتضي إبلاغ مولاي ليرى الأمور على حقيقتها».

قال الوزير بعد برهة: «كما تشاء، لكن عليك أن تحدث الدويدار الصغير أيضا».

استقبلني الدويدار الصغير، الأمير مجاهد الدين أيبك، بالترحاب، وعرفت في اللحظات التالية أنه كان يتوقع مني إعلان استعدادي للتعاون معه. لم يصدمه السؤال عن الاستعدادات الكاذبة، مؤكدا أنه لم ولن يسمح بهيمنة (الروافض) على الجيش، أو أن يكونوا قوة تهدد هيمنة جنوده. وعن أموال مولانا الخليفة، قال إنه وزعها على الجنود الذين لم يستلموا رواتبهم منذ أشهر طويلة.

قلت بإصرار: «لا بد أن أخبر مولاي أمير المؤمنين بالأمر».

«إذًا، أنت لا تأبه بتعريض نفسك والآخرين للخطر. هل تظن أنك الوحيد في الإخلاص للخليفة والأمة؟».

«مهمتي أن أكون مخلصا للخليفة والأمة».

قهقه ساخرا: «حسنا إذن. ما زلت شابا قليل التجربة، قصير النظر. سألقنك درسا لا تنساه. اضطررتني لاتخاذ إجراء لم أكن أحبذه كي أضمن عدم وصول الخبر لمسامع أمير المؤمنين. حبيبتك الأميرة اختطفت قبل قليل. لكني الآن وجدت أن ذلك الإجراء لا يكفي».

جمدتُ في مكاني، فلم يكن في حسباني أن تبلغ الخسة بهؤلاء إلى حد اختطاف فتاة مسكينة، شاء لها قدرها أن تكون سجينة في قصر من قصور الخليفة. تملكتني الحيرة فيما يمكنني عمله لإنقاذها. أذهلني مبلغ التواطؤ بين أفراد الحلقة الضيقة المحيطة بالخليفة، الذين يفترض بهم أن يكونوا أكثر الناس إخلاصا، ليس للخليفة فقط، بل للوطن، ألم يقولوا من قبل : «إنما تعمر البلدان بحب الأوطان»؟

قيدني جنوده وعصبوا عيني بقوة، ثم مددوني في صندوق وضعوه في عربة. لم تكن المسافة قريبة، لكني لم أعبأ باهتزازات العربة التي كانت تندفع بسرعة فوق مطبات الطريق الترابي وحفره التي خلفتها أمطار الربيع الأخير.

وجدت نفسي في سرداب، وأمامي ثلاثة من جلاوزة الدويدار. انهالوا عليّ بالضرب حتى أسقطوني أرضا، وغادروا السرداب بعد أن أغلقوا الباب الخشبي السميك. حين استعدت بعض قوتي، نهضت ورحت أصرخ مهددا بإبلاغ الخليفة، لعل الحراس يخافون فيطلقون سراحي، أو لعل شخصا ما يسمعني فيساعدني، أو على الأقل يعرف بوجودي. بحّ صوتي من دون فائدة تذكر، فأقعيت على الأرض.

بعد فترة قصيرة، سمعت أحدهم يحرك المزلاج، فهيأت نفسي لوجبة جديدة من الضرب المبرح. اندفع الباب مفتوحا، لكني لم أرَ الحراس، بل سيدة جميلة وقورة. سألتني باهتمام عمن أكون وماذا فعلت. أخبرتها بحكايتي، وباختطاف الأميرة أمل بنت الأمير الخفاجي. عرفت منها أنها الأميرة شمس بنت الأمير بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، وزوجة الدويدار الصغير. دنت مني وفكت الحبل الذي قيّد يديّ. قالت: «عليك الآن أن تتبعني لأهربك من باب آخر».

قلت لها: «أخشى أيتها الأميرة أن ينتقم منك زوجك لإطلاق سراحي».

ردت وهي عند الباب متطلعة خشية عودة الحراس: «لن يستطيع فعل شيء لي. إقدامي على هذه الخطوة ليس فقط تقديرا لإخلاصك لواجبك، وليس فقط احتراما لأمير المؤمنين، وإنما أيضا تحديا لمجاهد الدين كي لا ينزلق في أخطاء كبيرة».

عند باب خلفي في دارها، قلت لها مودعا: «فضلك هذا يا سيدتي لا ينسى أبدا».

كان الوحيد القادر على مساعدتي، هو الأمير أبو الفضل عبد الرحمن. انطلقت راكضا كمجنون يلاحقه الصبيان بالحجارة، وأثرت استغراب الحراس والخدم والجواري، وأنا أركض لاهثا نحو مقر الأمير. تلقاني كما لو كان يتوقع وصولي، فأجلسني وناولني قدحا من الماء. طلب مني أن أحدثه بهدوء عما حصل. قال بعد هنيهة: «مصيبة الدويدار الصغير أنه لا يجيد التفاهم، ولا يعرف لغة الحوار، فالحل عنده هو القوة. تجاوز كثيرا باختطاف الأميرة أمل، واعتدى رجاله عليك بالضرب بلا مبرر. اطمئن، فبعد قليل سآمره بإعادة الأميرة إلى مقرها من دون أن يلحقها أذى. سأوبخه على فعلته».

جلس الأمير الشاب أمامي، قال هادئا: « وافقت أن يلتقي بك ويتفاهم معك، لا أن يضربك».

قال وكأنه قرأ أفكاري: «لا، لا تسئ الظن بي أو بالآخرين. مشكلة أبي أنه أحيانا يستغرق في أحلام اليقظة، وبعد حين يصدقها. إنه يريد تكوين جيش

قوي في غضون مدة قصيرة. اقترح القادة ذلك؛ لأنهم يعرفون جيدا أن تعيين موعد بعيد سيثير غضبه. أصر أن نبتكر أسلحة غير السيف والسهم والرمح والمنجنيق والدبابة. لقد فات أبي أن هذه المتطلبات كان يجب الإعداد لها قبل سنوات، وليس الآن وقد اشتد الخطر وتخوف الناس من مصير مجهول. لا يشكو أمير المؤمنين من الصداع فقط، وإنما من زيادة في سرعة نبضات القلب، وأخبرني الطبيب أبو إسحاق أن أية صدمة يتعرض لها، ستكون النتيجة وخيمة؛ لذلك من الصعب مواجهته بالحقائق القاسية، فمعنويات الجنود هابطة، وكثير منهم هربوا من ثكناتهم، والأموال المخصصة ليست كثيرة. لو أنني اقترحت على أبي تلك الميزانية الضخمة، لعدَّني مبالغا ولا أعرف شيئا؛ لأنه لا يرغب في صرف تلك الأموال من خزائنه، اعتقادا منه بأن الأيام السود لم تأتِ بعد؛ لذلك حدد القادة مبلغا بسيطا يدفعونه كرواتب للجنود. هل عرفت مشكلتنا الآن؟».

وقف ودار في الغرفة حتى وقف ورائي، واضعا راحتي يديه على كتفي: «ثقتي بك لا تقل عن ثقة والدي. ولا تنس أنني على علم بعلاقتك مع الأميرة أمل بنت عم أمير المؤمنين، وأنك تروم التقدم لخطبتها بعد أن تستقر الأوضاع. النساء لا يكتمن أمورا كهذه عن بعضهن. أعدك أنني سأقف إلى جانبك في ذلك الحين، أما الآن..».

كنت متلهفا لسماع بقية جملته التي لم يرد إكمالها إلا بعد وقوفه أمامي: «أما الآن، فأطلب منك وعدا أرجو أن لا تخلفه».

قفزت واقفا قبالته: «ما هو أيها الأمير؟».

عقد ذراعيه على صدره قائلا: «أن تعدني بعدم طرح هذه المعلومات على أمير المؤمنين».

أدركت عدم قدرتي على مواجهة كبار رجال الدولة، وأنهم لو شاءوا إزاحتي، إن لم يكن اغتيالي، فلن يردعهم شيء. لم يكن أمامي سوى إعطاء ذلك الوعد الذي ظل يجرح كبرياني ويشوه صورتي أمام نفسي ويؤنب ضميري.

* * *

21

منتصف شهر شعبان سنة 655 هجرية

وصل رسل هولاكو بصحبة سبط ابن الجوزي إلى حريم دار الخلافة، متبوعين بالمئات من أهل المدينة الذين ظلوا واقفين ساعات طويلة عند باب النوبي لمعرفة الأخبار. نزل الوفد المغولي في دار الضيافة بعد أن سلم رئيس الديوان الدامغاني رسالة هولاكو. وفي قصر التاج، كان جميع المسؤولين في انتظار سبط ابن الجوزي وما يحمله من أخبار، تمنوا لو كان فيها ما يريح أعصابهم المتوترة.

كان مكاني في القاعة الوقوف جانبا، متأخرا قليلا عن أمير المؤمنين الجالس على كرسيه، وفوق رأسه المظلة التي تحجب الضياء عن وجهه. سلم الدامغاني رد هولاكوخان إلى الخليفة الذي ظل ينقل بصره بين سطور الرسالة ووجوه أعوانه الفاضحة لحيرتهم وقلقهم وارتباكهم. أعادها إلى الدامغاني ليقرأها بصوته الجهوري:

«من القائد المظفر، حفيد جنكيزخان العظيم، هولاكوخان المعظم، إلى خليفة بغداد المستعصم بالله..

أما بعد: إن الخالق العظيم منذ نشر لواء جدي جنكيز، وهبنا وجه الأرض من المشرق إلى المغرب، فكل من كان مخلصا لنا، حُفظ ماله وأهله وأولاده، ونجا من مخالب الموت، ومن خالفنا، فليس له أمان ولا أمن.

أيها الخليفة: لقد ظهرت على حقيقتك، متلويا في سياستك كالقوس، وإني بعون من الخالق، سأعالجك حتى تصبح مستقيما كالسهم.

إن حب الجاه والمال والغرور قد أثر ببصيرتك، بحيث لم تسمع أذناك كلام المشفقين، فانحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، فعليك أن تستعد للقتال، فإني سائر نحو بغداد بجيوش عدد النمل والجراد، وإذا رفضت الإذعان، فليس عن التجهز للحرب منتدح. وحينذاك سنمحو عمارة بلادكم، ونعيد أهل بلادكم إلى الوراء، إلى عصور الإنسان القديم».

خيم الوجوم على الجميع، وتحاشى الجالسون نظرات بعضهم بعضا، واختفت الهتافات الحماسية التي كانت تلعلع في الاجتماعات السابقة، ولم يتباروا، مثلما كانوا من قبل، في إلقاء الخطب الرنانة. أدرك الجميع الآن أنهم في مواجهة خطر الغزو وجها لوجه.

تساءل الخليفة مصعوقا: «لماذا هذا الصمت الكئيب؟ توقعت منكم حماسة للحرب أكثر من حماسة المغول. أليست جيوشنا على أهبة الاستعداد للمنازلة؟ طلبتم مني أموالا فصرفتها، والجيش الآن أكثر عدة وعددًا، أليس كذلك؟».

نهض الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك الشركسي: «هل يمكن لأمير المؤمنين صرف مبالغ أخرى؟».

وقف المستعصم مبهوتا: «ماذا؟ والأموال الطائلة التي صرفتها؟».

ردّ مجاهد الدين مطرقا برأسه إلى الأرض: «دفعت كلها للجنود الذين تأخرت رواتبهم لأكثر من ثمانية عشر شهرا».

صاح الخليفة بصوت عالٍ: «لماذا لم تخبروني طوال هذه المدة؟».

أجاب الدويدار، متطلعا إلى الخليفة بنظرات مليئة بالتحدي: «لأننا، يا مولاي، واثقون أنك لن تصرف المزيد من الأموال، وأنت يا سيدي خير العارفين بأن الخزائن والدفائن تُجمع لوقاية عزّة العرض وسلامة النفس».

تهاوى المستعصم على كرسيه. قال بعد لحظات رافعا سبابته المرتجفة في وجوه الجالسين: «إنكم تعلمون جيدا أن واردات هذا العام كانت قليلة جدا بسبب الفيضان، فهل تريدون مني أن أصرف ما تبقى في الخزائن للجيش، فتقتلنا المجاعة؟ إنكم أخطأتم كثيرا، إلا في أمر واحد فقط كنتم فيه على صواب، وهو أنني لست على استعداد لصرف المزيد، ليضاف إلى الأموال الضائعة التي صرفتها من قبل».

تطلع الخليفة إلى وزيره: «ماذا تقول يا ابن العلقمي؟».

وقف الوزير، تطلع إلى الجالسين إلى جانبه وأمامه: «مهما أعددنا من قوة، فلن تبلغ عشر ما لدى المغول، ولم تكن مواقف ملوك المسلمين وسلاطينهم مشجعة؛ لهذا يا مولاي، أكرر ما قلته سابقا: لا يرد بأس العدو القاهر مثل التذلل والخضوع. يقال إن من تهاون بخصمه ووثق بفضل قوته، قل احتراسه ، ومن قل احتراسه كثر عثاره».

صاح أبو العباس محتدا: «يريدنا الوزير أن نخضع وننحني، حتى ندفن وجوهنا في التراب. الموت أفضل لنا، يا أمير المؤمنين، من الخضوع والذل والمهانة».

جلس أبو العباس في مكانه، فنهض الدويدار الصغير: «مولاي، اقتراحات الوزير تفضح تواطؤه مع العدو، فقد علمت أنه يراسل المغول».

صاح الوزير مستنكرا: «كذبت وأيم الله. فأنا مسلم عربي إلى يوم يبعثون. تتذكرون يا مولاي، ويتذكر الحاضرون، أنني طالما طالبت وقبل مدة طويلة

بتعبئة الجيش ووضعه في حالة استعداد تحسبا لأي طارئ، لكن اقتراحاتي تلك كانت تواجَه من قبل البعض على أنها خطة للسيطرة على بغداد، مع أن كل قادة الجيش الكبار من الأتراك».

رفع الخليفة يده قاطعا الجدال. قال مخاطبا الدويدار: «دعونا من الأقاويل. يكفي الوزير شهادة أنه لم يتمرد يوما على الخليفة».

بلع مجاهد الدين الإهانة وجلس منكمشا في كرسيه. قال الدويدار الكبير: «مع احترامي الكامل للشيخ سبط ابن الجوزي، وتقديري لنزاهته وفصاحته، لكنه لم يستطع إقناع الطاغية هولاكو بوجهة نظرنا، فلماذا لا تقترحون يا مولاي إرسال رسول آخر، ربما بلغ الغاية التي تريدون».

تكلم الأمير أبو الفضل عبد الرحمن: «لم يبق أمامنا، يا مولاي، سوى أن نردع المغول بالكلمات، ونوضح لهم سوء العاقبة».

استغرق المستعصم في التفكير طويلا هذه المرة، حتى خيل لي، وربما للآخرين أيضا، أن سنة من النوم قد أخذت الخليفة ما دمنا لا نرى عينيه جيدا اللتين تغطيهما المظلة.

أملى الخليفة على رئيس الديوان، الدامغاني، رده على رسالة هولاكوخان:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، عبد الله المستعصم بالله، إلى هولاكوخان، حفظه الله..

أما بعد: وصلنا رسلكم فاستقبلناهم استقبال الكرام، ووصلنا معهم ردكم. وبعد قراءته، تبين لنا مع الأسف، أن بعض مستشاريكم جانبهم

الصواب، فكرّهونا في نفوسكم، بما افتروا علينا من أكاذيب شوهت حقيقة رغبتنا الشديدة في دوام الصداقة معكم. وجانب أولئك المستشارين الصواب في التهوين من شأننا والتقليل من قوتنا.

إننا، مع علمنا بأنكم لا تقصدون لنا السوء، نود أن نذكّر أولئك المستشارين بأن ما من ملوك وسلاطين قصدوا السلالة العباسية ودار السلام، إلا كانت عاقبتهم وخيمة، مع ما كان لهم من الصلابة والقوة؛ لأن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى أبد الدهر».

توقف المستعصم عن الكلام، محدقا في سقف المظلة التي تعلوه، منقبا في ذاكرته عن شواهد أراد كتابتها في رسالته. كان الجميع يتابعون بآذان صاغية كل كلمة منه. وجدته في تلك اللحظة أكثرهم ثباتا وأبلغهم قولا.

واصل إملاءه على الدامغاني: «لا بد أن مستشاريكم قد نسوا، أو تناسوا، أن يعقوب بن الليث الصفاري، والذي استولى على خراسان، وأسس الدولة الصفارية، قبل أكثر من أربعمائة سنة، قصد الخليفة بجيش عظيم وتوجه إلى بغداد، ولم يصل إلى غرضه، فابتلي بوجع البطن، وقبل أن يتحقق غرضه، مات من الوجع المذكور. كذلك عزم أخوه عمرو على الوقيعة بالخليفة، فألقى القبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني، وسجنه وأرسله إلى بغداد، ليرى جزاء ما كسبت يداه.

وكذا الأمر مع نجم أرسلان البساسيري التركي، الذي كان قبل مائتي سنة، أحد قوّاد البويهيّين ومقدَّميهم، وكان الخليفة القائم بأمر الله قدَّمه على جميع الأتراك، وقلَّده الأمور بأسرها، وكان على سدّة الحكم العبيدي الفاطمي في مصر آنذاك، المستنصرُ محمَّد بن عليّ. راسل البساسيريُّ المستنصرَ العبيدي الفاطمي، وأطلعه على عزمه إلغاء الخلافة العبّاسيَّة، وإرسال شارات الخلافة

إليه، تمهيدًا لاستقدامه إلى بغداد، ومبايعته خليفةً للمسلمين عامَّة، فاستدعى الخليفة طُغرُلبَك القائد السلجوقي إلى بغداد لحماية الخلافة، وكسر شوكة البساسيريّ؛ وذلك لأن الخليفة فقد ثقته بمن حوله، ورأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بقوة السلاجقة النامية، خاصة وأنها تحترم الخلافة. وقدم طغرلبك من الريّ ودخل بغداد، وخرج البساسيريّ بعسكره منها. لكن طغرلبك اضطر إلى العودة إلى بلاده، فاستغل البساسيري هذا الوضع، وزحف على بغداد على رأس قوة عسكرية كبيرة، حاملًا الرايات المستنصرية، كما سار معه أمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وكان حليفًا للبساسيري، وتمكنا من دخول بغداد دون مقاومة تذكر. وألقي القبض على الخليفة وحُبس في حديثة، ونُهبت دار الخلافة، وقَتَلَ البساسيريُّ بعضَ رجال الدولة، ومنهم رئيس الرؤساء وقاضي القضاة. وأرغم البغاة الخليفة العباسي، قبل مغادرته بغداد، على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو، في الخلافة مع وجود الفاطميين، ثم بعثوا بهذا العهد إلى القاهرة. كما أرسلوا ثوب الخليفة وعمامته و «شبّاكه» الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرَح لدى المستنصر العبيدي وأنصاره. فعاد طغرلبك من خراسان بعسكر جرار لنصرة الخليفة فأعاده إلى مقر خلافته ونكل بالبساسيري.

كذلك حدث الأمر مع السلطان محمد السلجوقي الذي قصد بغداد فانهزم في أثناء الطريق، كما أن السلطان محمدًا خوارم شاه عزم على إبادة هذا البيت بجيش عظيم، ومن أثر غضب الله عليهم، أنزل عليهم أمطارا غزيرة وصواعق، فاضطر إلى الرجوع خائبا خاسئا بعد هلاك أكثر جيوشه، ورأى جزاء أعماله على يد جدك جنكيزخان في جزيرة (آبسكون).

لذا أنصحكم أن تعيدوا النظر في خططكم إذا كان قصدكم هذا البيت؛ لأنه ليس في مصلحتكم، فاعتبر أيها الأمير القائد بهذا الزمان الغدّار. والسلام».

كنت على يقين أن المستعصم يدرك جيدا أن العدو لا يقارَع بالبيان واللسان، ولا يصد جيش العدو إلا جيش مثله، لكن ليس في مقدور الخليفة الآن، وبعد أن اقترب الخطر، سوى استخدام لسانه بعد أن وجد نفسه بين تهديد العدو ومطالب القادة بفتح خزائنه، وهو أمر لا يقتنع به إلا بنتيجة مضمونة. فمن يمكنه تقديم ضمان الانتصار على عدو شرس، كثير العدد، مجهز بأسلحة متطورة؟

قال الخليفة: «سنبعث قاضي القضاة البندنيجي والدويدار الكبير رسولين منا إلى هولاكو ليوصلا الرسالة ويتحادثا معه. سيرافقان وفد المغول غدا».

عند الباب الموصل بين القاعة الخاصة والممر المؤدي إلى مقر الخليفة وجناح الحريم، وقفت إحدى الخادمات مشيرة برأسها إلى الدامغاني، فاتجه إليها تتابعه نظرات الآخرين. همست في أذنه بضع كلمات، فأسرع إلى الخليفة ونقل إليه هامسا ما قالته الخادمة. غادر المستعصم القاعة على عجل ومن دون أن يقول شيئا، وأسرعتُ وراءه محاولا اللحاق به.

كانت «عرفة» ساقطة على الأرض، فاقدة الوعي. هلع المستعصم لمنظرها، فتقرفص بجانبها، رافعا رأسها بكفيه، ضمها إلى صدره بقوة. ظلت عيناه تحومان بقلق حول ملامح وجهها. لم يترك رأسها إلا بعد مجيء الطبيب الذي تفحصها بدقة، فتح عينيها متطلعا فيهما، شم رائحة فمها، جس نبضها. هز رأسها بقوة، ففتحت عينيها ثم أغلقتهما، فهزها من جديد، حتى استعادت بعض وعيها. أخرج من صرته كيسا صغيرا صب مسحوقه في قدح ماء، وتولت الخادمة صبه في حلق المغنية، فبدأت تتقيأ سائلا أصفر اللون.

خاطب الطبيب سيدنا أمير المؤمنين: «مولاي، الحمد لله. أعتقد أنها تجاوزت الخطر. ستكون على ما يرام».

أضاف وهو يفحص السائل الأصفر بعود: «تناولت عصيرا مسموما».

عض المستعصم على شفتيه. هزّ رأسه وكأنه يوافق على رأي ناقشه مع نفسه أو نتيجة توصل إليها. تأمل قدحا فيه بقايا عصير برتقال، والتفت إلى الخادمة متسائلا: «من جاء بهذا القدح؟».

أجابت الخادمة المرتجفة: «لم أر هذا القدح من قبل في جناح سيدتي. لقد بعثتني لشراء خيوط حرير لها، وقد تركتها تتجول في حدائق القصر. عندما عدت، رأيتها تتلوى، وسألتني قبل أن تفقد وعيها، إن كنت قد عصرت لها برتقالا. لا بد أن سيدتي نسيت باب غرفتها مفتوحا، فدخل شخص ما ووضع القدح هنا».

قال الخليفة بحرقة: «ما كان لها أن تغفل وهي مهددة بالخطر».

تساءلت الخادمة مرعوبة: «مهددة بالخطر؟ مم يا مولاي؟».

لم يجبها بل دفعها جانبا وغادر الغرفة.

في الطريق إلى مقره، التفت إليّ قائلا بصوت خفيض: «لا شك أن عصمة الدين ليلى، أم مبارك، هي من فعلت ذلك. لا أحد له مصلحة في موت عرفة إلا هي. لكن ليس من دليل يثبت تورطها. سأنتقم منها».

تغيرت ملامحه، وغير الطريق متجها إلى دار الحريم، فقلت: «مولاي.. هل لي بقول كلمة؟».

توقف عن السير: «ماذا؟».

قلت مع انحناءة قليلة: «إن المزيد من الانفعال يعرض حياة مولاي إلى الخطر، فيكفيك متاعب الاجتماع مع المسؤولين».

وضع كفه على نصف وجهه مفكرا. قال بعد حين: «سأدعها الآن إلى حين تزول الأزمة، فأنتقم منها شر انتقام».

كنت أعرف أنه مع سرعة غضبه، فهو حين يهدأ، يعيد التفكير فيما عزم عليه في قمة هيجانه وثورته، ويتسامح من دون أن يبقى لمسببات غضبه أثر في نفسه، أو حقد على من أغضبه. اتجهنا من جديد إلى مقره القريب من دار أو جناح الحريم. تساءلت في سري إذا كان المستعصم يلجأ إلى سماع عرفة حين يضيق صدره ويزداد ألم صداعه، فما الذي يفعله الآن وقد ضاق صدره وتألم على عرفة الممددة في غرفتها؟ جلس على كرسيه في الغرفة التي التقيته فيها أول مرة، وأمرني ملحا بالجلوس، فجلست على أريكة موضوعة بجانب كرسيه. قال ممشطا لحيته بأطراف أصابعه، متفرسا فيّ: «حين يتدخل أحد الناس بين اثنين يتشابكان في عراك بالأيدي، سيتلقى هذا المسكين من الضرب أكثر مما يتلقاه أي واحد من المتعاركين. أعواني يتصارعون حولي، وليتني كنت مثل ذاك الذي تلقى الضرب، بل الأمة هي التي تئن من صراعهم. أعترف أنني قد قترت في تلبية طلباتهم في تجهيز الجيش مرة أو مرتين، فلمَ لـمْ يلحوا في الأمر كي يتبين لي صواب رأيهم؟ كأنهم كانوا ينتظرون جوابي بعدم الصرف كي يريحوا أنفسهم من مهمة مكلفين بها. كل مهمة متعلقة بالأمة والإسلام هي مهمة مقدسة. كان عليهم الإصرار كي أدرك أن الأمر ملح، وليس بغاية استعراض الإخلاص للوطن. كان هذا ديدنهم منذ سنوات بعيدة. كنت أحيانا أجد في اختلافهم فائدة، فإذا ما توحدوا في مواقفهم، حينذاك أصبح أنا المستهدف، فوحدتهم لا تقوم إلا على هدف مشترك، ألا وهو زيادة

ثرواتهم، وليس هناك ما يغريهم سوى خزائن الخليفة التي لا يمكن الوصول إليها ما دام الخليفة موجودا. لو أني صرفت كل هذه الخزائن على الجيش، هل كنت سترى جيشا قويا؟ لا، فمعظم المال سيختلس. ربما تدور في بالك أسئلة بهذه الصيغة أو تلك: إذا كان الأمر كذلك، فلم اعتمد الخليفة عليهم؟ لماذا لم يبحث عن أشخاص أكفاء غيرهم؟ وإذا لم يجد أولئك الرجال، فلم لم يتولَّ الأمر بنفسه؟».

كانت تلك الأسئلة فعلا تدور في ذهني، لكني بقيت، من باب اللياقة والاحترام، في جلستي صامتا مصغيا، فالخليفة غير مطالب بشيء، ولا يقصد توضيح الأمور لمرافقه البسيط، بل كان يحدث نفسه بصوت مسموع. أضاف بعد لحظة: «لم أعرف للوزير تقصيرا، ورفضت مطالب الآخرين بعزله كي لا يروني سهل القياد، يملون عليّ ما يشاؤون. لا تنس أن جماعات كبيرة من أهل العراق، ونحن بحاجة إلى مؤازرتهم، ترى في تعيين ابن العلقمي مشاركة لها في الحكم. أما القادة، فقد تولوا مناصبهم قبل توليتي الخلافة، وعندما أصبحت خليفة، كانوا قد رسخوا وجودهم، وامتلكوا قوتهم بالجند والأتباع، فمحاولة إزاحتهم مغامرة غير محمودة العواقب. ربما، أقول ربما، لولا داء الشقيقة وآلام ظهري، لتوليت كل المسؤوليات بنفسي».

أحسست أن الخليفة يتأرجح بين لوم نفسه ولوم الآخرين، باحثا عما يهدئ من روحه القلقة وذهنه المشوش. لم أستبعد أن حديثه كان محاولة لإعادة قراءة الماضي، أو سعيا للتكفير عن أخطائه، أو اعترافا بدوره في التهاون والتقصير في الإعداد لمواجهة الخطر القريب.

قال بعد لحظات قصيرة معدودة: «لو بعثت الآن كل خزائن بغداد، فلن يتراجع هولاكو عن فكرة غزو بلادنا، ليس فقط طمعا في ثرواتها، بل

قضاء على مكانتها كمقر للخلافة. بغداد بمثابة الراية، فإذا انتكست الراية، هُزم المسلمون، وهذه الهزيمة هدف وأمنية كل أعداء العرب والمسلمين من مغول وإفرنج. أعلم جيدا أن الوفد سيعود بتهديد أكبر ووعيد أشد. المعجزة الوحيدة التي يمكن أن تحدث هي انتشار وباء بين صفوف العدو، يجبره على التراجع. الحسابات الصحيحة لا تقوم على افتراض حدوث معجزات، بل على حقائق قائمة. الحقيقة التي علينا أن ندركها هي أن الحرب مقبلة لا محالة، ولا بد لنا من خوضها ولو كنا مكرهين».

سحب نفسا طويلًا ثم تحسر، ردد بيت الشاعر الكُمَيْت:

إذَا لَـمْ تَكُنْ إلا الأسِنَّةُ مَرْكَبًا فَلاَ رَأْيَ لِلْمُضْطَرِّ إلا رُكُوبُهَا

أحنى رأسه، مصوِّبا عينيه إلى الأرض. لم أعد أسمع سوى صوت شهيقه وزفيره المتسارعين. فرك جبينه بقوة. قطع صمته فجأة: «أحضر لي الآن يحيى ابن يوسف جمال الدين أبو زكريا الصرصري الضرير».

تساءلت مدهوشا: «ومن هو جمال الدين الصرصري هذا؟ ولماذا يحتاج مولاي الآن إلى رجل ضرير؟».

قال المستعصم هازا رأسه إلى الأمام: «كيف لا تعرفه يا عبد القهار، وهو أشهر أعلام بغداد؟ إنه علَّامة بارع فاضل. هذا الشيخ الضرير يحفظ صحاح الجوهري بتمامه في اللغة، وينظم على البديهة سريعا، ومعظم شعره في مدح رسول الله ﷺ. أما لماذا أريده الآن فستعرف ذلك فيما بعد».

وجدت ذلك فرصة أن أمرّ على قصر الفردوس وأستدعي أمل كي أحظى برؤيتها ولو لدقائق قليلة. قيل لي إنها متوعكة قليلا، فأبلغت إحدى الخادمات أن تبلغها سلامي وتمنياتي لها بالعافية.

لم تكن دار الصرصري بعيدة عن سور حريم دار الخلافة، ولعلها أقرب الدور إلى السور. رفض الشيخ الطاعن في السن أن أمسك يده لأقوده، بل فضّل أن يستدل على الطريق بعكازه ذي الرأس المسطح كرأس أفعى كبيرة، قائلا بنبرة ساخرة: «ذكرتني بحكاية ذلك الأعمى الذي خرج ليلا وعلى عاتقه جرة ومعه سراج، فسأله أحد المارة: يا هذا ؟ أنت والليل والنهار سواء فما معنى السراج؟ فقال: حملته معي لأعمى البصيرة مثلك، يستضيء به، فلا يعثر بي، فأقع أنا وتنكسر الجرة. أما أنا يا صاحبي فأحمل عكازي، أضرب به الأرض كي ينتبه شارد ذهن ، قد يعثر بي فيسقطني أرضا وتتكسر عظامي الهشة».

ظل طوال الطريق يتمتم بأبيات شعر، يعيدها، يأتي بأبيات جديدة ثم يعيد قراءتها مع الأبيات التي سبقتها، وبقي على هذه الحال حتى وصلنا إلى مقر أمير المؤمنين. استقبله بحفاوة كبيرة، واحتضنه. قال الشيخ ضاحكا، ورأسه مرفوعا إلى سقف الغرفة: «أخشى يا أمير المؤمنين أن يكون وراء هذه الحفاوة الكريمة أمر لا قدرة لي عليه».

سأله المستعصم وهو يجلسه أمامه: «أي أمر هذا يا أبا زكريا؟».

حرك الصرصري رأسه إلى الشمال واليمين: «أن تأمرني بشعر أمدحك فيه».

ربت الخليفة على كتف الشيخ باسما: « كانت خشيتك في غير محلها. أعرف أنك لا تمدح إلا الأنبياء».

تضاحك الشيخ ولمعت أضراسه المتبقية: «هل طلبتني لتعيد إليَّ البصر؟».

أجاب الخليفة متنهدا: «ضاق صدري فدعوتك لأسمع شيئا من شعرك، أخفف به بعض هذا الضيق».

نهض الصرصري من مكانه واقفا، متكئا على عصاه بكلتا يديه، فتشبث الخليفة بثوبه: «إلى أين يا أبا زكريا؟».

قهقه الشيخ: «لن أهرب. هل رأيت مولاي ضريرا هرب، فغاب عن أعين المبصرين؟».

أضاف جادا وقورا: «أنا يا مولاي لا أنشد شعري إلا وقوفا احتراما لمن أناجيه وأمدحه. ماذا أقرأ يا مولاي؟ ستكون أول من يسمع قصيدتي الجديدة».

علق المستعصم بارتياح: «هذا كرم منك أيها الشيخ الجليل».

راح الصرصري الضرير ينشد شعره بصوت شجي خاشع:

أنا العبدُ الذي كسبَ الذنوبا ... وصدتْهُ الأماني أن يتوبا
أنا العبدُ الذي أضحى حَزينًا ... على زَلّاتِهِ قَلِقا كئيبا
أنا العبدُ الذي سُطِرَتْ عليهِ ... صحائفُ لم يَخَفْ فيها الرقيبا
أنا العبدُ المسيء عصيْتُ سرًّا ... فما لي الآنَ لا أبدي النحيبا

رسمت دموع الخليفة مجرى لها على وجنتيه قبل أن تنزل متسللة بين لحيته المرسلة.

أنا العبدُ الـمُفَرِّطُ ضاعَ عمري ... فلم أرعَ الشبيبةَ والمشيبا
أنا العبدُ الغريقُ بلجِّ بحرٍ ... أصيحُ لربَّما ألقى مجيبا

أنـا العبـدُ السـقيمُ مـن الخطايـا وقـد أقبلـتُ ألتمـسُ الطبيبـا
أنـا العبـدُ المُخَلَّـف عـنْ أنـاسٍ حَوَوْا من كلِّ معروفٍ نصيبا
أنا العبدُ الشريدُ ظلمتُ نفسي وقـد وافيـتُ بابَكُـمُ منيبـا
أنـا العبـدُ الفقـيرُ مـددتُ كفـي إليكمْ فادفعوا عني الخُطوبا
أنـا الغـدارُ كـمْ عاهـدتُ عهـدًا وكنتُ على الوفاءِ بهِ كذوبا
أنا المقطوعُ فارحَمْني وصِلْني ويَسِّرْ منـك لي فرجًـا قريبـا
أنـا المضطـرُّ أرجـو منـكَ عفـوا ومن يرجو رِضاك فلنْ يخيبا
فيـا أسـفِي عـلى عمـرٍ تقـضى ولـم أكسـبْ بـه إلا الذنوبـا

* * *

22

غرة شهر رمضان المبارك سنة 655 للهجرة النبوية الشريفة

لم تكن «أمل»، أو أملي، أو الملاك الذي فتح عينيَّ على جمال الحياة، وأغراني بالتعلق بها، طريحة الفراش، كما عرفت فيما بعد، بل كانت حبيسة غرفة ضيقة في أحد سراديب قصر الفردوس، أو العالم السفلي للقصور العامرة؛ لأنها، كما أخبرتني إحدى الخادمات، كادت أن تركع، متوسلة بزوجة الخليفة أم مبارك أن تسمح لها بزيارة والدها لساعة واحدة أو نصف ساعة، أو أن تراه، لكن سيدة القصر العباسي ردت متضاحكة أنها هي أيضا تتمنى ذلك لو كان ممكنا؛ لأن إخراج الخفاجي، وهو في قفص من حديد، سيبعد عن سكان قصور الخلافة الملل، ويبعث فيهم المتعة؛ لأنهم ومنذ شهور لم يروا قردا سجينا، فردت أمل مذكرة زوجة الخليفة بسوق الرقيق ودكة النخاس، فصفعت أم مبارك، شُلت يدها، الوجه الملائكي الطاهر، طابعة مخالبها عليه، آمرة بسجنها. أعجب حقا من ذلك الذي لا يتوقع أن يخسف الله أرض بغداد، فتصبح كآثار عاد وثمود. كم من مرة عزمت أن أشكو أمرها للخليفة، فيصدني الخوف من أن تتعرض أمل لعذاب أكثر وسجن أطول، وليس خوفا على نفسي، فأنا أجسد في حياتي مقولة رسول الله ﷺ لابن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، ولا أخاف من طردي من

القصر؛ لأني، لا أدري لماذا، أعتبر وجودي قرب الخليفة وجودا مؤقتا، ربما بسبب مؤامرات أهل القصر، أو بسبب تقلب مزاجهم.

عندما يخفق قلبك للحب، لا تحب امرأة واحدة فقط، وإنما تحب الناس، كل الناس، حتى أولئك الذين يعادونك، لا شيء يبقى في دواخلك سوى الحب. ذلك ما تعلمته من أمل.

حين تكون وسط جنينة، أرى الورد الأحمر يزداد حمرة فكأنها طبعت عليه قبلات من شفتيها. أينما تكون، يتألق المكان بألوان أعجب كيف فاتتني فتنتها، فأمل مثل شمس ساطعة اكتسحت أشعتها الباهرة كل الظلال، وأضاءت كل المنحنيات. حيثما تكون، يمتلئ الفضاء بعطر فواح تضوّع من أنفاسها. حين تضحك أمل، أرى كل الوجوه ملونة بفرح طاغٍ، وأسمع صدى ضحكاتها الخجولة يتردد بالأصوات الشجية والألحانَ الأخّاذة. يداها الصغيرتان الناعمتان الرقيقتان تتركان في يديّ أثرا لا يزول، أتحسسه وكأني أراه، أشمه، أقبله، أتفاءل به. أما الآن، فهي هناك، بين جدران رطبة نتنة لا تألفها إلا الجرذان التي لا يطيب لها سوى تلك الأمكنة. إنها هناك في زنزانة تحت الأرض لا تسمع فيها سوى صرير الأبواب، ورنين الأغلال الثقيلة الموحش، وتثاؤب حارس وراء الباب ينتظر فرجه عند نهاية نوبته.

عينا أمل العسليتان لا تريان الآن غير صور الماضي، ومجرد أمنيات، تودعها في أخاديد الجدران وحزوز الباب الخشبي السميك، أو تدفنها بين طيات وسادتها، ثم لا تلبث أن تستعيد تلك الأمنيات.

قبل أربع ليال، أمضيت ليلة في داري بالشماسية. رأيتها أروع مكانا، أكثر أمنا، أجمل منظرا من قصور الخليفة. إذا كانت خزائن دار الخلافة ذهبًا

وفضة ومجوهرات، فخزائن دارنا هي ذكرياتنا. أمضيت ساعات طويلة في الأشهر القليلة الماضية وأنا أعاين الدار، في أي مكان سأبني غرفة أمل؟ هنا أجمل، لا، بل هناك في الجهة الجنوبية ليطل شباكها على بساتين الشماسية، لا، سأبني لها طابقا آخر لتطل منه على المنطقة كلها. لم أتحدث كثيرا، بينما انصبت عليّ نظرات مشفقة من أمي ومريم الأرمينية. كانتا حزينتين لحزني، وقلقتين لقلقي. حدثتني أمي كثيرا عن القسمة والنصيب، شافعة أقوالها بالأمثال والحكم التي توارثتها. نصحتني أن أذهب إلى غرفتي، وأخلد إلى النوم لأن عليَّ النهوض عند وقت السحور، ثم أضافت: « إني لأرى ضيعة لا يصلحها إلا ضجعة». فتساءلت مريم بلكنتها الأعجمية: «ما معنى هذا يا أم عبد القهار؟» . أجابت أمي وهي تنهض متثاقلة معتمدة على مريم: «إنه مثل عربي، يقال إن راعيا قاله بعد أن فضت عليه إبله في المرعى، فأراد جمعها، فتبددت عليه فاستغاث، حين عجز، بالنوم».

ضحكت الأرمينية معلقة: «لن تفلت الأمور من يد عبد القهار، فهو تربيتك يا حاجة».

في الصباح، قررت مع نفسي القيام بخطوة جريئة خطيرة. قلت لأمي ولمريم الأرمينية إن قيامة بغداد قريبة، ولا أحب أن أموت مقتولا قبل أن أتزوج حبيبتي، ولا بد أن أفاتح أمير المؤمنين بأمر بنت عمه أمل، وإطلاق سراحها، وطلب يدها منه. حاولتا إقناعي بتأجيل الموضوع حتى تستقر الأمور، وأوردت أمي مثلا فارسيا : (دراية بلا صبر كشمعة بلا ضياء)، لكن تصميمي كان أقوى، فلم تملكا سوى الدعاء بنجاح غايتي.

انطلقتُ أخب فرسي نحو دار الخلافة. عند باب النوبي، تبخر ذلك التصميم، حين رأيت أناسا كثيرين موزعين في حلقات عند مدخل الباب،

وقد ران عليهم الحزن والأسى. والدة المستعصم بالله انتقلت إلى جوار ربها في الليلة الماضية. إنا لله وإنا إليه راجعون.

سمعت في مجلس العزاء بعضهم يقول إن الله شاء أن يريح أم الخليفة فاختطف روحها قبل أن تعذبها مشاهد المأساة الكبرى والكارثة العظمى التي لا بد ستحل ببغداد عن قريب.

* * *

ما عادت أمسيات المدينة مثل ما كانت عليه. عندما يهبط الظلام، لا ترى في دروبها وسككها غير الكلاب السائبة. أما في النهار، فأية صرخة ترعب الناس وتدير رؤوسهم نحو الأسوار، خشية أن يكون المغول قد جاءوا. وعند صلاة المغرب، تزدحم المساجد والجوامع، والساحات القريبة منها، بأعداد كبيرة من المصلين صفا واحدا ، متراصة أقدامهم وجباههم على الأرض سواء، الغني والفقير، والوضيع والغطريف، الصعلوك والوزير والأمير، وفي المساء، تضج بالتراويح والذكر. الناس لا تنسى أن الله نصر المؤمنين ببدر وهم أذلة، وفي رمضان فُتحت مكة لنبينا ﷺ فطهرها من وساوس الوثنية، وأزاح منها كل قوى التقهقر والشرك، وفي رمضان فتح الله على خالد بن الوليد في اليرموك، وعلى سعد في القادسية، وعلى طارق ابن زياد في الأندلس، فعسى الله أن ينصرهم على أعدائهم هذه المرة. ترتفع صيحات المصلين متذرعين إلى الله أن يحفظ الإسلام وأهله، ويتعالى التكبير بقوة يقشعر لها بدن من يسمعه من بعيد.

أصبح الخليفة قليل الكلام، كثير التأمل. وجدت صعوبة في مكاشفته بأمر أمل وهو في حالته هذه. كان متلهفا لوصول ردود من ملوك المسلمين وسلاطينهم على رسائله ودعوته لمساندته لصد جيوش العدو التي لم يعد

يشك في زحفها غربا، وإن لم يخمن موعد بدء ذلك الزحف، لكنه الآن، وبعد عشرة أيام من وفاة أمه، عرف يقينا بذلك الموعد حيث سيواجه كل فرد من أهل بغداد قدره. وصلت الثانية من الحمام الزاجل، قادمة من همذان، تحمل رسالة صغيرة عليها ثلاث كلمات فقط «بدأ المغول زحفهم»!

كنت أعجب لحال مولاي، فكيف ينتظر وصول المدد من الممالك الإسلامية الأخرى، والدولة في زمن جد أبيه الناصر، وفي زمن أبيه المستنصر بالله، وفي زمنه هو، لم تتقدم لنصرة المسلمين حين تعرضوا للقتل على أيدي المغول؟ كان سادة القصر العباسي قد سدوا آذانهم عن المذابح البشعة التي تمت في هرات حيث قتل مئات الآلاف من المسلمين في يوم واحد على أيدي المغول. ولم ينصروا الخوارزميين قبل أن يبادوا على أيدي الغزاة الهمج، ولم يفعلوا شيئا لإنقاذ المسلمين في سمرقند وبخارى وبلخ. سمعوا عن سبي النساء المسلمات، واغتصاب بنات المسلمين، وحرق المساجد، ولم يتحركوا، فكيف يطالب المستعصم بالله الآن سلاطين المسلمين بفعل لم يفعله؟

لا أعرف حتى هذه اللحظة كيف انتشر الخبر بعد يومين بين الناس، وانتشرت معه أخبار تقول إن جيش هولاكو لا يحصى له عدد، واستعداداتهم لا مثيل لها، وإمكانياتهم لا قدرة للعراقيين على مواجهتها، وإن جنود هولاكو يصنعون المعجزات، وجلبوا معهم معدات عملاقة، تصاحبهم فيلة تجر عربات كبيرة مليئة بمختلف الأسلحة، وإن المغول يقاتلون حتى الممات، ويتفننون في التعتيم على مسيرهم، فلا يعلم بهم أهل بلد ما حتى يدخلوها. كان خوف الناس، وعدم ثقتهم بوعود القادة الكبار، بأن بغداد قادرة على إلحاق الهزيمة بالمغول، من دون أن يلحظوا شيئا من ذلك، شجع على رواج تلك الشائعات، التي لا بد أن يكون وراءها جواسيس للعدو يتحسسون

الأخبار ويشيعون الخوف والفوضى. لم يكن في الوسع إزالة أو تخفيف تأثير تلك الشائعات، بما تضمنته من تهويل في قوة العدو، وتقليل من قدرة الجيش العباسي، في معنويات الناس وأفكارهم واتجاهاتهم ومشاعرهم وسلوكهم. طالت تلك الشائعات المغرضة أصحاب النفوذ والسلطان، فحيكت حولهم حكايات عن سرقاتهم واختلاساتهم، واستغلال نفوذهم، ورشوتهم، وخيانتهم. لا أحد ينكر وقوع ذلك، لكن ليس بذلك التهويل الذي قصد به زعزعة إيمان الجنود والناس بالخليفة وأعوانه.

كان الخليفة يتوقع وصول تلك الرسالة، ولم يعد يهتم بأخبار وفده إلى هولاكوخان، لكنه ما زال يبني آمالا كبارا على وصول النجدة.

كل شيء تغير في بغداد، إلا مبيت الخليفة كل ليلة في مكان لا يعلمه أحد غيري، واستثنى من تلك الأمكنة مخدع أم مبارك، فلم يعد ينام هناك، ولم يتغير غناء «عرفة»، ومجون أبي العباس، وعداوة الوزير والدويدار الصغير التي لا تنتهي.

قبل أيام قليلة، وفي اليوم الذي بُشرت فيه باطلاق أمل من سجنها، جاء الوزير ابن العلقمي فرحا متلهفا لمقابلة الخليفة وبيده رسالة مطوية. قدته إلى مقره. ظن المستعصم أن الملوك قد أرسلوا أجوبتهم، لكن الوزير قال إنها رسالة من حاكم أربيل تاج الدين محمد بن صلايا العلوي، تتعلق بحاكم «درتنك» حسام الدين عكة. لم يبدِ الخليفة كثيرا من الاهتمام، بل غمغم: «ارتضى عكة لنفسه اهوان». ألح عليه الوزير أن يقرأ ما في رسالة ابن صلايا، فوافق على أن يذكر الوزير ما في الرسالة من دون أن يكلف نفسه بمعاينتها.

قال ابن العلقمي: « تعلمون يا مولاي أن عكة هذا لبى دعوة هولاكو بلا تردد، بعد تأنيبكم إياه على تقصيره في أمور الرعية، فوض ما تحته من

ممالك إلى ابنه الأمير سعد، وذهب بنفسه لخدمة الطاغية هولاكو، فرأى منه كل عطف ولطف، كما يقول ابن صلايا في رسالته، والذي يضيف أن هولاكو أمره بالرجوع، وجعل تحت تصرفه نواحي أخرى مثل دز، وروده، ودزمرج، ونواحي أخرى، ولما رأى أن الجيوش اجتمعت تحت إمرته، أخبر ابن صلايا بأنه زار هولاكوخان واطلع على كفاءته وكياسته، ورآه مهيبا وذا أنفة. لكن عكة لم يخشَ سطوته، وليس هو ذا قدر ومنزلة في نظره. يقترح أن الخليفة لو أكرمه وشجعه وأرسل جيشا لتأييده ونصرته، فإنه يتمكن من جمع جيش من الكرد والتركمان وما يقرب من مائة ألف مقاتل، ليسد الطريق في وجه هولاكو وعساكره، فلا يستطيع مخلوق حينذاك دخول بغداد».

تساءل الخليفة مستنكرا: «كيف نرسل جيشا ونحن مهددون بالعدوان علينا؟ حتى لو استطعنا، فكيف نرسل جيشا إلى رجل لانثق فيه؟».

قال الوزير: «ندعمه بالمال يا مولاي».

رد الخليفة بنبرة قاطعة: «لا يخدعنك هذا يا ابن العلقمي».

* * *

قلتها من قبل، وأكررها، إن بغداد، بما ابتلاها الله به من موقع ومكانة وخيرات، صارت هدفا لجواسيس من كل الدول الطامعة، والمعادية، وحتى تلك التي تظهر الطاعة وتضمر الشر. لا أبالغ إذا قلت إن الجواسيس قد تسللوا إلى كل مكان، حتى لو كان محصنا محروسا مثل قصر التاج، وإلا كيف وصل بعد أسبوعين فقط إلى مسامع هولاكو اقتراح حسام الدين عكة ورسالة ابن صلايا، حاكم أربيل، إلى الخليفة؟

جاء الخبر أن هولاكو السفاح لما علم بذلك، ثار ثائره، وزاد حنقه، فأمر بتوجه قائد جيشه كتوبغا نويان بثلاثين ألف مقاتل للتنكيل بهم. ولما تقدم

الجيش إلى دز ودرتنك، أرسل كتوبغا إلى حسام الدين يخبره بأنهم متوجهون إلى بغداد، ويحتاجون إلى مشورته، فلم يدر أنها خدعة وحيلة للإيقاع به، فجاء إليهم من دون تدبر أو تفكر. أمره القائد أن يخرج زوجته وأسرته وأولاده وسائر متعلقاته وعسكره، ليعرضوا أنفسهم أمامه، ليحصيهم، ومن ثم يقرر لهم الرواتب طبق عددهم. لم ير المسكين بدا من الامتثال للأمر، فأخرج هؤلاء، فطلب منه كتوبغا، لكي يكون في صفاء مع هولاكو، أن يأمر أصحابه بهدم القلاع والحصون إثباتا لحسن نواياه. أدرك حسام الدين حينذاك أنهم علموا بمذاكراته مع ابن صلايا والوزير ابن العلقمي، وبالتالي مع المستعصم بالله، فيئس من حياته، وأمر أصحابه بهدم القلاع. وبعد امتثاله لأمرهم، قتله المغول وقتلوا أصحابه وأولاده، إلا ابنه سعد الذي امتنع عن طاعتهم، وكان متحصنا في القلعة مع أعوان له، وعندما هددوه، قال: «إنكم أناس لا وثوق بمواعيدكم، ولا اعتماد على كلمتكم، فما مواعيدكم إلا دسائس وحيل». واستطاع الهروب وهو الآن متوارٍ في الجبال والوديان.

ومع أن مولاي الخليفة لم يكن ميالا إلى حسام الدين، إلا أن خبر مقتله ونكبة عياله وأهل مدينته أحزنه وآلمه، فأمر بإقامة صلاة الغائب في جامع دار الخلافة.

* * *

وصلت رسالة من بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، صدمت مولاي المستعصم وأذهلته، واهتز لها قصر التاج وحريم دار الخلافة وبغداد بأسرها. سطور بثت الرعب في دوائر الدولة، وأثارت النحيب في جناح الحريم وفي دار الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وخيمت أخبارها على الناس في بيوتهم، فانتزعت طمأنينتهم وفتحت عيونهم على خطر وشيك.

ذكر بدر الدين لؤلؤ في رسالته: «علمت يا مولاي، أن هولاكو قد راسل القادة الأكراد من أحفاد صلاح الدين الأيوبي، فبعث بالرسل إلى الأشرف الأيوبي، ملك حمص، وإلى الناصر يوسف، أمير حلب ودمشق، وعدهما أن يبقيهما في أماكنهما إذا ساعداه، أو على الأقل، كانا على الحياد في حربه المقبلة مع الخليفة في بغداد، وقد ردا بالإيجاب».

وجاء في آخر الرسالة وكأنه يعرج على خبر غير ذي قيمة: «يعلم مولاي أنني، كمسلم، قلبي معكم، ووددت أن أقود بنفسي جيشا لصد العدوان عن أسوار بغداد ودار الخلافة، لكنك يا أمير المؤمنين، تعلم أن لا قدرة لي على مواجهة جيوش المغول إذا ما قرروا الهجوم على الموصل. أعترف يا مولاي، أن هولاكوخان قد بعث برسله إليّ، فلم أملك سوى الإذعان لأوامره، فوعدت بمد العون له إذا ما هاجم بغداد. أدعو الله أن يغير رأي هولاكو ويحفظ لنا دار السلام».

تحول ذهول الخليفة بعد لحظات إلى غضب عارم، فحطمت يداه ما بقربه من قوارير وتحفيات. راح يسحقها بحذائه بقوة، صابًّا اللعنة على المغول والأيوبيين وصاحب الموصل.

تجمع القادة عند باب القصر، أبلغتهم بأمر مولاي بوضع الجيش في حالة استنفار، وأن توزع جميع الأسلحة المكدسة في دار السلاح على أفراد الجيش. سألتهم أيضا إن كانوا يرغبون بدعوة الخليفة إلى اجتماع لتدارس الموقف، لكنهم أجابوا أن ليس لديهم شيء جديد يمكنهم طرحه.

في ذلك اليوم الكئيب، اقتحمت الأميرة شمس، بنت صاحب الموصل، وزوجة الدويدار، مقر الخليفة، سافرة الوجه، لاطمة الخد، وقد بللت الدموع وجهها. رمت نفسها عند قدمي المستعصم، صارخة: «اقتلني يا مولاي، خلصني من عار أبي. لقد مرغني والدي الخرف في الوحل بخيانته».

رفعها المستعصم، ربت على كتفيها مواسيا: «لا يهمك أمره أيتها الأميرة. أنت منا، من أهل بغداد، وموقفك هذا موقف يشرف كل مسلم ومسلمة».

تقدم نحوها الدويدار الصغير الذي تبعها مبهوتا، فضمها إلى صدره وتركها تنتحب على كتفه.

كنت أتمنى لو وجد أمير المؤمنين أيضا صدرا حنونا ليبكي عليه، فأنا أعرف أنه ما زال، كما قال، ومنذ طفولته يجد في البكاء سلواه إذا واجهته مشكلة عويصة، وهل هناك أعظم من هذه الداهية؟!

لم يطل الهدوء كثيرا في مقر الخليفة، إذ علا هذه المرة صراخ الأميرة شمس الضحى الأيوبية، حفيدة صلاح الدين، وزوجة نجل الخليفة، أبي العباس أحمد. قبلت يدي الخليفة، قالت بصوت يقطعه النحيب: « واخجلتاه منك يا عمي.. لقد خان الأمراء الأيوبيون وصية جدي، فخانوا الأمة بموقفهم المشين من خليفة المسلمين».

قبل الخليفة رأسها، قائلا بصوت تخنقه العبرات: « حفر صلاح الدين اسمه في التاريخ يا ابنتي. سيظل جدك ذلك البطل العظيم على مر الزمن، ولن تلطخ سمعته مواقف المتخاذلين من أحفاده».

* * *

23

الأيام الأخيرة من سنة 655 للهجرة الشريفة

اكتشف المستعصم بالله فجأة أنه كان مخدوعا، فقد جاءته التحذيرات من بدر الدين لؤلؤ ومن العين التي اتفقت معه على تحذير الخليفة بموعد حركة المغول متأخرة، فقد تعمد صاحب الموصل أن يرسل تحذيره في وقت متأخر، وأرسلت الحمامة في موعد متأخر أيضا. لم يكن أمير المؤمنين وحده ضحية تلك الخديعة أو المؤامرة أو، أقولها بصراحة، التقصير المشين للمسؤولين عن أمن البلاد وإهمالهم واستكانتهم، بل كان الضحية أيضا كل العراق، وكل المسلمين. لم تتحرك جيوش المغول قبل ثلاثة أسابيع أو شهر، بل منذ مدة طويلة، وهي الآن تتوغل في أرض العراق. يا للمصيبة!

كان المستعصم مصعوقا، يغمغم، يهذر، ثم يرتفع صوته بكلمات غير مفهومة وعبارات مبتورة. قال ضاربا ركبتيه بجمع قبضتيه: «شيء عجيب! اجتازت جيوش المغول كل هذه المسافات الطويلة عبر أراضي المسلمين من دون مقاومة وكأنها في نزهة، من دون أن يتعرض لها أحد، ومن دون أن يفكر أحد في إبلاغنا عنها. كيف ارتضى الحكام المسلمون لأنفسهم عار الدنيا والآخرة، بتعاونهم مع العدو وإخفاء الأمر عنا؟ خيانة أمراء بلاد الروم، كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، ثم خيانة صاحب الموصل،

خيانة لا تغتفر. لم يكتفوا بفتح الأبواب لجيوش الغزاة، بل سهلوا مرورها وقدموا لها ما تحتاجه من مساعدة. يا للفاجعة!».

علم الخليفة والقادة بالأخبار بعد فوات الأوان. عقد هولاكو مجلس حرب في همذان، في بلاد فارس، وقرر الهجوم على بغداد قبل أشهر، وكانت عاصمة الخلافة مهمومة بصراعاتها الداخلية ومشغولة بعداوات قادتها، وقسم هولاكو جيشه إلى ثلاثة جيوش: الجيش الأول، هو القلب، وهو القسم الرئيسي من الجيش، يقوده هولاكو بنفسه، وستلحق به الإمدادات التي سيرسلها «باتو» زعيم القبيلة الذهبية المغولية، وكذلك ستلحق به الفرق المساعدة من مملكتي أرمينيا والكرج، ومهمة هذا الجيش اختراق الجبال الواقعة في غرب فارس صوب بغداد مباشرة مرورًا بمدينة قرمسين، وستكون مهمة هذا الجيش حصار بغداد من الجهة الشرقية. أما الجيش الثاني، وهو الجناح الأيسر لجيش المغول، يقوده «كتوبغا» أفضل قواد هولاكو، والذي كان مكلفا باكتساح ما تبقى من بلاد فارس، فأمر هولاكو بتحريك هذا الجيش في اتجاه بغداد أيضًا، ولكن إلى الجنوب من الجيش الأول، وقد تم فصل الجيشين حتى لا تستطيع عيون الخليفة، والتي لا وجود لها في الواقع، أن تقدر العدد الصحيح للجيش الغازي، بالإضافة إلى أن الطرق لا تستوعب هذه الأعداد الهائلة من الجنود. ومهمة هذا الجيش اختراق سهول العراق، والتوجه إلى بغداد من جهة الجنوب، وحصارها من جهتها الجنوبية الشرقية. كان الجيش الثالث هو الجيش المغولي الرابض على أطراف بلاد الروم، والذي كان مكلفًا من قبل بفتح بلاد الإفرنج غربا، وعلى رأس هذا الجيش القائدان المغوليان الكبيران «بيجو» و «جرماغون»، وكان على هذا الجيش أن يأتي من هذه المناطق الشمالية ومن أطراف أربيل، ثم يتوجه إلى الموصل ويعبر جسرها ويعسكر في الجانب الغربي من بغداد، وعين لمسير هذا

الجيش وقتا معينا يصادف وقت مجيء الرايات المغولية من المشرق في اتجاه الجنوب حتى يصل بغداد من شمالها، ثم يلتف حولها ليحاصرها من جهة الغرب، وبذلك تحصر بغداد بين هولاكو شرقًا وكتوبغا من الجنوب الشرقي وبيجو من الغرب.

قالت الأخبار أيضا إن هولاكوخان قد تحرك من همذان، واضعا على رأسه التاج المغولي المسمى (قباق نويان) ويعني «تاج القيادة» أو «تاج الإمارة» ، وكان برفقته كبار الأمراء، ومنهم كوكا ايلكا، وأرغون أغا، وقرتاي بتيكجي، وسيف الدين بتيكجي، وكذلك الخواجة نصير الدين الطوسي، والصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني مع أعاظم فارس وكتّابها، والمصيبة أن الطوسي، كما ذكرت من قبل، مسلم متفقه في الدين والفقه، وعلى جبينه سمة من أثر السجود!

لا أدري كيف ارتضى شيخ كالطوسي، أن يرافق قائدا تلطخت يداه بدماء آلاف آلاف المسلمين، ويرى بعينيه كيف تغتصب نساء أمة محمد، وكيف تحرق بيوت الله ويذبح عباد الله، ولا يحرك ساكنا!!

إذا كان حكام المسلمين قد خانوا الأمة، حفاظا على مناصبهم وكراسيهم، فتعاونوا مع عدو الله هولاكوخان، فكيف يرضى عالم مسلم متفقه أن يبيع آخرته بمتاع التبعية والخنوع والذل في خدمة قاتل كافر سفاح؟!

انهار القادة في بغداد، وراحوا يتبادلون تهم التقصير والإهمال والخيانة. أمر المستعصم، بما تبقى له من تركيز وقوة بعد أن هزته الصدمة، بإعلان حالة الاستنفار القصوى، وتدعيم الأبراج والأسوار، وأن تعسكر قوة من الجيش، بقيادة قره سنقر «الباز الأسود»، قرب بعقوبا، وترسل قوة ثانية لحماية بغداد من جهة طاق كسرى في المدائن.

* * *

أصبحت بغداد مدينة كئيبة، وسكانها تراهم في الطرقات والدروب والأسواق ذاهلين، فكأنما تناولوا شيئا من حشيشة النزاريين الإسماعيليين. اختفت الابتسامة من محيا أمير المؤمنين، ولا أدري متى أراها ثانية. كان يمضي النهار متجولا في الحدائق والبساتين المحيطة بقصر التاج، يتوقف فجأة، فأتوقع أنه سيقول لي شيئا، لكنه يعود إلى السير ثانية، وبعد فترة قصيرة، يهم أن يقول كلاما، لكنه كان يكتفي بالصمت. ازدادت آلام الشقيقة، ورضخ لنصيحة الطبيب بعلاجه بالكي، لكن ذلك لم يكن علاجا ناجعا. أما في الليل، فكنت أجلس على مقربة منه في خزنة الكتب بدار المسناة. كان يجد بعض السلوى في قراءة الكتب. وبعد أن يقضي شطرا من الليل هناك، ينتقل إلى جامع الخليفة القريب، فيستغرق في الصلاة أو تلاوة القرآن، أو التسبيح فيما تترقرق عيناه بالدموع.

وصل قبل أيام قليلة، رسول من هولاكوخان، حاملا رسالة مفادها أن السفاح يبلغ الخليفة بلزوم حضوره إلى مقر هولاكوخان الجديد في «أسد آباد»، فرد عليه المستعصم برسالة مزجت بين الوعد والوعيد والتضرع والالتماس طالبا من الطاغية الرجوع مع جيشه وانصرافه عن التوجه إلى بغداد، مبينا استعداده لما يقرره هولاكو وما يطلب إرساله من المال في كل سنة إلى خزانة القائد المغولي. لم يعقد المستعصم اجتماعا مع قادته، كعادته، لمناقشة تهديد المغول وجوابه عليه؛ لأن معظم القادة قد تمارض أو تحجج بمختلف الأعذار، كيلا تنصب عليهم لعنات الخليفة وتوبيخه لهم.

كان ذلك العرض تنازلا لم يسبق لمولاي أن قدمه من قبل؛ لذلك شاع نوع من التفاؤل في القصر وفي المدينة باحتمال قبول الطاغية بهذا العرض المغري. على الرغم من ذلك، لم يعد الناس يثقون بالأخبار المتسربة من القصر، بما

تحمله من وعود، وما تتظاهر به الدولة من قوة، فبدأ الناس يبيعون ممتلكاتهم بأبخس الأثمان، تمهيدا للخروج من بغداد، لكن القادة اقترحوا على الخليفة أن يصدر قراره بمنع النزوح، خوفا من فرار الجنود من قطعاتهم، ففعل ذلك.

في ظهيرة أحد الأيام، وكنت واقفا أمام دكان صديقي التاجر محمد ابن حسين العلوي، فإذا بي أرى مقاتلا ذا ملامح أنثوية، في طريقة مشيه، ووضعه السيف بطريقة تنم على أنه غير محترف للحرب والقتال. ذكرتني ملامحه بشخص أعرفه أو التقيته من قبل أو أنه شقيق رجل أعرفه. تبعت ذلك الرجل المرتدي حلة القتال حتى نهاية السوق، واقتربت منه أكثر للتعرف عليه، لكني أخيرا اضطررت إلى دعوته للوقوف، وعندما امتثل لطلبي، فوجئت أن ذلك المقاتل لم يكن سوى الأميرة شمس!

قالت لي وهي تعدل من وضع شاربها المستعار: «مفاجأة يا عبد القهار، أليس كذلك؟ ارتديت هذه الحلة تحسبا للأخطار، لأكون جاهزة للقتال دفاعا عن بغداد، وغسلا لعار أبي. لا يهمني إن عرف زوجي الدويدار بهذا أو لم يعرف، فقد نذرت نفسي لمهمة مقدسة».

هزتني كلماتها، وددت أن أحضنها أو أقبل رأسها تعبيرا عن إعجاب كبير وتقدير كبيرين، لكني لم أستطع، فانحنيت لها احتراما واعتزازا.

* * *

لم أر أمي منذ أيام طويلة، لكنني كنت أبعث، بين الحين والحين، جنديا من جنود القصر للاطمئنان عليها وعلى مريم الأرمينية. أما الغالية أمل، فكنت ألتقي بها كثيرا، فلم يعد الخوف من الوشاة، أو من زوجة الخليفة أم مبارك

قائما، فسكان القصر مذهولون بأخبار تقدم قوات العدو. لم تعد «أمل» حبيسة قصر الفردوس ولا تغادره إلا بإجازة قصيرة، بل أصبحت حرة في الحركة، لكنها لم تستطع مقابلة أبيها. طلبت مني أن أبذل كل وسعي في إقناع أمير المؤمنين بتحقيق رغبتها، لكن حالة مولاي ما عادت تساعد على قبول طلبات كهذه، ولو كان الأمر غير ذلك، لما ترددت في طلب يدها منه.

قلت لها شيئا، لم يفاجئها فقط، بل فاجأني أنا: «هيا بنا أيتها الأميرة الحبيبة إلى السجن لتزوري أباك».

ظلت جامدة في مكانها، حين امتصت صدمة المفاجأة، هزت رأسها بالرفض: «لا أقبل تحقيق رغبتي على حساب سلامتك وتعريض نفسك لغضب الخليفة».

كنت قد اتخذت قراري بعزم لا يلين أمام أية مخاوف أو مخاطر. قلت لضابط السجن بنبرة قوية آمرة: «أنا عبد القهار بن ناصر الدين، مرافق الخليفة المستعصم بالله».

أحنى الضابط رأسه احتراما، فشجعني ذلك على أن أضيف واثقا: «لديَّ أمر من مولانا أمير المؤمنين بالسماح للأميرة أمل بزيارة أبيها الأمير الخفاجي وعمها أبي القاسم أحمد».

أمضيت في السجن مع أمل وأبيها وعمها أكثر من ساعتين. كان الخفاجي ممتنا لي، غير أن ما كان يهمني هو راحة أمل وسعادتها، ولو كانت تلك السعادة لا تعمر طويلا.

* * *

وصل رد هولاكو، وكان مخيبا. قال في رسالته القصيرة، بلغة ساخرة هازلة: «أيها الخليفة العظيم، أنت تعلم أننا قطعنا مسافات طويلة، وعانينا من مصاعب الطريق، وحرارة الشمس، فكيف يمكن أن نعود أدراجنا، من دون أن نحظى بشرف مقابلتكم، والإصغاء إلى نصائحكم، وتلقي أوامركم؟».

ترافقت الخيبة مع توارد الأخبار بتقدم القوات المغولية الشمالية وعبورها نهر دجلة عند تكريت، على جسر معقود على قوارب، قدمه لهم أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ، أخزاه الله في الدنيا والآخرة، لكن أهل تكريت، بكل ما أوتوا من بسالة، هجموا على قوات المغول وأحرقوا الجسر، غير أن المغول أصلحوا الجسر خلال يوم واحد.

أمر الخليفة بعودة قره سنقر وجيشه إلى بغداد، ثم تقدم من الكرخ ومعه الدويدار الصغير بمحاذاة دجلة ومعهما جيش قوي من المشاة، فصدا المغول على نهر الفرات، وأبيدت القوة المغولية عن بكرة أبيها.

حاول المغول استمالة القائد قره سنقر بوساطة الضباط الأتراك الذين يقاتلون في صفوفهم، ومنهم المدعو «سلطان جوق»، وهو من الخوارزميين الذين كانوا مع العدو، فأرسل جوق هذا رسالة إلى قره سنقر يخبره فيها «إننا وإياكم من جلدة واحدة وقوم واحد، ونحن بعد الدفاع الكثير، عجزنا واضطررنا إلى طاعة هولاكو، والآن نحن في خدمته وهو يحسن إلينا. أنتم أيضا، ارأفوا بأرواحكم، وأشفقوا على أولادكم، وأطيعوا المغول، حتى تكونوا في مأمن منهم على أنفسكم وأموالكم وأولادكم».

لكن القائد التركي قره سنقر لم يرض أن يخون واجبه العسكري، وعقيدته الإسلامية، فكيف يمكن أن يخون ويلطخ سيرته بالعار المؤبد ويفسد دينه بالخيانة والمواطأة؟ فرد على تلك الرسالة، بجواب قال فيه: «إن المغول

أعجز من أن يتمكنوا من الفتك بالبيت العباسي؛ لأن هذا البيت رأى من أمثال جنكيزخان كثيرا، فأساسه أحكم من أن يمسه جنكيز وأتباعه بسوء، ولا يتزعزع لكل عاصفة مهما كانت شديدة. إنهم، ومنذ أكثر من خمسمائة سنة، يحكمون كابرا عن كابر. وكل من قصدهم بسوء نال جزاءه، ولا يأمن سطوات الدهر.

ولما كنت تكلفني بالطاعة لدولة المغول الحديثة العهد، فقولكم هذا بعيد عن الكياسة. ومن لوازم القرابة والصداقة أنكم لما رأيتم هولاكوخان فتح قلاع الملاحدة، أن تصدوه وترجعوه إلى الري، وترجعوا إلى مواطنكم تركستان وخراسان. فالخليفة متألم من تطاول هولاكوخان. وإذا كان هولاكوخان ندم على فعله، وجب عليه أن يرجع بجيشه إلى همذان، حتى يتشفع الدويدار له عند الخليفة ليعفو عنه ويقبل الصلح فيسد باب القتال والجدال».

يقال إن «سلطان جوق» قدم هذا الكتاب إلى هولاكو، وعندما اطلع على مضمون الكتاب ضحك بسخرية قائلا: «إن قوتي وعظمتي نتيجة فعلي وإرادتي، ولم تكن بدرهم ولا دينار. وإذا يسر الرب نصرتي وأعانني، فلا أخشى من الخليفة وجيشه».

بعد يومين فقط، جاء خبر مؤسف، فقد قبض المغول على قائدي القوة المرابطة قرب طاق كسرى، وهما «أيبك الحلبي» و«سيف الدين قلج»، وذهبوا بهما إلى هولاكو، فعفا عن أيبك الذي تعهد أن يدلي بكل ما لديه من معلومات عسكرية، وأن يدل هولاكو على الطريق إلى بغداد، فعينه الطاغية ضابطا في الجيش المغولي، فأين هذا من إخلاص قره سنقر؟!

* * *

يبدو أن عهد بغداد بالفرح والأخبار المسرة قد انتهى. حلت بالمدينة كارثة مع توالي أخبار المعركة الأخيرة التي خاضها جيشنا العباسي خارج أسوار بغداد.

بعد الانتصارات التي حققها الدويدار أيبك والأمراء الذين معه، تبين فيما بعد أن هزيمة المغول كانت مقصودة وحيلة للإيقاع بالجيش العباسي، فتبعهم الدويدار وقتل منهم عدة كثيرة، وأرسل رؤوسهم إلى بغداد، وما زال يتبعهم بقية نهاره، فأشار عليه القائدان فتح الدين بن كر وقره سنقر بأن يثبت مكانه ولا يتبعهم، فلم يصغِ إليهما، وعندما أدركه الليل كان قد تجاوز نهر بشير ببز دجيل، فلما أصبحوا، حملت عليهم عساكر المغول وقاتلوهم قتالا شديدا، فلم تثبت عساكر الدويدار، فانكسروا، وكروا راجعين إلى بغداد، فوجدوا أن المغول قد أحدثوا فتحة في نهر بشير ففاض في الليل وملأ الصحراء، فعجزت الخيول عن سلوكه، ووحلت فيه، فلم يخلص منه إلا من كانت فرسه شديدة، وألقى معظم العسكر نفسه في دجلة، فهلك منهم خلق كثير، ودخل من نجا منهم بغداد مع الدويدار وهم في أسوأ حال، وتبعهم القائد المغولي بيجو وعسكره، يقتلون فيهم، وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم. واستشهد في هذه المعركة القائد قره سنقر والقائد فتح الدين بن كر، واستشهد معهما اثنا عشر ألفا من الجيش.

الخليفة الآن في أشد حالات الذهول، والدولة أصبحت مشلولة، وبغداد تندب قتلاها.

اتجه المغول بقيادة بيجو نحو الكرخ نازلا من الشمال مع مجرى نهر دجيل وعلى طريق مدينة «حربى»، وأهل القرى أمامهم وقد ملئوا رعبا، متجهين إلى بغداد بحثا عن مكان آمن. وصف لي أحد شهود العيان أن القوارب

كانت تشاهد وقد امتلأت بشرا، وهي تجري في القنوات بعد أن دفع الرجال والنساء أجورا عالية عساهم أن يصلوا إلى أسوار المدينة سالمين.

ولما كان العمران في بغداد الغربية مبعثرا، ولم يكن فيها سور عام يقيها الهجمات؛ لذلك تقرر إخلاؤها وتركيز الدفاع عن المدينة الشرقية، وهكذا قطع الجسر المعقود على القوارب، وجرى تفكيك أوصاله.

أخذت جيوش المغول تحاصر بغداد التعسة بالتدريج وتضرب حولها الحصار. أما هولاكو فقد ترك متاعه الشخصي في خانقين وجاء إلى بغداد راكبا في الحادي عشر من المحرم من العام الجديد، أو عام المأساة أو عام النكبة الكبرى، ومعه جيش لا يحصى عدده، ولا ينفد مدده. وأمر هولاكوخان أن ينصب معسكره خارج باب الطلسم، وهدفه «برج العجمي»، حيث أمر بوضع مجانيق متعددة مقابل البرج. واتخذ القائد ايلكونويان مكانه قبالة باب كلواذا، في الجناح الأيسر، أما قولي، وبلغا، وشيرامون، وأرقيو فكانوا بإزاء باب السلطان في الجناح الأيمن.

شيّد المغول سدا، وحفروا خندقا خارج الأسوار وبموازاتها، وبنوا من تراب الخندق سورا محيطا ببغداد، وبذلك استطاعوا أن يجعلوا المدينة في معزل من الجانب البري. وقرر هولاكو عمل أبواب لذلك السور، ورتب عليه أمراء المغول. ومن تراب الخندق أيضا أقيمت تلال عالية جُعلت كقاعدة لآلات المنجنيق العملاقة التي ترمي الحجارة والنفط الملتهب.

ما أثار استغراب الخليفة والقادة وأهل بغداد أن كل ما فعله المغول حول بغداد قد تم خلال يوم واحد فقط!!

كنت أرافق مولاي المستعصم في تفقد أسوار المدينة وفي التطلع إلى استعدادات العدو. وقفت معه في «برج العجمي»، أقوى أبراج سور بغداد

وأمنعها، وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني قد لقب بالعجمي لكونه ولد في إقليم «كيلان» شمال بلاد فارس ثم انتقل إلى بغداد ، وقد بُني البرج قريبًا من مرقده فأطلق عليه «برج العجمي» نسبة إلى الشيخ الكيلاني الذي كان يلزم الخلوة فيه. كان منظر المغول يثير الرعب، فقد كانوا منتشرين في أطراف بغداد كالجراد.

شرح القادة لمولاي الخليفة تقسيمات جيوش العدو. جرى تقسيم القوات المغولية على الجانب الغربي على قسمين، جعل أحدهما عند المارستان العضدي، والآخر في منطقة القُرية. وعلى ذلك كان لهولاكو ثلاثة جيوش رئيسية خارج أسوار بغداد الشرقية، وكان هناك جيشان رئيسان على الجانب الغربي واللذان لم يجدا إلى عبور دجلة سبيلا.

بغداد العزيزة أمست محاصرة، معزولة، تنتظر مصيرها الذي لا يعلم سواده إلا الله وحده.

* * *

24

النصف الأول من شهر محرم الحرام من سنة النكبة الكبرى 656 هجرية

أدركت الآن، في هذه الأيام العصيبة القاسية المرة، أن الكتابة أصبحت عبئا ثقيلا عليّ، فكيف يمكن للمرء أن يطاوعه قلمه في وصف كيف تقطع رؤوس أفراد أسرته، أخوته، أولاده، معارفه، أهل مدينته؟ أصبحت الكتابة مؤلمة بعد أن كانت متنفسا وتسجيلا لأحداث وأيام، فيها الحلو، وفيها المر الذي لا يبلغ مرارة مشهد البشر وهي تُذبح كالنعاج.

لولا وعدي لأمير المؤمنين بأن أكتب وأكتب، لأحرقت كل أوراقي وكل ما كتبته. من يكتب، يود أن يقرأ الناس ما يدور في عقله وقلبه، لا أن يعرض عليهم كيف يموت الناس، الأحبة بالآلاف، كيف يتطاير الدم من الأعناق المذبوحة، كيف ينظر إليك من يضع رأسه على خشبة قطع الرؤوس، كيف يودع رجل أحبته بنظراته قبل أن يهوي سيف الجلاد على رقبته، كيف تبصر مقيدا بنات بغداد وهن يغتصبن أمام عينيك، وتضج صرخاتهن في أذنيك. قد يفرح شامت، ويتشفى حاقد، ولا أريد من القارئ أن يشفق ويعطف، فمهما حدث، ستظل بغداد باقية إلى الأبد.

لكنني من أجل مولاي فقط أواصل الكتابة، وكأن قلمي الآن مبضع أقطع به أجزاء من لحمي لأرتبها على شكل عبارات وجمل. قال مولاي:

«أتمنى أن تسجل، من يومك هذا، كل ما يسترعي انتباهك من أحداث ومشاهدات، فلعلي يوما، بعد أن تنتهي الأزمة مع المغول، أقرأ ما كتبته، فأستعيد ذكريات هذه الأيام الحرجة الحافلة بالتحديات».

كيف تنتهي الأزمة مع المغول، وهم يستعدون لحملتهم الأخيرة؟ هل سيكتب لمولاي أن يقرأ ما سطرته في هذه الصفحات؟ لا أدري. كل ما أدريه أن عليّ تنفيذ رغبته. فليعذرني سيدي الخليفة، إذا قدر لنا أن نجتاز المحنة، وكل من يقرأ هذه الصفحات، على اختصاري في ذكر بعض الأحداث، وتجاهل صور الموت والقتل.

* * *

في غمرة اضطرابه وحيرته، قرر المستعصم القيام بمحاولة أخيرة لإنقاذ بغداد، فأشار عليّ بالذهاب إلى الوزير ابن العلقمي، وإبلاغه بضرورة الحضور. قال: «طلب هولاكو من قبل حضور الوزير، وسأخبر ابن العلقمي بضرورة الذهاب إليه».

قلت: «يقال إن زوجة هولاكو «دقوز خاتون» المسيحية لها تأثير كبير عليه، فلماذا لا تأمرون بإرسال جاثليق نصارى بغداد مع الوزير؟».

فكر قليلا، وهزّ رأسه موافقا: «فكرة صائبة.. أحضر الاثنين».

وجدت الجاثليق في أحد الأديرة، ورحب بالفكرة، متمنيا نجاحها. علمت أن الوزير موجود قرب السور. سمعت أنه هناك في جماعة من مماليكه وأتباعه وهم ينهون الناس عن الرمي بالنشاب، مرددين أن الصلح سوف يقع إن شاء الله فلا يحاربون. لم أساله عن صحة ما سمعته، بل اكتفيت بإعلامه برغبة الخليفة في حضوره.

قال الخليفة للوزير والجاثليق وعدد من القادة الذين سيرافقونهما: «بلغوا هولاكو أن الخليفة أوفى بعهده، وأرسل لك الوزير ابن العلقمي الذي أردته قبلا، فيكون بعمله هذا قد نفّذ أمر السلطان».

كان أهل المدينة، مما أصابهم من يأس وخوف، يتشبثون بأي شيء ليُحيوا آمالهم بالخلاص، فاستبشروا خيرا بمغادرة الوفد. لم تمض سوى سويعات حتى عاد الوفد يجر أذيال الخيبة.

قال الوزير: «رد هولاكو علينا قائلا إن هذا ما اشترطته على أبواب همذان، حينما كنت هناك. أما الآن وأنا على أبواب بغداد، وبعد أن تلاطمت الفتن والانقلابات، فلا يسعني أن أكتفي أو أقنع بوصول وزير واحد، بل أريد أن يأتوا إليّ ثلاثتهم: الدويدار الصغير وسليمان شاه والوزير».

كان الدويدار وسليمان أبرز دعاة الحرب والاستعداد لمواجهة الغزاة، ولم تغب أخبار قيادتهما لما تبقى من الجيش العباسي في المعارك الأخيرة وإنزالهما الخسائر بالمغول في المعارك التي سبقت حصار بغداد، وإن كانت قليلة مقارنة بالعدد الهائل للعدو؛ لذلك ألح السلطان المتجبر على إحضارهما إليه، وتنفيذهما تلك الرغبة يعني القتل بأبشع صورة، ولا أحد في بغداد يصدق أن هولاكوخان سيعود أدراجه بعد مقتل هذين القائدين.

في صباح اليوم التالي، توجه الوزير وصاحب الديوان، الدامغاني، وجماعة من مشاهير البلدة وأعيانها لمقابلة هولاكو، لكن الجيش المغولي أرجعهم إلى داخل الأسوار. وبعد ظهر ذلك اليوم بدأت تتساقط على المدينة أحجار شدت عليها ألواح مفادها أن مرحمة المغول تشمل فقط رجال الدين والموظفين وغير المحاربين. كانوا كاذبين في ذلك.

* * *

25

أواخر شهر محرم الحرام من سنة النكبة الكبرى 656 هجرية

في يوم الثلاثاء 22 من المحرم، بدأ القصف الشديد على بغداد من جميع النقاط، وانصب بوجه خاص على «برج العجمي» الذي هو عند انحناءة السور الشرقية بين باب الحلبة وباب كلواذا. لم تكن لدى الغزاة أحجار للرمي، فصاروا يجلبونها من جبل حمرين، ويرمونها بواسطة المنجنيقات على المدينة. وكانوا يقطعون النخيل ويجعلونها مكان الأحجار للرمي. توالى سقوط قطع اللهب على الدور، وقصور الخلافة، والأسواق، ودروب بغداد، جوامعها، كنائسها، كنيسها، بساتينها، فشبت الحرائق، لكن الحرائق كانت أكثر انتشارا في أحياء الفقراء المشيدة من القصب وسعف النخيل. غطت سماء المدينة سحب الدخان الكثيف الخانق. لم يفتر سقوط السهام والأحجار والكتل الملتهبة دقيقة واحدة.

في اليوم التالي، 23 محرم، كانت المعارك حامية عند سور بغداد، وفي جميع نقاطه، لكن قصف برج العجمي كان أكثر ضراوة. أشك أن هذا البرج، مهما كانت قوة تحصيناته، سيقاوم طويلا. أعداد الشهداء في تزايد مستمر، والخسائر ما عادت تحصى.

كان المستعصم خائر القوى، متيبس الشفتين، وفي حالة يرثى لها من الذهول والحيرة، حتى أنه قال لي إنه يشعر أن نفسه تخرج من جنبيه. تفقدنا بعض أجنحة قصر التاج، فوجدنا أن السهام كانت تتساقط كالمطر على الدار الشاطئية.

سكان قصور الخلافة راحوا يركضون بلا هدى في الحدائق والبساتين داخل حرم دار الخلافة، ويتعالى صراخ الأطفال ونحيب النساء، فينفطر قلب سامع لا حول له ولا قوة.

* * *

أحسست أن الموت يدور حولي، يتتبعني، متأهب للانقضاض عليّ بين لحظة ولحظة. مصير الخليفة وأمل وأمي ومريم، كان يشغل بالي أكثر من كل شيء. وددت أن يستقر الخليفة في مكان آمن ولو لقليل من الوقت، كي أتفقد الغالية «أمل»، لكنه كان كمن تعلقت النار بثيابه، يركض هنا وهناك، هربا من الموت. حين اتجه المستعصم إلى جناح عرفة، انتهزت الفرصة، وركضت نحو قصر الفردوس، فوجدت «أمل» أكثر شحوبا مما توقعت. يداها ملطختان بدم الجنود الجرحى الذين مددوا في الساحة المقابلة للقصر، أو الذي كان قصرا قبل أن تشتعل فيه النيران. بادرتني صارخة أن أنقذ أباها وعمها، فأخبرتها أني سأفعل. رافقتني إلى «دار الشجرة». لم يكن هناك أحد من الحراس، ففتحت زنزانة الخفاجي وجماعته، تركتهم مع أمل، ورحت أفتح أبواب الزنزانات كلها، فانطلق السجناء من عالم السجن والظلام، إلى ساحة القتل والحرائق. لم يكن هناك طريق للهروب خارج بغداد، فقدتهم إلى كوخ منعزل وسط البستان القريب من «التاج». وعدتهم أن أعود إليهم بالماء والطعام.

بحثت عن مولاي الخليفة في فناء القصر، في اسطبلات الخيل، في أبراج الحمام، فلم أجد له أثرا. تذكرت جناح «عرفة» فهرولت إلى هناك.

كان المستعصم مُسَجًّيًا جسد مغنيته مثلما احتضن رأسها يوم حاولوا تسميمها. كان يذرف الدموع، مرددا بصوت خافت أغنية كانت تنشدها عرفة ذات يوم. كان السهم قد اخترق صدرها، فتدفق الدم من فمها. سحبته من ذراعه، فانقاد لي دون وعي مرددا الأغنية، ورافقته إلى سرداب في قصر التاج. لم يأكل منذ أيام ولم يدخل جوفه سوى الماء.

لم يبق لي الآن سوى الاطمئنان على أمي ومريم، لكن الوصول إليهما كان مستحيلا، فما أبعد الشماسية عن دار الخلافة!

* * *

في اليوم الثالث، الخميس 24 من المحرم، حضر أمام المستعصم الدويدار الصغير وزوجته شمس وعدد من أهل بيته وأعوانه. قال الدويدار بنبرة يائسة: «تكبدنا خسائر جسيمة، وقدرة جنودنا على الصمود تتضاءل، فلم يعد من سبيل أمامنا إلا الهرب من بغداد. لو وافقت يا مولاي على صحبتنا، فسنذود عنك قبل أن نذود عن أنفسنا. لقد أعددت سفنا للهروب نحو البصرة، فالمغول لا يتوقعون شيئا من تلك الناحية».

قال الخليفة ونبرته تفيض حزنا: «كيف لي الخروج من بغداد، وجنودي الآن يضحون بأرواحهم دفاعا عن بغداد وعني؟ إذا عقدت العزم وأعددت كل شيء، فتوكل على الله».

ابتعدت شمس قليلا عن الدويدار، قائلة: «أما أنا فلن أترك بغداد ومولاي الخليفة».

عند حلول الظلام، تحركت سفائن الدويدار بسرية وحذر شديدين، لكن الرياح تجري بما لا يشتهي الدويدار. لما مرّت السفائن بالعقابية، وهي قرية تقع إلى الجنوب الغربي من بغداد، أحاطها جيش القائد المغولي بوغاتيمور، وأخذوا يرمونها بالأحجار والسهام وقوارير النفط بواسطة المنجنيقات، واستولوا على ثلاث سفن وأهلكوا من فيها، فأيقن الدويدار أن الفرار صعب، فعاد إلى بغداد خائبا.

اكتشف الدويدار الصغير، بعد فوات الأوان، أن هولاكو كان قد أمر بنصب جسرين، أحدهما في أعلى بغداد، وآخر في أسفلها، فأعدوا السفن لها والمجانيق، وقطعوا طريق المدائن والبصرة. وكان قصدهم من قطع الطريق، أن يمنعوا كل من يريد الفرار من بغداد ويحاول الهرب.

عندما أطلعه الدويدار على هذه الحالة، قال المستعصم بصوت خافت: «ليس لي بد من طاعتهم».

أرسل الخليفة فخر الدين الدامغاني ومعه تحف وهدايا قليلة؛ لأنه حاذر أن يرسل تحفا كثيرة، فتدل على خوفه منهم فيزيد ذلك من تعنت العدو وعناده. ولم يلبث الوفد أن عاد من دون نتيجة تذكر.

* * *

في يوم الجمعة ، 25 من المحرم، استولى الذعر على أهل المدينة لدى سماعهم خبر نجاح المغول في هدم برج العجمي، وبدأت في هذه النقطة من السور، معارك ضارية بين المغول والمدافعين الأبطال. وتركز القصف الآن على باب السلطان.

في الليلة التالية، شن الغزاة هجوما كاسحا على سور المدينة، وهكذا أصبحت جميع وسائل الدفاع عن المدينة بأيدي الغزاة. لكن هولاكو أوقف

اقتحام بغداد، ما دامت هنالك قوات عسكرية لا بأس بها، وهو يريد احتلال بغداد بالطريقة التي يشاؤها. ويريد هولاكوخان تفاهم اللحظة الأخيرة.

في يوم الثلاثاء، 29 المحرم، خرج ابن الخليفة الأوسط، أبو الفضل عبد الرحمن، ومعه الوزير وصاحب الديوان وجمع من الأعاظم ومعهم أموال كثيرة، لكن ذلك لم يقع موقع قبول هولاكو.

وفي سلخ المحرم، خرج أبو العباس أحمد، ومعه الوزير وجمع من المقربين بقصد الرجاء والشفاعة، فلم يجد أيضا نفعا.

وصل هذا اليوم رسلا القائد المغولي إلى الخليفة، وهما الخواجة نصير الدين الطوسي وإيتمور، بصحبة رئيس الديوان فخر الدين الدامغاني وسبط ابن الجوزي، وكانت الغاية إقناع المستعصم بتسليم سليمان شاه والدويدار مجاهد الدين أيبك. كنت حينها مكلفا من قبل أمير المؤمنين بتأمين حماية لدار الصخر التي تضم أقارب الخليفة، وانشغلت أيضا بنقل أمل وأبيها وعمها إلى دار الصخر؛ لذلك لم أحضر ذلك الاجتماع، ولم أعرف تاليا كيف أقنعا المستعصم بمطلبهما، وما هي الضمانات التي قدماها. لكن ما عرفته هو أن هولاكو أمر جيشه أن يستقر في أطراف بغداد إلى أن يرجع الرسل ويبلغوه النتيجة.

في يوم الخميس، غرة صفر، تمكنوا من إقناع الدويدار وسليمان شاه، فخرجوا بمعية الوفد. استقبلهما هولاكو، وكانت المفاجأة أنه طلب منهما أن يرجعا ثانية ويخرجا متعلقاتهما وعائلتيهما من بغداد حتى يكونوا في مأمن من الفتك. وكان عدد كبير من الجنود التاعسين قد أغروا بالسير في أثر قائديهم، بعد أن قيل لهم إنهم سيرسلون إلى الشام، فلما رأى الأهلون ذلك، عزموا أن يتبعوهم.

ما إن خرجت هذه الجموع من أبواب بغداد، حتى أحاط بها الجيش المغولي، وقسموهم ألفا ومائة وعشرا، وقال هولاكو لجنوده: «هؤلاء سهامكم، فاقتلوهم». فقتلوهم عن آخرهم. رحمهم الله جميعا.

* * *

26

شهر صفر من سنة النكبة الكبرى 656 هجرية

أعلم أن رسول الله قال: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامَة ولا صَفَر وفرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد». وأن صفر شهر من شهور الله، لكنني مع ذلك لا أخفي تشاؤمي منه، لا تقليدا لأهل الجاهلية، بل بسبب ما حدث فيه في عام نكبتنا هذا.

في يوم الجمعة ثاني صفر، أمر هولاكو بقتل الدويدار وسليمان شاه والأمير تاج الدين ابن الدويدار الكبير علاء الدين، ثم قطعوا رؤوسهم، أسكنهم الله جناته. وسُلِّمت الرؤوس الثلاثة إلى الخائن الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ، ليرسلها إلى أبيه الخائن ليعلقها على أبواب الموصل. يقال إن المتجبر وبَّخ سليمان شاه قبل قتله، لخيبته في التنبؤ بما وقع، فقد كان سليمان شاه من المنجمين المعروفين، وقال له متهكما: «أنت الذي عرفت المستقبل بالتنجيم، فلِمَ لَمْ تحذر سيدك من مغبة هذا الأمر؟» فكان جواب سليمان شاه، رحمه الله: «إن الخليفة كان سائرا نحو ما قدر له وما قدر عليه، ولم يكن ليأبه بما يشير عليه أتباعه».

في هذه الأثناء، حدث أن أصاب سهم تائه عين أحد كبار أمراء هولاكو، وهو هندوي بكتيجي، فثارت ثائرة هولاكو، وسخط على أهل بغداد، واستعجل في الاستيلاء على المدينة، فأمر الخواجة نصير الدين أن يقف عند باب الحلبة ويؤمّن الناس للخروج من هذا الباب، فأخذ الناس يخرجون جماعات جماعات.

في يوم السبت الثالث من صفر سنة 656 للهجرة، رأى المستعصم بالله أن الأمر قد تضايق عليه من كل الجوانب، وأن الأمر خرج من يده، فبعثني لأدعو الوزير. سأله الخليفة تدبيرا، فرد ابن العلقمي بجملة واحدة: الحل يا مولاي أن تسلم نفسك!!!

* * *

في الصباح الباكر من يوم الأحد الرابع من صفر، كان لقائي الأخير مع سيدي أمير المؤمنين، الخليفة المستعصم بالله عبد الله بن أبي جعفر المنصور المستنصر بالله. وجدته جالسا على بساط في سرداب في قصر التاج، مسندا جبينه المترب على راحة يده. سألني عن آخر الأخبار، فرويت بعض مشاهداتي للقتل، والحرائق التي أشعلها المغول في المرقد الكاظمي، وقصفهم لمرقد أبي حنيفة النعمان. أخبرته بما فعلت مع عميه، فلم يبدُ عليه اهتمام، أو لعله كان شارد البال. تطلع إليّ قائلا: «هل ترى أحدا من حولي؟» أجبته بالنفي، فقال منتحبا: «إنهم حولي يا عبد القهار، كل أجدادي، كل من عاش ومات في بغداد طيلة خمسة قرون، فكيف لا تراهم؟ لقد خنتُ الأمانة.. خنتُ الأمانة. لم أصغِ للنصيحة. دماء كل هؤلاء الأبرياء الذين قُتلوا والذين سيُقتلون، برقبتي أنا».

أدرت وجهي عنه وبكيت أنا أيضا بحرقة. خاطبني مجففا دموعه: «حين تكون على بعد لحظة قصيرة من الموت، تكتشف فجأة أنك لا تهابه، تقبل عليه كما لو أنك قد مارست هذا كثيرا من قبل. هذا هو قدري الذي صنعته، وأعترف أني قد أسأت صنعه، لكنني لست نادما قط على ما فعلته، لكنني أتحسر على أمور لم أفعلها وكان حَرِيًّا بي فعلها. ما يريحني هو ثقتي أن الحياة مستمرة بعد رحيلي، والغزو المغولي سينتهي ذات يوم، وستعود بغداد يوما ما مثلما كانت، حرة، أبية، شامخة بتاريخها، عزيزة بأبنائها، غنية باستقلالها».

سكت لحظات، محدقًا في وجهي شارد البال. سألني فجأة: «أما زلت تكتب يومياتك؟».

لم يدر في خلدي أن يتذكر أمير المؤمنين أمرا كهذا في هذه المحنة الصعبة، فأومأت بالإيجاب. قال محاولا الابتسام: «سجل إذن حوارنا الأخير هذا».

قال بنبرة حزينة، أو بدت لي حزينة: «سأخرج بعد قليل إلى المغول مع عائلتي وأعواني. لا يعرف عنك المغول شيئا، فاختبئ إلى حين تنتهي العاصفة الهوجاء. سأذهب للموت، ولا أريدك أن تموت معي. لو كنت ذاهبا لمعركة، لسعدت باصطحابك، لكنني ذاهب للسّياف».

لم يدعني أبدي رأيا، فنهض وعانقني بقوة، ثم دفعني برفق نحو مدخل السرداب، قائلا: «مهمتك الأخيرة أن تدعو أولادي لأجتمع معهم».

عند الظهيرة، رأيت مولاي يسير ومعه أولاده الثلاثة، يتبعهم ثلاثة آلاف من السادات والأئمة والأكابر والأعيان. كان أمير المؤمنين يمشي حافيا، مرفوع الرأس، لم يبدُ على وجهه الذي يراه الناس للمرة الأولى أي خوف أو هلع، بل كانت ملامحه منبسطة، رافعا يده تحية للناس المذعورين الذين ودعوه حتى أبواب بغداد.

سمعت فيما بعد أن الطاغية المتجبر لم يبدِ أثرا من الغضب عليهم، وراح يسأل عن أحوالهم بكلمات طيبة، ثم قال للخليفة: «مر الناس أن يلقوا السلاح ويخرجوا من المدينة حتى أحصيهم».

رجع الخليفة إلى داخل المدينة، ونادى المنادي بأمر الخليفة أن يلقوا السلاح، ويخرجوا. لم أخرج مع الكثيرين الذين خرجوا فقتلهم المغول. انطلقت وحوش المغول الهمجية تنهش في أجساد المسلمين. ونُقل الخليفة وخاصته إلى مخيم محاذٍ لباب كلواذا حيث معسكر القائد كتوبغا.

* * *

لا أظن أن أحدا ممن سيأتون في الأزمنة المقبلة لا يذكر فجيعة يوم السابع من صفر، وما حدث في هذا اليوم من مآسٍ. في يوم الأربعاء السابع من صفر سنة ٦٥٦ للهجرة، اكتسح المغول بغداد، وأطلقوا لشهوتهم العنان في القتل العام، فأحرقوا الأخضر واليابس، فكان الهول عظيما. تأخرت عن الوصول إلى دار الصخر للاطمئنان على أمل، فالطرق مزدحمة بالمغول والجثث. استطعت طعن جندي مغولي، وارتديت لباسه، فسهَّل لي ذلك الحركة دون خطر.

رأيت مجموعة من الجنود المغول تحاول اقتحام دار الشيخ الضرير الصرصري، فكان يرميهم بالحجارة من على سطح الدار، وعندما صعدوا إليه، ضرب أحدهم على رأسه بعكازه ذي الرأس المسطح، فسقط على الأرض ميتا، لكنهم اجتمعوا على الشيخ الطاعن في السن وأشبعوه طعنا حتى استُشهد أمام عيني. وفي طريقي إلى أمل، مررت بمجموعة من النصارى وهي تتجه لأحد الأديرة لتلوذ بها، فجرني أحدهم وكان مغطى الرأس، واستطاع بسرعة أن يلقي عليّ رداء أبيض، وحين تطلعت إلى وجهه،

وجدته أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله. همست إليه أنَّ عليّ أن أسرع لإنقاذ أمل، لكنه عصر كفي بقوة وجرها إلى الأسفل، ففهمت أنه لا يريدني أن أتكلم فيفتضح أمرنا.

حين شعرنا أننا أصبحنا في أمان، قال لي بصوت مرتعش: «خرجنا من دار الصخر قبل وصول المغول، لكن مجموعة منهم صادفتنا في أحد الأزقة، فاشتبكت أنا وأخي الخفاجي في قتالهم، لكن اثنين منهم قبضا على «أمل»، وحين رأت أباها الخفاجي يُقتل أمامها، صاحت بي أنها لا تريد أن تكون جارية في أحضان مغولي قذر كافر. وحين قتلت الذي كان يبارزني، كانت أمل قد أفلتت من أيديهم بعد أن استطاعت عض أحدهما وسلبته خنجره، فتقدما نحوها، وقبل أن يمساها، كانت.. كانت.. قد طعنت نفسها بالخنجر المغولي».

رحمك الله أيتها الحبيبة الطاهرة. لن يعوضني شيء في الدنيا موت «أمل»، فموتها معناه موت أملي. الآن تساوت الحياة والموت. لم يعد بيني وبين الموت حاجز إلا التوقيت. قفزت من مكاني، واتجهت إلى أحد الرهبان البغاددة، وكان كبير السن، تبدو الطيبة والتسامح على وجهه. أخبرته متوسلا أنه الوحيد القادر على تحقيق أمنية وحيدة في نفسي، فأبدى الرجل الطيب استعداده لعمل ما يستطيع عمله. حدثته عن أمل، وعن جثمانها الطاهر المرمي في زقاق لا يبعد كثيرا عن الدير. كنت معه في ثياب الرهبان، نتحاشى جنود المغول، والجثث المكومة في الطرقات، ودخان الحرائق. رأيت وجهها الجميل معفرا بالتراب. حملتها بين يدي، قبلتها من شفتيها القبلة الوحيدة، الأولى والأخيرة. عدنا بها لندفنها في حفرة بين قبور الدير.

أيتها الحبيبة.. لم يكن موتك موت شخص واحد، كان موت اثنين، موتك المفجع، وموت روحي الموجع. مت أيضا يا أمل، فحياتي من بعدك، لو نجوت الآن، ستكون حياة رتيبة موحشة، ويقينا ليست هي «الحياة» التي أردتها، تمنيتها، التي حلمت بها. كأن بغداد كلها مفجوعة بموتك، مثلما مت أنت مفجوعة ببغداد.. العويل والصراخ يهز المدينة، والصدور التي ما انكشفت يوما، ولا طلعت عليها الشمس، احمرَّت من الضرب واللطم، والسماء بكتك بأمطار غزيرة، ومنذ ثلاثة أيام احتجبت زرقة السماء وراء غيوم سوداء. لم تذهبي إلى المجهول وحدك، بل رافقك الألوف من قتلى أهل بغداد الأوفياء وهم يزفونك، ناثرين دماءهم عليك، ولم يَدَعوك تشعرين بالبرد، فتكدست عليك كالتلول أجسادهم المقطعة بالسيوف، المحروقة بنيران المنجنيق، المثقوبة بالرماح، المرمية بالسهام. رافقوك، أو رافقتِهم، إلى السماء، عذراء ، ليقدموك قربانا لعراقِ أحبيتِهِ، عسى الله، مستقبلا ، أن يقي أهله مزيدا من النكبات.

قد تلتئم الجروح، وتطلع الشمس من جديد، وينتهي البرد، ويذهب الجوع، وقد تنهض بغداد ثانية، لكنك لن تعودي ثانية، وتلك هي خسارتي التي لا تُعوض.

رحمك الله يا عذراء العراق.

* * *

في غمار فوضى الهجوم المغولي الكاسح على بغداد، رتب بعض أعوان الأمير أبي القاسم أحمد بن الظاهر بالله، عملية محكمة لتهريب الأمير من الدير إلى الأنبار. وعلمتُ بعد يومين أن الأمير وصل هناك سالما، وينوي التوجه إلى مصر.

لم يكن في بغداد مكان آمن سوى الأديرة والبِيَع، وكان قرار هولاكو اللعين بالحفاظ على نصارى بغداد ومن التجأ إليه، متأتّيًا من شكره للعون الذي أسداه الجنود النصارى في الجيش المغولي، وأكثرهم من الكرج، وإكراما لزوجته دقوزخاتون. وثمة مكان آخر، قيل إن المغول جعلوه ملاذا آمنا لمن التجأ إليه، ذلك هو دار الوزير ابن العلقمي. وقد حيرني هذا الأمر، فإذا أمنت الأديرة والبيع العدوان بسبب الكرج ودقوزخاتون، فما السبب وراء جعل دار الوزير مكانا آمنا لسلامة الداخلين؟ اللهم عفوك وسترك!

سمعت وأنا في الدير، أن مشاهد المذابح في الساحات والدروب والأسواق مروعة، وأن جثث الشهداء قد غطتها الأوحال، ووطئتها الخيول. نقل لنا بطرك النساطرة أنه شاهد مغوليين وقد نالا من الأسلاب ما لا سبيل إلى حمله بيسر، فهجما على رجل كان يتقرفص مذعورا في زاوية من الطريق، فقتلاه، وقطعا رأسه، وفتحا جمجمته ثم راحا يملآنها مالا. الله أكبر!

قال آخر إن جنديا مغوليا أجهز برمحه على أربعين رضيعا فقدوا أمهاتهم، وجُمعوا في المسجد، فقتلهم جميعا!

أمر هولاكو بإحضار كل أعوان الخليفة وأعمامه وأعوانه. علمت أني كنت واحدا ممن نودي باسمه بضرورة تسليم نفسه. كان قاضي القضاة البندنيجي يقود جماعة من الجنود المغول ويدلهم على دور أولئك الأعوان. ذهبوا إلى دار الصخر ودار الشجرة وغيرهما من الدور والقصور. كان الرجل يُستدعى من داره من بني العباس وغيرهم، فيخرج بأولاده وبناته ونسائه وجواريه، فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيُذبح كما تذبح الشاة، وأهله ينظرون إليه. ويؤسر من يختارون من بناته وبنيه وجواريه، وكانوا يفسقون بأهل الرجل وبناته في حضرته، وهو ينظر ولا يقدر على الكلام.

وقُتل أيضا شحنة بغداد، قطب الدين سنجر البكلكي، واستطاع الشيخ الجليل سبط ابن الجوزي، الإفلات من القتل المحتوم ، غير أن المغول قتلوا أولاده الثلاثة : جمال الدين الذي تولى وظيفة المحتسب مكان أبيه ، وشرف الدين ، وتاج الدين. وقتل الرجل الفاضل، شيخ الشيوخ ابن النيار، ورُمي جسده الطاهر على مزبلة أمام داره. وقتل داود بن المختار العلوي، والنقيب الطاهر شمس الدين علي بن المختار العلوي، وغيرهم وغيرهم. يا لضيعة الإسلام! يا للمصيبة!

باختصار شديد، قتل المغول جميع من وجدوهم من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في السراديب والآبار، وتمددوا في قنوات الفضلات والأوساخ، وبين الحشائش، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون. بعضهم لجأ إلى الخانات وأغلقوا الأبواب عليهم، ففتحها المغول، إما كسرا، وإما حرقا، فكانوا يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى السطوح، فيقتلونهم، حتى تجري الميازيب بالدماء. كذلك فعلوا بهم في المساجد والجوامع والربط.

لم يعد دجلة قلادة لؤلؤ تتلألأ بين نهدين، بل مجرى من دم أحمر قانٍ.

* * *

في يوم الجمعة، التاسع من صفر، دخل هولاكو بغداد، وتوجه إلى قصر «التاج»، وجلس على ميمنته قادته وأمراؤه. طلب إحضار الخليفة. يقولون إن مولاي المستعصم اقتيد ذليلا إلى داخل القاعة التي كان ينحني أمامه فيها الملوك والسلاطين، ومن هذا القصر، كان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا. دخل ذاهلا، فقال هولاكو بسخرية: «نحن الضيوف وأنت رب المنزل، فأتِ إلينا بما يليق بضيافتنا».

رد المستعصم بعينين زائغتين: «ها؟ نعم، هذا صحيح. لكنني نسيت أين وضعت مفاتيح خزائنه».

ردّ السلطان المغولي بأن ذلك ليس صعبا، فأمر بكسر الأقفال، فأخرجوا ما يقدر بألفين من الثياب الفاخرة، التي لم تقع عيون المغول على مثلها من قبل، وعشرة آلاف دينار ذهبي، ونفائس ومرصعات وجواهر عديدة. اهتم قواد هولاكو بها، لكنه لم يأبه بها، فوزعها عليهم. التفت إلى الخليفة الراسف في القيود الثقيلة: «الأموال الموجودة على ظهر الأرض ظاهرة، لكنني أريد أن تبين الدفائن وموضعها وماهيتها، وإلا أسلمتك إلى هؤلاء المتوحشين».

اعترف المستعصم بوجود حوض مملوء بالذهب في وسط القصر. دلهم على المكان، فأخذوا يحفرون، فوجدوه مملوءا بالذهب الأبريز، وكل قطعة منه بزنة مائة مثقال!

فلماذا يا مولاي بخلت على الجيش وكانت لديك كل هذه الخزائن؟

أمر هولاكوخان بإحصاء حرم الخليفة، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا، وألفا من الخدم. قال مولاي متضرعا: «إن حرمي لم تكن الشمس والقمر يطلعان عليهن».

ضحك هولاكو قائلا: «لا تكن بخيلا علينا أيها الخليفة، يكفيك أن تختار مائة منهن، وخل الباقيات لنا».

همس القائد «كتوبغا نويان» في أذن هولاكو شيئا، فخاطب المستعصم: «يقال إن لديك زوجة غاية في الحسن، سآخذها منك».

روى لي أحد الثقاة ممن التحقوا بالدير مؤخرا، أن عصمة الدين والدنيا، ليلى أم مبارك، كانت تتوقع ذلك، فأعدت لنفسها خطة للخلاص إذا لم تجد

مفرا. دخلت القاعة حاملة على يديها سيفا، رُصع مقبضه بالحجر الكريم، محاطة بالجنود المغول، تتبعها خادمتها «بدور»، فبهرت القادة المغول بجمالها. كان الخليفة مطأطئ الرأس، لكن ما إن تحدثت، حتى أخذته الدهشة. قالت متصنعة السرور: « أيها القائد المظفر هولاكوخان، إنها لفرحة كبرى، وفخر لا حد له، أن أكون بين أحضانك، ولأثبت لك اعتزازي بك، سأقدم لك هذا السيف الذي لا وجود لمثله على الأرض».

مد هولاكو رأسه مدهوشا ومتعجبا، فأضافت: «ميزة هذا السيف أنك لو ضربت به، خطأ أو غضبا، شخصا تحبه، فذلك الشخص لا يموت. لا بد أنك ترى ذلك شيئا لا يصدق، لكني سأثبت لك».

ناولت السيف لخادمتها «بدور»، وطلبت منها أن تضربها بقوة على رقبتها. أمسكت الخادمة بالسيف وهي ترتجف، ورفعته لتهوي به على رقبة ليلى، فقتلتها في الحال.

بُهت هولاكو للموقف واكتشافه للخدعة التي انطلت عليه، فأمر بقتل «بدور»، فقتلت في الحال، وسقطت فوق سيدتها المذبوحة.

كانت مصيبة أمير المؤمنين، بعد كل هذا، مصيبة أعجز عن وصفها. قتلوا أمام ناظريه ولديه: أبا العباس أحمد، وأبا الفضل عبد الرحمن، وأسروا ولده مبارك الذي شفعت له زوجة هولاكو الثانية، أولجاي خاتون، وأرسلته في الحال إلى مراغه، وثلاثا من بنات الخليفة وهن فاطمة وخديجة ومريم. وقتلوا أمامه قادته الكبار، كل علماء بغداد وخطباء مساجدها، دمروا جيشه، نهبوا أمواله وثرواته وكنوزه، استباحوا المدينة التي أحبها وأحرقوها، ودمروا مبانيها، وأتلفوا مكتباتها التي جمعت تراث خمسمائة عام، وذبحوا شعبه. لك الله يا عبد الله!

27

الصفحات الأخيرة

قبل أن يغادر هولاكو، ومعه المستعصم المقيد، المدينة في صباح يوم الأربعاء، الرابع عشر من صفر، أي بعد أربعين يوما من استباحة بغداد، وينزل في قرية الوقف القريبة، أمر بالكف عن أعمال القتل وسلب الأموال. ولم يكن قراره هذا من باب الشفقة، بل خوفا على جيشه من انتشار الأوبئة، بعد أن تفسخت الجثث التي ملأت شوارع بغداد ودروبها وساحاتها، فنادى المنادي بالأمان وأن لا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد اليوم. وسمح هذا الأمان أن يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم. خرج المسلمون الذين كانوا يختفون في الخنادق، أو في المقابر، أو في الآبار المهجورة، أو في قنوات الفضلات والأوساخ، وقد تغيرت هيئتهم، ونحلت أجسادهم، وتبدلت ألوانهم. خرجوا ليفتشوا في أكوام الجثث، عن أبناء وأخوة وآباء وأمهات، وبدءوا بدفن موتاهم.

وفي آخر ذلك اليوم، اتخذ السلطان المغولي قراره بقتل أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، الخليفة العباسي السابع والثلاثين، أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله. وقبل أن يتقدم للقتل، ردد الشهادتين غير ملتفت لصيحات المغول الهستيرية ونداءاتهم الرعناء وضحكاتهم الماجنة.

لم أعرف الطريقة التي قُتل بها مولاي، فمنهم من قال إنه لُف ببساط، وداسته الخيل، أو رفس بالأقدام كي لا يسيل دمه على الأرض، وقيل قتل خنقا، وقيل قتل بالسيف، وقيل مات غرقا.

تغمده الله بالرحمة.

منع المغول خطباء المساجد من ذكر الخليفة المستعصم، لكنني في آخر جمعة وأنا في الدير، سمعت خطبة خطيب الجامع القريب، وكانت فقرة واحدة فقط: «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار. اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يُصَبْ الإسلام وأهله بمثلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون».

* * *

غادر الكثيرون الدير، لكني لم أستطع، فقد علمت أن البحث عني ما زال جاريا. لكنني سمعت أن الأميرة شمس الأتابكية، ما زالت في أمان بسبب وجود جيش أبيها مع المحتل. كانت هي الوحيدة القادرة على إنقاذي. فأرسلت إليها أحد سكان الدير، وعندما جاءت، رأيتها مسرورة برؤيتي. أخبرتني أنها تنتظر مجيء أبيها لتهنئة الغازي السفاح، ولترى بعينيها كيف سيسخم أبوها، وهو في الثمانين من عمره، جبهته بالركوع أمام قاتل المسلمين.

خرجت من الدير برفقتها متوجهين نحو الشماسية. بعد مسيرة قصيرة، سد الطريق علينا موكب الوزير ابن العلقمي، وقد سمعت أن هولاكو سلمه الوزارة في بغداد، وسمعت أيضا أن الدامغاني وقاضي القضاة، وافق السفاح على بقائهما في منصبيهما.

عندما تعرف علينا ابن العلقمي، أمر أتباعه بالابتعاد. سلّم على شمس، فلم ترد السلام، بل أدارت وجهها عنه. قال لي: «لو كنت أعلم مكانك لأنقذتك».

قلت: «كنت تعلم مكان من أحبك ووثق بك أكثر وله فضل عليك، ومع ذلك تركته للموت».

ارتبك، قال متلعثما: «لم أستطع أن أفعل شيئا لإنقاذ الخليفة. فعلت ما في وسعي لإنقاذ المئات».

قلت: «لا أشك في مروءتك، ولا في علمك واطلاعك، لكنني أراك الآن في موقف لا تحسد عليه. كيف ارتضيت لنفسك أن تكون الآن عونا ويدا لقاتل المسلمين، وهاتك حرمة المسلمات، ومحتل بغداد ومدمرها؟ هل فاتك أن معاونة الظالمين بمثابة الظلم، وأن من مشى مع ظالم ليقويه فقد خلع رقة الإسلام؟ فكيف بمن يصبح وزيرا لظالم قلّ نظيره؟ هل نسيت قول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، مخاطبًا به الحسن والحسين سبطي رسول الله: (أوصيكُما بِتقوَى الله، وألاّ تبغيَا الدُّنيا وإنْ بَغَتْكُما، ولا تأسَفا على شيء منها زُوِيَ عنكما، وقولا بالحقّ، واعملا للأجر، وكونا للظّالم خَصْمًا وللمظلوم عَوْنا)؟ إنني أرثي لحالك».

لم يحر جوابا، فتركناه في وقفته تلك، وقد اصفرَّ وجهه، واستغرقه الذهول.

وجدنا مريم تقيم وحيدة في ساباط من الخوص والسعف وسط بستاننا، وأمامها قبر ما زال نديا ترابه. قالت باكية: «ظلت أمك، رحمها الله، تتوجع مع كل صرخة طفل فقد أبويه، مع نشغ كل امرأة نُكبت بأهلها، مع زفرة

كل رجل حمل أجساد قتلاه. أدمى قلب أمك كل سهم وقع على بغداد، وآلمه وقوع كل قتيل من أهل المدينة. كانت تصرخ مع كل حريق، وتختنق مع كل دخان. وكانت صدمتها الكبرى، عندما أحرق المحتلون الدار، فهوت على الأرض في هذا المكان، مرددةً اسمك».

لم تعد في مآقيّ دموع أذرفها على قبر أمي. جلست عند القبر ساكتا، وفي داخلي كنت أسمع حكاياتها، ضحكاتها، تمتماتها بالدعاء بعد الصلاة.

اقترحت عليّ الأميرة شمس أن أغادر بغداد على عجل، فجنود المغول ما زالوا يبحثون عني. فأخبرتها أني أرى في مريم أمي، ولن أتخلى عنها. شجعتني مريم على الرحيل إلى بلاد أرمينية، حيث أنعم هناك بالحرية التي حُرمت منها في وطني، وأعيش في أمان، لا يطالني فيه سيف مغولي مصاص للدماء، أو خنجر عميل ذليل غدار. تعهدت شمس أن ترسل معنا جماعة يؤمّنون وصولي إلى هناك. لم يتوقف كرم شمس عند هذا الحد، بل تعهدت أن توصل هذه الصفحات إلى الكتّاب في سوق الوراقين ليستنسخوها؛ لأنني ما زلت أتذكر كلمات مولاي المستعصم: « إذا لم يتح لي يوما أن أقرأها، فسيقرؤها آخرون».

لم يعد لدي ما أفعله سوى الجلوس في ركن قصي واجترار الذكريات، مرددا مع نفسي ما قاله الشاعر محمد بن علي بن خلف البيرماني:

فِدًى لكِ يا بغدادُ كلُّ مدينةٍ ... منَ الأرضِ حتى خطتي وديارِيا

فقد طفتُ في شرقِ البلادِ وغربِها ... وسيَّرتُ خيلي بينها وركابيا

فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلا ... ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ واديا

ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلا وأعذَبَ ألفاظًا وأحلَى معانيا
وقائلةٍ لو كانَ ودُّك صادقًا لبغدادَ لمْ ترحلْ فقلتُ جوابيا
يقيمُ الرجالُ الموسرون بأرضِهم وترمي النَّوى بالمقترِين المَراميا

* * *

أتمنى من كل من يقرأ هذه السطور أن يتذكر بالتقدير شهداء بغداد، ويقرأ سورة الفاتحة على روح عبد الله بن أبي جعفر المستعصم بالله، وعلى روح أمل البتول بنت الأمير الخفاجي بن الظاهر بأمر الله، وعلى كاتب هذه الصفحات، عبد القهار بن ناصر الدين الحسين المنصور العراقي الكندي البغدادي، الذي سيغدو، بعد أيام قلائل، غريبا، وحيدا، يجتر ذكرياته بصمت وألم، والذي، بلا شك، ستقتله الغربة، إن أفلت من سيوف المحتلين.

* * *

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ فما وقوفُكَ والأحبابُ قد ساروا
يا زائرينَ إلى الزوراءِ لا تَفِدوا فما بذاك الحمى والدارِ ديّارُ
تاجُ الخلافةِ والربعُ الذي شَرُفَتْ بهِ المعالمُ قد عفاه إقفارُ
يا نارَ قلبي مِنْ نارٍ لحربِ وغًى شَبَّتْ عليهِ ووافى الربعَ إعصارُ
علا الصليبُ على أعلى منابرِها وقامَ بالأمرِ من يحويهِ زنارُ
وكمْ حريمٍ سبته التركُ غاصبةً وكانَ من دونِ ذاك السترِ أستارُ
وكمْ بدورٍ على البدريةِ انخسفتْ ولم يعدْ لبدورٍ منه إبدارُ

وكمْ ذخائرَ أضحتْ وهي شائعةٌ مـنَ النهابِ وقـد حـازتْـهُ كفارُ
وهمْ يساقونَ للموتِ الذي شهدوا النارُ يا ربِّ من هذا ولا العارُ
منْ بعدِ أسرِ بني العباسِ كُلِّهِمُ فلا أنـارَ لوجهِ الصبحِ إسفارُ
ما راقَ لي قطُّ شيءٌ بعدَ بَيْنِهِمُ إلا أحـاديـثُ أرويهـا وآثـارُ

(الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي الدمشقي الكاتب) (589- 673 هجري)

سيدني
يوليو «تموز» 2010

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET